

دانتي و الشرق

تأليف: بريندا دين شيلديغين
ترجمة وتقديم: سمير كرم

1561

تذهب شيلديغن - فى هذا الكتاب - الذى يتميز بالبحث الدقيق إلى أن معالجة دانتي للمشرق مكنته من أن يستخدم الخطابة التى كانت مستخدمة فى المرويات الصليبية وغيرها من أدب الرحلات ، لكى يعارض الأهداف الأدبية والجدالية للحملات الصليبية ، وأن يتطلع إلى إصلاح الكنيسة والدولة على السواء .

تؤكد شيلديغن معرفة دانتي بالمشرق عن طريق تفصيل إدراكه للجغرافيا التجريبية ورسم الخرائط ، اللذين كانا يتماشيان مع النظريات السائدة للقرنين الثالث عشر والرابع عشر . غير أنها تذهب فى تدليلها إلى أن دانتي يعارض التقاليد التى كانت تسود فى رسم الخرائط ومعتقدات المرويات الصليبية ، عن طريق استبدال الرحلات المجازية بحج أدبى ، وكان بذلك يحول التركيز بعيداً عن البصيرة المادية للأماكن المذكورة فى الكتاب المقدس المستخدمة فى المرويات الصليبية ومرويات الحج الأخرى .

تصور شيلديغن - وهى تمزج البحث التاريخى الرصين بالفكر التجديدى المعاصر - كيف كان تبنى دانتي الفريد للخطابة الصليبية يمنحه دور النبى ، فقد كان - بحكم انشغاله ذهنى بالبلاد الواقعة وراء الحدود الأوروبية ، إنما دون أن " يشرقها " أو يصنع منها " تعويذة " - يضع موضع التساؤل مفهوم الخلاص خارج البلاد المسيحية ، ويطلق رسالة شعرية ملتهبة على عالم لا تبنى متدهور مزقته الأزمان ، عالم لا يرقى إلى مستوى مثله العليا المعلنة . وفى توقيف دانتي العميق للمشرق تصبح عجائبه رموزاً لعظمة الرب وجمال المملكة الإلهية .

دانتي والشرق

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1561

- دانتى والشرق

- بريندا دين شيلديغن

- سمير كرم

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Dante and the Orient

By Brenda Deen Schildgen

Copyright © 2002 by the Board of Trustees of the

University of Illinois

Reprinted by arrangement with the University of Illinois Press.

Arabic Copyright © The National Center For Translation (NCT)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

دانتي والشرق

تأليف : بريندا دين شيلديغين
ترجمة وتقديم : سمير كرم



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شيلديغن، بريندا دين.
دانتي والشرق / تأليف: بريندا دين شيلديغن، ترجمة وتقديم :
سمير كرم .
ط ١ ، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠ .
٢٤٠ ص ، ٢٤ سم
١ - دانتي أليغييري ، ١٢٦٥ - ١٣٢١ .
٢ - الشعراء الإيطاليين .
٣ - الشعر السياسى .
(أ) كرم ، سمير (ترجمة وتقديم)
(ب) العنوان
٩٢٨ ، ٥١

رقم الإيداع ٢٠١٠ / ٤٥١٤
الترقيم الدولى 978-977-479-903-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الإهداء

إلى ماثيو

إن كل لحن يعزف بعدوثة قصوى فى الآذان الفانية

فى الآذان الفانية إنما يسترق الروح بعيداً

على نحو ما يهدر رعد من سحابة

فإذا ما قيس بتلك القيثارة

التي تردد أجراس الياقوتة المستديرة

التي حولت السماء الباهرة الضياء إلى لون الياقوت الساطع

- الفردوس، الأنشودة ٢٣، الأبيات ٩٧-١٠٢

المحتويات

11 مقدمة المترجم
25 تمهيد وتنويهات
30 ملاحظة عن نصوص دانتي
31 مقدمة
61 الفصل الأول : جغرافية دانتي
99 الفصل الثاني : الشرق فى العالم اللاتينى
133 الفصل الثالث : دانتي والحمة الصليبية فى الأراضى المقدسة
173 الفصل الرابع : دانتي والأندوس : خلاص الوثنيين
201 الفصل الخامس : المعجز والأعجوبة: دانتي وعجائب الشرق

الأشكال

الشكل ١ - خريطة العالم لهيرفورد (القرن الثالث عشر) (بتصريح من دين وفرع هيرفورد وهيرفورد لخراائط العالم) .

الشكل ٢ - لوكان، فارازاليا (القرن الرابع عشر) . المكتبة الرسولية فى الفاتيكان . فاتيكانا لاتينا . (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٣ - ماكروبيوس . تعليق على حلم سيبيو (القرن الثالث عشر) بالاتينا لاتينا ١٥٧٧ . (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٤ - خريطة العالم لسالتر . (بتصريح من المكتبة البريطانية) .

الشكل ٥ - سالوست ايوغورتا (القرن الثالث عشر) المكتبة الرسولية فى الفاتيكان فاتيكانا لاتينا ٢٣٢٨ (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٦ - بيتوس الليبانى (تعليق على سفر الرؤيا - ١٦٩٠) (بتصريح من المكتبة البريطانية) .

مقدمة المترجم

هل لا يزال دانتي بحاجة إلى تعريف؟

ربما إذا سئل هذا السؤال في الغرب - حيث ولد وعاش وأبدع - لكنت الإجابة بالنفي، بوضوح وبصورة قاطعة. لكن إذا طرح السؤال نفسه في بلادنا في الوطن العربي عامة - تكون الإجابة الصحيحة ودون خداع للنفس بالإيجاب.

ذلك أن معرفتنا بدانتي لا تزال محدودة للغاية. وليس هذا زعماً بأن من شأن هذه المقدمة أن تقدم تعريفاً به يعوّض عن هذه المحدودية ... إنما هي دعوى للدخول بقوة في مجال ما يسمى منذ سنوات طويلة "الدراسات الدانتية". هي دعوى للباحثين والأدباء والشعراء والمعنيين بالفلسفة والمؤرخين بالعصور الوسطى والمعنيين بنهايتها ويزوغ عصر النهضة، وحتى لأساتذة العلوم السياسية. فلقد كان لدانتي نصيب في هذا كله. ولم يكن مجرد نصيب كمي .

أهم ما بُذل من جهد للتعريف عربياً بدانتي يتمثل في الترجمة الدقيقة التي قدمها الباحث المصري القدير حسن عثمان لـ الكوميديا الإلهية، عمل دانتي الأشهر والأخلد - إذا جاز التعبير - والمقدمات الثلاث التي كتبها لأجزاء الكوميديا الإلهية الثلاثة، وهي - أي المقدمات الثلاث - تشكل معاً كتابة على درجة كبيرة من الإتساع والعمق عن دانتي وعن هذا العمل الكبير^(١) .

ولقد كان من شأن هذا العمل المتميز أن يحفز كثيرين على الاهتمام بدانتي بأكثر مما حدث بالفعل، لكن هذا لم يحدث في وطننا العربي. وليس المجال هنا مجال البحث في أسباب ذلك .

فى كتاب نادر (نافذ) منذ سنوات يقول مؤلفه "كل شىء يتعلق بدانتى له صفة العظمة الحقيقية". هذه عبارة شديدة الإيجاز تلخص الكتاب بعنوان دانتى كمفكر سياسى، والمؤلف هو إى. بى. دانتريف^(٢).

إذا عدنا إلى كتاب دانتريف عن دانتى كمفكر سياسى نعرف إلى أى مدى كانت كتابات دانتى السياسية ذات أهمية تاريخية فى حينها.

يقول المؤلف: إن دانتى كان منظرَ الإمبراطورية الوسيطة (نسبة إلى العصر الوسيط) وأن كتابه بعنوان الملكية Monarchia اعتبر بمثابة "لوحة القبر التى تؤبن الإمبراطورية المقدسة. وأن هذا الكتاب يقف جنباً إلى جنب مع السياسة لأرسطو والجمهورية لأفلاطون ورأس المال لكارل ماركس بين أهم الكتب السياسية النظرية. ويكشف دانتريف أن فكرة الإنسان كحيوان سياسى التى قال بها أرسطو قبل دانتى بنحو سبعة عشر قرناً كانت متغلغلة فى فكر دانتى بعمق، وإن كان قد أخضعها لعملية تخليص وتحويل وإخضاع من جانب الشاعر والفيلسوف والصوفى فيه .

وينبه دانتريف إلى فكرة بالغة الأهمية حين يقول: إن المشكلة فى دراسة دانتى المفكر السياسى تكمن فى حقيقة أنها لا تستطيع أن تعتمد على كتاباته السياسية وحدها، ولا بد لها أن تغوص فى أعماق الكوميديا الإلهية. ففي الكوميديا يحول دانتى المفاهيم السياسية إلى صور شعرية ببراعة لا نظير لها.

ويقول مؤلف دانتى كمفكر سياسى: إن تفسير دانتى القوى لشخصيات الباباوات والملوك والأباطرة ومصائر المدن والأمم تكمن كلمته الأخيرة فى السياسة ... لقد عاش دانتى حياة كاملة مستغرقاً فى تأملات سياسية ... وينتهى هذا كله بملاحظة للحزن اللامتناهى أمام عرش متعالٍ فى السماء محجوراً للأمير سىء الطالع الذى كثيراً ما تطلع الشاعر إليه متمنياً أن يكون على يديه تحقيق الفداء لبلده وللعالم ككل.

يقول دانتريف: إنه فى دراسته لدانتى كمفكر سياسى طرأت له فكرة واحدة هادية فى معالجة هذا الموضوع: إن اهتمام دانتى بالشأن السياسى يبدو له أمراً تحدده ثلاثة عوامل رئيسية أو لعلها مصادر ممكنة بالإلهام: المدينة، الإمبراطورية، والكنيسة. ولا يتطابق هذا الإلهام فقط مع المشكلات الرئيسية التى واجهت دانتى فى زمانه. بل إنها تفسر وتصور الطوابق أو المواضيع المختلفة التى لا يكون من الممكن بدون مجهود مفرط اكتفاء أثر تطوره الفكرى.

لهذا فإن دانتريف اختار - هذه المشكلات الثلاث المدينة، الإمبراطورية، والكنيسة - لتكون عناوين لمحاضراته الثلاث التى ألقاها بدعوى من الكلية الجامعية فى لندن فى فبراير (شباط) ومارس (آذار) عام ١٩٥١، والتى شكلت محتويات كتابه المذكور. ويقول فى المحاضرة الأولى: إن من الواضح أن أى دراسة لفكر دانتى السياسى لا تحتل تماماً إذا لم تأخذ فى حساباتها التأثير الذى مارسه عليه خبرته فى مدينة الدولة .

مع ذلك فإن الأمور التى يمكن تأكيدها عن فكر دانتى السياسى تبقى قليلة فى ضوء حقيقة قلة المصادر المباشرة التى بقيت لنا بعده عن فترة تأملاته فى السياسة فى سنوات شبابه. وفى تلك الحقبة كان قليلاً ما يتأمل. فقد كان يعيش تجاربه ويسلك خلالها، لكن هذا لم يمنع دانتريف من أن يؤكد "أن صميم فلسفة دانتى السياسية ظل فى جوهره مدنياً" ... وأن الكوزموبوليتانية - العالمية - قد فرضت عليه فرضاً بحكم حياته فى المنفى. لم تكن أبداً بالنسبة إليه شيئاً أكثر من إلهام، عباءة أخفت جروحه " .

لكن إذا ما أردنا أن نعرف ماذا كانت مشاعر دانتى الحقيقية فى هذا الصدد، فما علينا إلا أن نقرأ قوله فى البلاغة الفجة: " فيما يتعلق بملذات أو شعور الارتياح الحسى لدينا فإنه لا وجود لمكان أكثر جمالاً فى العالم من فلورنسا " .

أو فلنقرأ قوله: "ولكن بالنسبة إلينا، نحن الذين نعتبر عالمنا هو بلدنا الأصلي، تماماً كالبحر للسماك، على الرغم من أننا شربنا من نهر أرنوب قبل أن تنبت أسناننا وعلى الرغم من أننا نحب فلورنسا حباً جماً، حتى أن الحب الذي نحمله لنا يجعلنا مخطئين في معاناة المنفى، فإننا نضع حكماً على عاتق العقل وليس على عاتق الشعور".

ولقد كان دانتي شاهد عصره على صعود المدينة الدولة في إيطاليا، الأمر الذي كان له تأثيره العميق على مصائر أوروبا كلها. وكانت المدينة الحرة هي التي شكلت خلفية تأملات دانتي في الشأن السياسي المدينة ذات السيادة.

ثمة مؤلف آخر عني بدانتي السياسي كتب مساهمة في كتاب بعنوان عقل دانتي^(٣) نشر بإشرافه وكانت مساهمته بعنوان "فكر دانتي السياسي"، وفيها يقول: "لقد قيل باستمرار أن كل قرن من الزمان وجد في فكر دانتي السياسي ما ود أن يجد فيه، ومن الصدق - أكثر من هذا - أن نقول (أو هكذا يبدو لقارئ متحيز مثلي) إن معظم الكتاب بحثوا في أعمال دانتي عن تأكيد لأفكارهم التي تصورها مسبقاً عن أرائه السياسية".

مؤرخو العصر الوسيط، النقاد الأدبيون، علماء اليهود، طلاب الفلسفة الوسيطة، وطلاب تاريخ القانون والفكر السياسي، جميعهم بحثوا في أعماله من وجهة نظرهم وخرجوا باستنتاجات متعارضة تماماً، بعضهم اعتبر أن فرضيات دانتي كانت أصيلة بصورة قوية بل حتى ثورية، وآخرون اعتبروا أنه قرر نظريات أكل الدمار عليها وشرب. وبعضهم ألح إلى أنه كان متطرفاً، وآخرون اعتبروا أنه كان كاتباً معتدلاً. بعضهم اعتقد أن معرفته العميقة بالقانون أثرت في فكره السياسي، وغيرهم أن أدواته في هذا الميدان كانت سطحية.

يؤكد ليمنتاني أن "الإنشغال بالشأن السياسي كان حاضراً على الدوام في عقل دانتي". فهو الذي حدد مسار حياته، ووصولاً إلى وقت كتابته الفردوس (القسم الثالث

من الكوميديا) لم يكد يكون هناك عمل واحد من أعماله كتب به بعد أن نفى وكان الشأن السياسي غائبا فيه طويلاً. فقد جذب إلى المشاركة النشطة في الشؤون السياسية وحول فلورنسا وهو بعد شاباً يافعاً ... وطبقا للتقليد السائد في موطنه فلورنسا كان مستعداً لتأييد البابا، لكنه كان جاهزاً بسلحه للوقوف ضده إذا ما حاول أن يتحرش بمصالح فلورنسا.

قامت نظرية دانتي السياسية على أهمية وجود إمبراطور متحرر من الجشع، لا حدود لصلاحياته وبالتالي لا يرغب في شيء ويمكن بالكلية أن يكون عادلاً في حكمه، باعتباره ضرورة لسعادة البشرية. وتقوم هذه النظرية ذاتها بالضرورة على أن البشرية ليست مجرد مجمل كلى لعدد ضخم من البشر، إنما هي كيان يمكن اعتباره كذلك. وهذه الفكرة، التي تتسم ببعد النظر وبعد المنال، هي فكرة مجتمع إنساني عالمي (كلى Universal) توفر إطاراً للاستدلال العقلي الوسيط وتسلم بمطلب ملكية عالمية لهداية البشرية.

وفي هذا الصدد كان دانتي يفكر في إيطاليا كوحدة سياسية. مع ذلك فإن اسم إيطاليا لا يرد في كتابه الملكية برمته إلا في إشارتين عابرتين. وحتى في هاتين الإشارتين فإن من الواضح أن آماله السياسية فيما يتعلق بإيطاليا لا تتجاوز الحفاظ على الاستقلال الذاتي المحلي والإقليمي تحت إشراف ممثلي الإمبراطور وتعاون مثمر بين الحكومة الإمبراطورية والجمهوريات والحكام في إيطاليا. وعبرة أخرى - حسب ليمنتاني - لا تتجاوز ما اقترح الملك هنري السابع أن يحققه.

ولا شك أن الإمبراطور الذي يتحدث عنه دانتي في هذا السياق هو بالتأكيد الإمبراطور الروماني.

كان دانتي يتصور التاريخ تجلياً لإرادة الرب، وأخذ من التاريخ ذلك الجزء الذي بدا له الأكثر أهمية من كل الأجزاء الأخرى، وهو تاريخ الشعب الروماني في تقدمه نحو اكتساب السيادة على كل البشر في زمن الإمبراطورية ... فالشعب الروماني هنا

منظور إليه باعتباره أداة التصميم الإلهي، وأما الماضي الوثني المجيد الذي كان مرسوماً ومقدراً فإنه معروض من خلال حالة الدولة المعاصرة المفجعة وصولاً إلى مستقبل يبرهن - من خلال قراءة صحيحة للتاريخ على أنه مطابق لإرادة الرب.

ولعل دانتى كان أول من دعا إلى الفصل الكامل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية. إنه فى رأيه الحل الحقيقى لمشكلة العلاقة بين السلطتين.

بل أن دانتريف ينسب إلى دانتى أنه سبق الماركسية إلى القول بزوال الدولة عند بلوغ ما اسماه دانتى "وحدة السلام". بل أنه توقع زوال الشأن السياسى برمته، على الأقل بأى معنى حديث للكلمة. وعند دانتى تتمثل الفكرة الوسيطة المهيمنة عن السلام وكلمة السلام عنده كلمة مفتاح لفهم موقفه إزاء الشأن السياسى، ومعنى السلام عنده استعادة العدالة بين البشر.

وعلى الرغم من تأكيد دانتى بأن القوة (السلطة) فى الحالتين الزمنية والدينية، هى من الرب فإنه اعتقد بأن سلطة بطرس وسلطة قيصر هما كالكنيسة والإمبراطورية (شبههما شعرياً بالشمس والقمر، كل منهما هى العليا فى مجالها ..). وقد وقع الخلاف عندما أعلن البابا فى زمن دانتى نفسه أن السلطة الزمنية تستمد فعلاً من الرب إنما عبر قناة السلطة الروحية. إنما المهم أن نعى أن دانتى لم يتصور إمكان الفصل التام بين السلطتين إلا بعد أن تتحقق السلطة (الحكومة) العالمية .

عندما يقال الشرق بأى معنى يكون مفهوماً أن المعنى يشمل حقيقة أن الإسلام يغطى جانبا هائلا من تكوين الشرق من كافة النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسية .. وأهم من هذا النواحي الثقافية.

بالتالى لابد أن نتوقع فى بحث يتناول دانتي والشرق أن يكون جانب كبير منه متعلقاً بالإسلام - فهم دانتي للإسلام - مدى إطلاع دانتي على الثقافة الإسلامية فى عصره، ومدى تأثره بها وأيضاً نقله عنها خاصة فيما كتبه فى الكوميديا الإلهية.

والحقيقة أن الباحثين المختصين بدراسة دانتي لا يزالون معنيين لأقصى درجة بما يعتبرونه مسألة "رشديته" .. أى تأثره بابن رشد أو حتى انتمائه لفلسفة ابن رشد. وهذا موضوع للنقاش بينهم لا يكاد ينقطع.

يلاحظ دانترىف أن معظم هذا النقاش لا يزال يتركز على النقاط نفسها التى كان قد أثارها جيدو فرنانى Guido Vernani فى كتابه الذى ألفه عن كتاب دانتي فى الملكية وقد صدر فى زمن دانتي، وعاد لتظهر منه طبعة حديثة فى ١٩٠٦ . ولابد أن نوضح هنا أن معظم الباحثين الذين يشير إليهم دانترىف هم باحثون إيطاليون، باستثناء أستاذ الفلسفة الفرنسى إتيان جيلسون مؤلف كتاب دانتي الفيلسوف^(٤) والألمانيان كيرن وجرادمان . وأهم النقاط المثارة: هى المتعلقة بنظرية ابن رشد فى العقل الممكن وقوله بأنه لا يمكن أن يكون للجنس البشرى عقل كلى واحد ممكن. جوهر كلى مستقل تماماً عن الجسم ... وأن المعرفة بالنسبة للإنسان الفرد لا تعنى شيئاً أكثر من المشاركة فى جزء ما أو آخر من المعرفة التى يملكها هذا العقل الكلى الواحد فإذا ما كان هدف الإنسان هو أن يعرف ما يمكن أن يقال أن هذا الجنس البشرى يستطيع بهذا العقل الممكن المستقل أن يبلغ هذه المعرفة وأنها فى متناوله طول الوقت.

ويذهب دانتي إلى أن كل أفراد الجنس البشرى الموجودين فى زمان ما على الأرض يمكن إعتبارهم جماعياً معادلين للعقل الممكن الواحد الذى يقول به ابن رشد. ويؤسس جيلسون على هذا قوله بأن دانتي ربما يكون قد اتخذ من نظرية ابن رشد فى العقل الواحد الممكن نقطة بداية، لكن هذا لا يعنى أنه تبنى نظرية ابن رشد بأكملها. وإذا كان دانتي قد قبل الرشدية فى هذه الجزئية فإن مذهبه لا يكون مبرراً لأن هدف

الإنسانية - بوجود مجتمع عالمى كلى أو عدم وجوده - يكون هدفاً ممكن البلوغ فى ديمومة العقل الممكن المستقل.

ويضيف جيلسون أن ابن رشد يتحدث هنا حديث ميتافيزيقى، أما دانتى فإنه يتحدث عن وحدة واقعية تقوم على بنية فعلية للعالم. يتحدث كمصلح سياسى واجتماعى.

وبطبيعة الحال فإن الرشدية عند دانتى - حتى لا نقول رشدية دانتى - ترتبط أو تعبر عن جانب من المبحث الأعم المتعلق بمدى تأثر دانتى بالإسلام والمفكرين الإسلاميين. وإذا استخدمنا تعبيراً يفضل الباحثون الأوروبيون والأمريكيون نقول تأثر دانتى بالثقافة العربية.

ولا يمكن أن يذكر موضوع تأثر دانتى بالثقافة العربية دون أن يأتى ذكر القس الكاثوليكي المستشرق الإسباني أسين (اسمه بالكامل ميجال أسين بلانثوس) الذى يمكن أن نعدّه بمثابة ماسينيون الإسباني. فقد كرّس من حياته عشرات السنين لدراسة فلاسفة الإسلام المتصوفين واهتم - أكثر ما أهتم - بالبحث فى مدى تأثر دانتى فى الكوميديا الإلهية بسيرة رحلة الإسراء والمعراج التى أسرى الله فيها برسوله محمد (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج خلال ذلك ليلاً إلى السماء حيث التقى برسل الله وأنبيائه الذين سبقوه، وقد صدرت فى عام ١٩٢٦ ترجمة إنجليزية لكتاب أسين وهى التى عنها ننقل ونعلق، والكتاب هو بعنوان الإسلام والكوميديا الإلهية.

يقدم أسين أدلة بحثية بالغة الوضوح والقوة على أن دانتى استعان بترجمة لقصة الإسراء والمعراج فى تقديمه لتصوره الخاص بالآخرة من خلال الجحيم والمطهر والفردوس فى الكوميديا الإلهية. وقد درس أسين هذا التوافق دراسة تفصيلية فى ضوء عديد من الأدبيات الإسلامية، وقارن بينها وبين الكوميديا فى أجزائها الثلاثة. بل أن هذه الدراسة ألزمته بأن يدرس ويمحص النفوذ الإسلامى على الأدبيات المسيحية

السابقة على الكوميديا الإلهية، وأهتم بطبيعة الحال بالتحقيق فى احتمال توفر ترجمة للأدبيات الإسلامية القريبة من الموضوع وإطلاع دانتي عليها.

ويتألف كتاب أسين الإسلام والكوميديا الإلهية (٢٩٥ صفحة) من أربعة أقسام، القسم الأول منها بعنوان أسطورة الإسراء والمعراج اللذين أداهما محمد (ﷺ) مقارنة بالكوميديا الإلهية، ويقول إن التفاصيل الكاملة لتطور الأسطورة فى كل تجلياتها من شأنها أن تملأ مجلدات. ويعرف أسين أن الإسراء والمعراج لا تشغل فى القرآن إلا حيزاً ضئيلاً ولكنها تتسع وتكتمل تفاصيلها فى الأحاديث النبوية. وهو يشرحها تفصيلاً فى هذا القسم من كتابه باعتبارها رؤى فى العالم الآخر. ومن هنا اعتقاده بوجود شبه بينها وبين الكوميديا الإلهية فى كون الأخيرة أيضاً رؤى فى العالم الآخر. ومن هنا مقارنة أسين بينهما مفصلاً أوجه الشبه بين الاثنين وهو فى هذا لا يقف عند حدود هذه المقارنة الثنائية؛ لأنه يعنى أيضاً بتفصيل الأصول التى يمكن أن ترجع إليها أسطورة الإسراء والمعراج، ويصل إلى أن لها أصولاً عبرية وفارسية ومسيحية، مؤكداً - مع ذلك - أن أياً من تلك المصادر لم يحتو على التفاصيل المستفيضة التى تنطوى عليها رحلة الإسراء والمعراج الإسلامية، ويعزو ذلك إلى أن الرواية الإسلامية بعد هذه الرؤى كلها استفادت منها وأضافت إليها الخيال العربى العفوى.

وهكذا نتبين أن ميجيل أسين لا يتوقف عند حدود القول الشائع بأن الكوميديا الإلهية إنما نقلت عن أو استلهمت أو اقتبست من رسالة الغفران للشاعر العربى الفذ أبو العلاء المعرى، وهو ما توقف عنده معظم الباحثين العرب منذ وقت طويل.

وفى القسم الثانى من الكتاب يعالج أسين موضوع المصادر الإسلامية للجزء الذى خصصه دانتي فى الكوميديا الإلهية لـ "المطهر" خاصة فى ضوء حقيقة عدم وجود أصول مسيحية سواء كانت إنجيلية أو لاهوتية لهذا الجزء. ويصل فى هذا إلى حد وصف التماثل بين مطهر دانتي والمطهر فى المصادر الإسلامية بأنه "طابق". ويقول

أسين: "إن المعنى الأخلاقي الذي أراد دانتي أن يوصله في كوميدياه الإلهية سبق أن أضفاه الصوفيون المسلمون، خاصة منهم "ابن عربي". ويخصص أسين فصلاً كاملاً من القسم الرابع لكتابة موضوع التشابه بين "دانتي وابن عربي" الأمر الذي يوفر مزيداً من البراهين على أطروحة التقليد".

في القسم الثاني من كتابه يعالج أسين أيضاً تفصيلات الجحيم كما وصفته المصادر الإسلامية وكما ينعكس في جحيم دانتي. ويخص وصف دانتي لإبليس بعناية خاصة في مقارنة هذه الأوصاف بما أوردته المصادر الإسلامية أيضاً: القرآن والحديث وأشعار كبار الشعراء المسلمين والصوفيين المسلمين. وتبلغ التفصيلات عند أسين حد الحديث عن تأثر دانتي في وصف لقاء دانتي بحبيبة صباه بياتريتشي في المطهر بمصادر إسلامية تتحدث عن اللقاء بين عروس السماء قرة العين وعريسها لدى دخول الجنة حيث يصطحبه رضوان إلى حيث تنتظره (...).

وإذا عدنا إلى حسن عثمان المترجم القدير والباحث للكوميديا الإلهية - في مقدمته لمجلد "الفردوس" - نجده يجد هذا الموضوع في سياق أوسع؛ حيث يقول: إن التراث الإسلامي عن العالم الآخر كان معروفاً في أوروبا حينما كانت الحضارة العربية والإسلامية صاحبة القدح الملقى. وقد تم انتقاله إلى أوروبا عن طريق الأندلس وجنوب إيطاليا، وعن طريق المشرق في عهد الحروب الصليبية. وعرفت صور من الإسرائء والمعراج الإسلامي في أوروبا منذ القرن السادس عشر. وظلت هذه الأخبار تتواتر في كتابات العلماء ورجال الدين والأدباء في أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر.

"هذه صور منجزة عن بعض ما ورد في تراث البشر عن العالم الآخر وعن الفردوس حتى زمن دانتي. وكانت هذه مادة متعددة الصور وفي متناول دانتي، الذي كان له أن يستعين بها فيما استعان به من العناصر المختلفة في بناء الكوميديا بعامة والفردوس بخاصة. وكان دانتي في هذه الناحية كما في غيرها كمن يصنع بدائع البللور من حبات الرمل"^(٥).

ويستطرد حسن عثمان مؤكدا المعنى نفسه تعرف دانتى هذا الطراز الفلكى فنجدته يذكر فى مؤلفاته بعض أعلام الفلك من القدماء ومن العرب مثل أرسطو وبطليموس والفرجاني. ونجد هذا أيضا فى اعتماده على هذا التراث حينما تناول الكلام فى الوليمة، أو فى الحياة الجديدة، أو فى الكوميديا عن مسائل فلكية تفصيلية متنوعة، مثل أبعاد الأرض وفينوس أو الزهرة وميركوري (المشتري) الذى كان سائدا فى زمانه^(٦).

مع ذلك فإن أسين لم يسع إلى الحط من شأن دانتى من خلال ذلك فقد ظل عنده شاعراً عظيماً فى مكانته السامقة فى عالم الأدب والفكر.

وقد أثار كتاب أسين - الصادر فى مدريد عام ١٩١٩ بعنوان دانتى والإسلام اهتماماً واسع النطاق من الباحثين الأوروبيين الذين أبدوا رأيه والذين عارضوا فى القول بأن دانتى أطلع على الإسراء والمعراج ونشطوا فى الكتابة فى الموضوع كل من زاوية نظره، مؤيداً أو منتقداً قوله بأن دانتى قرأ الإسراء والمعراج فى نص ترجمة إبراهيم الفقيم الذى كان يعمل مترجماً فى بلاط الملك ألفونسو العاشر، وفيه وصف لرحلة الرسول محمد (ﷺ) الليلية إلى السماء. كما أنه أطلع على مصادر أخرى إسبانية كانت شائعة فى الأندلس عن الإسراء والمعراج (والتي عرفت فى إسبانيا مثل سلم محمد الذى صعد به إلى السماء).

وما نستطيع أن نؤكد فى ضوء هذه المعلومات هو أن الكتاب التى نضع ترجمته بين يدي القارئ يدل على أن مؤلفته برندا دين شيلدجين عضو هيئة التدريس بجامعة كاليفورنيا (فى مدينة ديفيز) وعضو برنامج الأدب المقارن فى هذه الجامعة انضمت إلى هؤلاء الباحثين إنما لتبحث جانباً لم يتطرق إليه هؤلاء قبلاً. وهذا الجانب نوجهين جغرافى وتاريخى. الجانب الجغرافى يتمثل فى معرفة دانتى الموسوعية بالشرق وبصورة أكثر تفصيلاً بالأراضى المقدسة، أما الجانب التاريخى فهو الحقبة الصليبية

الطويلة كما مورست في الشرق فيما وراء حدود أوروبا. إنها تقدم في هذا الكتاب نظرة عميقة عن خيال دانتي الطوباوي وواقعه السياسية وإبداعاته الأدبية.

ولم يكن يمكن لهذه الباحثة أن تفعل ما فعله معظم الباحثين السابقين عليها في الدراسات الدانتية .. وهو الاختصار على الكوميديا الإلهية. لقد قدمت دراسة شبكية Cross - Sectional عبر كتب دانتي كلها التي تحتل فيها الكوميديا مكانة خاصة بحكم موسوعيتها وحجمها وأيضاً بحكم شهرتها العالمية. وقد تمكنت من خلال ذلك وبدقة بحثية منهجية ملحوظة - من أن تكشف كيف أن معالجة دانتي للشرق مكنته من أن يستخدم المجازية المستخدمة في المرويات الصليبية وآداب الرحلات الأخرى للوقوف ضد الأهداف العسكرية وغيرها من الأهداف المثيرة للجدل التي كانت تحرك الحملات الصليبية في الشرق.

اكتشفت المؤلفة - هكذا نستطيع أن نقول بلا تردد - اكتشاف دانتي أن الرواة الصليبيين إنما كانوا يدعون للإصلاح لكلا المؤسستين العتيدتين: الدولة والكنيسة، ولعل هذا أهم جانب سياسي في قراءتها لدانتي وللقنين اللذين عاش فيهما الثالث عشر والرابع عشر. ولا بد هنا أن نقول إن الباحثة شيلدجين لم تضع جانباً (على الرف) فكرها وخبرتها الفكرية والأدبية المعاصرة في بحثها المتأني هذا، إنما استخدمتهما ببراعة واقتدار لا يمكن إنكارهما أو إغفاهما، كما لا بد أن نشير إلى اهتمامها بأن تتجاوز في دراستها حدود البلدان الأوروبية إلى ما هو أبعد دون أن تحول مقاصد دانتي في كتاباته إلى عملية "مَشْرِقه" لمصادره، وهو يطرح تساؤلاته عن مفاهيم الخلاص خارج البلاد المسيحية، ويطلق مواهبه النقدية النابعة من إيمانه الكاثولوكي العميق والمتلبسة لباس الصور الشعرية المتلاحقة على العالم اللاتيني (الغرب كله) الذي مزقته أزماته وأوصلته إلى الانحدار حتى لم يعد يستطيع أن يرتقى إلى مستوى مثله العليا.

هنا يصبح الشرق عند دانتي كما قرأته المؤلفة "مبجلا بعمق، وتصبح عجائبه الكثيرة والمتنوعة رموزا على عظمة الرب وجمال العالم الإلهي".

إننى اعتقد أن تجاوز هذا الحد فى المقدمة يدخلنا فى تكرار ما سبق أن كتبته المؤلفة فى هذا البحث القيم .. وليس من حق المترجم فى رأى أن يسبق المؤلف إلى شرح أفكاره. إن عليه أن يقدمها فى اللغة التى ترجمها إليه كما هى تعبر عن نفسها بذهن القارئ بالمنطق والأسلوب اللذين أرتضاهما المؤلف. ولقد شرحت الباحثة مرامى دانتي الفكرية (والدينية والسياسية)، وليس من حقى كمترجم أن أشرح أبعد من هذا شرحها لدانتي، فهى أجدر به يقينا.

سمير كرم

هوامش مقدمة المترجم

(١) الكوميديا الإلهية (فى ٣ أجزاء : الجحيم - المطهر - الفردوس) . ترجمة حسن عثمان - دار المعارف (الطبعة الثالثة بدون تاريخ) .

(٢) A.p.d'Entreve : Dante as a political thinker . Oxford ,1952

L.L . Limentani : Dante's political thought, in the mind of Dante , Campridge Uni- versity Press, 1965.

Etienne, Gilseon : Dante the Philosopher (Translated by david Moore, Sheed & (٤) Ward, London 1932.

(٥) حسن عثمان فى مقدمة المترجم بالكوميديا الإلهية : الفردوس ، دانتي أليجييرى . دار المعارف القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٨ ص ص ٢٨ - ٢٩ .

(٦) المرجع نفسه ص-٣٠ .

تمهيد وتنويهات

إنى أذهب فى هذه الدراسة إلى أن البؤرة الجغرافية لمؤلف دانتي الكوميديا الإلهية هى أوروبا، لكن ليس بسبب "المركزية الأوروبية". على النقيض من ذلك، فلأن دانتي مشغول بالآزمات السياسية والكنسية لأزمته، يتبنى الشرق، ويغير هيئتها عما كانت مستخدمة فى الروايات الصليبية وغيرها من أدب الرحلات، ليحول قصيدته إلى حملة صليبية لإنقاذ فلورنسا وإيطاليا وأوروبا والكنيسة المسيحية.

إن "الشرق" كفكرة أساسية فى قصيدة دانتي يغير موضع اهتمامه - أوروبا - من شرق البحر الأبيض المتوسط وما وراءه. فنتيجة للحملات الصليبية، وزيادة فى النشاط التجارى وتقارير الرحالة كانت هذه المناطق قد برزت كأماكن إثارة ودهشة وتوسع بدءاً من القرن الحادى عشر. ولا يركز دانتي على الحواف الشرقية للعالم المعروف (الهند والحبشة) لكنها مع ذلك تؤدى وظيفة تحديات لليقينيات السياسية والدينية التى تحكم هذا المشروع الشعرى. والمقدمة تتناول هذه المسائل بصفة مباشرة أكثر.

يناقش الفصل الأول - كخلفية لفهم استخدام دانتي "مادة الشرق" - معرفة دانتي بالجغرافيا التجريبية وبالكيفية التى تعكس بها نظريات المعرفة المختلفة السائدة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وفى الفصل الثانى تناول الإسلام والحملات الصليبية والشرق الأوسط، فاحصة على وجه التحديد التعارض بين الحجج الصليبية عن دانتي وتلك التى نجدها فى روايات الحملات الصليبية للمحمته الصليبية من أجل الإصلاح فى الغرب اللاتينى. وطوال هذه الفصول أنظر إلى الكيفية التى يحول بها

دانتى الجيوسياسية الصليبية اللاتينية لتخدم حملته الصليبية الشعرية المتمحورة على إصلاح أوروبا. إذ يخلق دانتى حدوداً داخلية وحدوداً خارجية لجغرافيته؛ حيث يشكل حوض البحر الأبيض المتوسط والأراضى المتاخمة له الحدود الداخلية، على النحو الذى كان متكوّناً فى ظل الإمبراطورية الرومانية، بينما تشكل الهند وقادش الحدود الخارجية. إن دانتى يصفى الجيوسياسية العالمية لكتابه الملكية Monarchia ويحدد موقع تركيزه فى أوروبا.

وفى الفصل الرابع ألقى نظرة على الكيفية التى يقدم بها دانتى الأندوس - العالم الواقع وراء عامل أوراسيا الجيوسياسى كما طوره فى كتابه الملكية وفى الكوميديا - ليعرض مشكلات فى الجيوسياسية الطوباوية التى تستمد إلهامها من الرومان، لأناس وأماكن مستبعدة من رؤيته العالمية المعلنة. فالهند - كموضوع أولى- كانت تضم البراهمانيين المحبين للسلام (الصوفيين العراة)، الذين ذكرهم أوغسطين وأورسيوس ودعمهم دينديموس فى قصصه، والمعجزات التى احتفى بها فى مغامرات الإسكندر^(١) وغير ذلك من مواد العجائب التى بنيت على تاريخ بيريليس^(ب) Historia de Preliis وأعمال سترابو^(ت) وبلينى^(ث) وموسوعى العصور الوسيطة. غير أنه لا بد من أن يضاف

(١) Li Romans d' Alexandre رواية غرامية كتبت فى القرن الثانى عشر، واستمدت منها تسمية الأسلوب الإسكندرى فى الشعر البطولى الفرنسى (والإنكليزى بعد ذلك). وهى تحكى أفعال الإسكندر الأكبر المقدونى. (المترجم)

(ب) النسخة اللاتينية التى صاغها الكاهن ليو (من ثانولى) فى القرن العاشر من قصيدة طويلة تحكى مغامرات الإسكندر الأكبر، والتى ترجع فى أصولها الأولى إلى القرن الثالث. (المترجم).

(ت) Strabo (٥٨ ق.م - ٢٤ م) جغرافى يونانى قام برحلات واسعة فى أنحاء العالم الرومانى وكتب يوصف ما شاهد فى ١٧ رحلة ضمها كتابه Geographia. (المترجم)

(ث) Pliny (٢٣-٧٩ م) . مؤرخ لاتينى كان كتابه التاريخ الطبيعى Historia Naturalis يعد فى العصور الوسطى أحد أهم المراجع العلمية، توجه إلى مدينة بومبى لدراسة ظاهرة البراكين، وهناك توفى عندما دمر البركان المدينة. (المترجم)

دانتى طابعاً أسطورياً على الأندوس فإنه يدخل هذا العالم البعيد فى قصيدته ليتفحص السؤال المركزى عن "عدالة" إله استطاع أن يخلق جغرافيا استتبعته بعض المناطق من خطته اللاهوتية الخلاصية.

فى الفصل الختامى أتفحص الطريقة التى يجعل بها دانتى الجغرافيا الثقافية والفيزيائية مجازية، والكيفية التى تقوض بها الرؤيا الإعجازية كل الرحلات والعجائب التى وصفها رحالة العصور الوسطى. هنا أستكشف استخدام دانتى المحدود لمادة الشرق، أى كيف ولأى غرض يقوم أناس الشرق وسلعه وأرضه فى الكوميديا. لكى يقدم دانتى شرق العجائب بأسلوبه الشعرى المعتاد، يحول حكايات الروائع المادية إلى "رؤى" وإعجاز. إن موضوعات الطبيعة والعجائب والمعجزات كانت تناقش مطولاً بشكل خاص كمشكلات فكرية فى زمن دانتى، ذلك أن إحياء الاهتمام بالنزعة الموسوعية كان قد فرض انتباهاً جديداً بالكتابات التى تتناول العجائب - كتابات بلىنى وسولينوس^(ج)، على سبيل المثال - والمادة التى كان يتم تجميعها بصورة لا تتغير فى مقالات عن الطبيعة. ولقد ظهرت أسئلة عن أصول العجائب - هل كانت طبيعية أو كانت تفوق الطبيعة؟ هل كانت الطبيعة تتصرف مستقلة عن الرب؟ هل كان خالق العجائب هو الطبيعة أم الرب؟ يميز دانتى - مستمداً أفكاره من تلقينات الكتاب المقدس وأوغسطين والدومينكان والفرنسيسكان - بين العجائب المرئية وما هو إعجازى حقاً، وبالنسبة إليه كانت الأولى أشياء أو ظواهر يمكن ملاحظتها، فى حين أن الأخيرة - أى الخلق ذاته - هى علامة حضور الرب فى العالم.

(ج) Solinus مؤرخ ونحوى لاتينى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، ألف كتاباً احتوى على وصف للعالم القديم وملاحظات عن التاريخ الطبيعى، أسسه على كتابات بلىنى وغيره من المؤرخين الذين سبقوه. (المترجم)

سأسف كثيراً إذا لم أذكر كل الأشخاص الذين بدونهم ما كان لهذا العمل أن يخرج إلى حيز الوجود. الأول بين هؤلاء هو أمى الروسية - اليهودية التى تزوجت فى لندن فى منتصف الحرب العالمية الثانية أبى الهندى المسلم. لقد ألهمت هذه الرابطة بين الشرق والغرب، إلهاماً طبيعياً، اهتمامى بهذا الموضوع. كذلك فإن أشخاصاً كثيرين آخرين جعلوا هذا العمل ممكناً، حتى أننى قد أنسى بعضهم هنا عن غير قصد. ولقد بدأ هذا العمل بسبب معهد ستانفورد فى عام ١٩٨٨ وتبنى الوقفية القومية للإنسانيات National Endowment of Humanities. لقد شجعنى هيو دوسون - فى جامعة سان فرانسيسكو- على التقدم بطلبى إلى المعهد ، لهذا أتوجه بعرفانى له بغير حدود. وبقيادة راشيل ياكوف وبيتر هوكنز وكيفين براونلى وبيلى ستيفانى وجيفرى شتاب أجج المعهد اهتمامى بدانتى، الذى لم أكن قد درسته لمدة عشرين عاماً. وأثار جون فريكيرو- وهو محاضر فى المعهد - ببلاغة قوة شعر دانتى. ونتيجة لأحاديثه جلست فى حلقة الدراسية عن دانتى فى ستانفورد، ودفعنى هذا أكثر نحو قوة خيال دانتى. كما أن قراءة كتاب جيوزيبي مازوتا دانتى، شاعر الصحراء - Giuseppe Mazzotta, Dante the Poet of the Desert وهو واحد من الكتب العظيمة عن دانتى فى القرن العشرين - جعلتنى أسعى إلى مازوتا فى جامعة ييل، مرة أخرى تحت رعاية الوقفية القومية للإنسانيات. وقد شجعنى مازوتا على نشر المقال الأول الذى كتبته عن دانتى، والذى أدى إلى مزيد من المقالات وإلى تركيز على موضوع هذه الدراسة. وأتاحت لى منحة دراسية من "الزمالة البحثية للوقفية القومية للإنسانيات" - بناءً على توصيات قوية من مازوتا وفريكيرو وبراونلى - أن أمضى سنة فى الكتابة والدراسة فى روما. وبوضوح فإن رؤيا دانتى، وإلهام كل أولئك الذين فتنهم شعره، قد أشعلت المشاعر الأوروبية لدى كل من ذكرتهم، ونقلوا حماسهم إلى. وأحتاج إلى ذكر آخرين أيضاً، ليس أقلهم أولئك الذين ساعدونى فى إيطاليا؛ أمناء المكتبات فى المكتبة الإيطالية فى لاسابيينزا، والأمناء فى مكتبة الفاتيكان، وفيوريلا سيمونى فى لاسابيينزا، وغرازا

سوتيس فى مركز ليولا بجامعة روما . فى مركز ليولا بجامعة روما ساعدنى الأب جورج كوينى مدير مرصد الفاتيكان فى فهم فلك دانتي . وتحدى بول مورفى - وهو باحث فى حركة النهضة بجامعة سان فرانسيسكو - فرضياتى عن العصور الوسطى، وأعطانى الأب ريتشارد كوستيفان دروساً فى البابوية الوسيطة صباح كل يوم على مائدة الإفطار. بدون هؤلاء الأشخاص لكانت حياتى أفقر، ليس هذا فحسب، بل لكان أفقر أيضاً فهمى لدانتي. قرأ جيفرى بيرتون راسل مخطوطتى فى مراحلها الأولى وزودنى بالنصيحة الضرورية بشأن تنقيحاتها، كما فعل مازوتا، الذى يعرف كيف يحدث الناس بطريقة خفية، أين يتعين إدخال التغييرات، والذى يعرف أيضاً - مع ذلك - كيف يشجع الناس على أن يؤمنوا بأفكارهم. قرأ جورج دين أبيل، مدير معهد الإنسانيات فى جامعة كاليفورنيا فى مدينة ديفيز، المخطوطة وقدم لى ما احتجت إليه من تلميحات. وقوم سكوت ويستريم بسخاء فهمى للجغرافيا الوسيطة ورسم الخرائط الوسيطة. وأى أخطاء تبقى أخطائى وحدى. وزودتنى جانيت لوفارى سمارت وفكتوريا كيركهام وقارئ مجهول بنصائح جوهرية بشأن إعادة تشكيل وتدقيق حججى. ساندرى وليامز - محررة الكتاب - برهنت مرة أخرى على مواهبها البارزة. وأخيراً فإن هاييت موراف، زميلتى والمديرة فى جامعة كاليفورنيا بمدينة ديفيز، وزوجى بوب شيلدغين، قدموا تشجيعاً ونصائحاً مستمرين. وفوق هذا كله فإن "الوقفة القومية للإنسانيات" جعلت هذا العمل ممكناً.

ملاحظة عن نصوص دانتي

الاقتباسات من نصوص دانتي وترجمتها مأخوذة من الطبعات التالية:

- Il Convivio. Ed. G. Busnelli and G. Vandelli. 2 vols. Florence: Felice le Monier, 1954.
- Dante's Il Convivio (The Banquet). Trans. Richard L. Lansing. New York. Garland, 1990.
- The Divine Comedy. Trans. And commentary Charles S. Singleton. Bollingen Series 80. Princeton: Princeton University Press, 1970-76.
- Monarchia. Ed. And Trans. Prue Shaw. Cambridge: Cambridge University Press, 1995.
- Quaestio de Aqua et Terra. Ed. Francesco Mazzoni. In Opere minori. Vol. 2. Milan: Ricciardi, 1979.
- Quaestio de Aqua et Terra. Ed. Giorgio Padoan. Florence : Felice Le Monnier, 1968.
- La Vita Nuova. Ed. Domenico de Robertis. Milan : Ricciardi, 1980.
- De Vulgari Eloquentia. Ed. and trans. Steven Botterill. Cambridge : Cambridge University Press, 1996.

مقدمة

جغرافيا مقدسة

خلال بحر الوجود العظيم

الفردوس الأنشودة الأولى - البيت ١١٣

ليست مملكتي من هذا العالم

إنجيل يوحنا ١٨: ٣٦

"مملكتي"، أجاب، "ليست من هذا العالم"

- دانتى - الملكية

وصفت بالنبوة والرؤيا والحملة الصليبية والموسوعة واللاهوت، ومن الواضح أن الكوميديا الإلهية هي هذا كله مجتمعا، وإنما بصورة تنطوي على التحدى. إن الرؤيا الطوباوية - كونها تراتبية على نحو قهرى - تفرض نظاماً أخلاقياً على العالم، ولكن العالم يقلب الترتيبات الدنيوية التي غرزتها الكنيسة والدولة، رأساً على عقب. فدانتى يضع بابوات وملوكا فى الجحيم ويضع أولئك الذين اعتبرهم ملتزمين حقاً بالحب والعدالة والمعرفة والفقر فى الفردوس. وتتعهد الكوميديا - باعتبارها "تخييل" (فانتازيا)

الشاعر - بتفحص الفضاء الإنساني برمته، وعلى الرغم من أن فضاء القصيدة يعلن عالم الفعل الإنساني عالماً بلا فكر، فوضوئى، شهوانى، ومخادع، فإنها أيضاً تصور البشر النموذجيين، وتشير إلى النظام العالمى والتناسق والجمال الذى يلقى بظله على عناصر العالم المتعدية.

لقد سار دانتى وراء حدسه الشعرى الخاص بشأن الكيفية التى كان يمكن للجغرافيا فى زمانه أن تُجعل، بحيث تتناسب داخل هذه الرؤيا العالمية. لقد لعن أولئك الذين كان البحث عن معرفة أشياء هذا العالم بالنسبة إليهم عملاً عقلانياً وتجريبياً بالمعنى المحدد (برونيتو لاتينى^(ج) ومايكل سكوت^(د)، على سبيل المثال) وعفا عن أولئك الذين - كما كتب بوناڤنتورا^(د) - كانت المعرفة الحقة عندهم هى فى الرب^(١). وتبرهن دراسة لجغرافيا دانتى ودور الشرق داخلها، بوضوح، على أن أوروبا هى فضاء قلقه وكرهه السياسى، بينما يقوم "الشرق" بوظيفة مجاز لـ "العجائب" التى تكشف عن عظمة الخالق وجلاله عن القياس. ويبدو التزام الشاعر المقعم بالعاطفة والتنبؤى برفاه هذا العالم، وبخاصة الجغرافيا التى يعرفها معرفة جيدة - فلورنسا وإيطاليا وأوروبا - فى كافة أنحاء القصيدة. ويتعزز هذا الالتزام فى الفربوس بطرق كثيرة فى أقسى أنشوداته، بذمه المتكرر ضد الفساد الأوروبى ينطق به أكثر الشخصيات تبجيلاً -

(ح) Brunetto Latini سياسى ومعلم من فلورنسا (المترجم).

(خ) Michael Scot (١١٧٥-١٢٢٤) أحد المدرسين الوسيطين، أسكتلندى المولد تعلم فى جامعات أوكسفورد وباريس وتولى. ترجم أعمال أرسطو وابن رشد إلى اللاتينية، واشتهر بالبراعة فى أعمال السحر. (المترجم).

(د) St. Bonaventuri (١٢٢١-١٢٧٤) لاهوتى ومتصوف وفيلسوف إيطالى، كان أكثر تركيزاً على الإيمان منه على العقل، على العكس من توما الأكوينى، أهم مؤلفاته هو طريق الذهن إلى الرب (Itenerarium mentis ad deum). (المترجم)

جوستنيان والقديس توما^(ذ) والقديس بونافنتورا والنسر والقديس بطرس داميان^(د) وكاشياغويدا^(ذ) وبياتريس^(س) والقديس بطرس.

إن الكوميديا- التي تبدأ في "الغابة المظلمة" [الجحيم ١:٢] وتنتهي حيث "أخفقت قوة التخيل السابق" [الفردوس ١٤٢:٣٣] هي الفضاء الرؤيوي الذي سكنه دانتي حينما انقطع الاتصال بينه وبين فلورنسا ، "الحظيرة الجميلة" [الفردوس ٥:٢٥]. ومثله مثل حزقيال ويوحنا الإلهي، يحول دانتي - كمنفى ومنبوذ - أبعاده الجغرافي إلى فضاء من النبوة، ذلك أنه يحول المنفى السياسي إلى الفرصة المواتية لإمطة اللثام عن رؤياه وفي "فضاء النص" أي الحظيرة الشعرية، بين الغابة المظلمة والرؤيا الصامتة، وكما في كل الأعمال الرؤيوية، يجعل دانتي من العالم الذي يخبره البؤرة التنبؤية للقصيدة. حقاً - كما هو الحال مع أنبياء الإنجيل - وهم الكتاب الذين يصطف دانتي معهم - لا يغيب الفضاء التجريبي أبداً. إنه الشغل الشاغل الرئيس لغضب الشاعر المفعم بالعاطفة ولالتزامه. إنه يضيف طابعاً عقلانياً وطوباوياً على الفضاء المحاكى للسلطة الرومانية، وهي تتحول إلى صورة لاهوت الأمل السياسي العائد إلى الحياة

(ذ) توما الاكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) القديس واللاهوتي والفيلسوف الكاثوليكي الأشهر، ولد في إيطاليا وتعلم فيها ثم في باريس حيث تعلم وعلم ودرس. أعظم مؤلفاته هو Summa Theologica وفيه يلخص كل ما هو معروف عن الرب وعن الإنسان من مصدرى العقل والإيمان. لا تزال "التوماوية" نسبة إليه تعد حجر الأساس لمذاهب الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

(ر) Peter Damian من أباء الكنيسة ، انخرط في دير للبندكتانيين في منطقة جبلية (ماونت كاتريا)، وأصبح رئيساً لكنيسة هذا الدير في عام ١٠٤١ . (المترجم).

(ز) Caciaguida الجد الأكبر لدانتي (المترجم).

(س) Beatrice حبيبة دانتي التي ألهمته الكوميديا الإلهية وعدداً آخر من قصائده الخالدة وبالأخص "الحياة الجديدة" Vita Nuova. عرفها وهي في التاسعة من عمرها وخطفها منه الزواج بغيره، ثم خطفها الموت وهي في ريعان شبابها. (المترجم).

لديه، ذلك المؤسس على كتاب أوريوس^(ش) (المجلد السابع ص ٤١٨) ^(٢) Historiarum Adversus paganos Libri والمقصود على القارة الأوروبية. هذا الفضاء ذاته، الذى تحده المناطق الحدودية للهند و الحبشة، يصبح الوسيلة للتساؤل عن المزايم العالمية لرؤياه السياسية الطوباوية كما طورها فى كتابه الملكية Monarchia ، ذلك لأن الأيدى التى تتجاوز الفضاء الإمبراطورى الرومانى السابق لا تستطيع أن تسورها رؤياه العالمية المفردة، وهى رؤيا يحيط بها من جميع الجهات " ذلك الحجر الذى يتحرك الكل صوبه، سواء ما يخلقه وما تصنعه الطبيعة" [الفردوس، ٨٦:٣-٨٧]. إنه يتذكر فلورنسا كفضاء ألفه، فضاء حنين إلى استقرار سابق، خلقه بخياله^(٣) . هنا هو يستحضر ماضى فلورنسا كأماكن وفضاءات يتذكرها، كتاريخ يترك محله للشعر، وكزمان للمتخيل باعتباره المادة الأساسية للذاكرة الإنسانية^(٤) .

لقد حرم دانتي من موطنه سوى كذكريات وكخطوط، لهذا فإنه كشاعر منفى يصمم منظراً طبيعياً متخيلاً حيث فضاء رغبته، وخطوطه الطوباوية ومكانيته الرؤيوية تجد تعبيرها. إن دانتي يحول خسارته لفضاء ألفه إلى مجاز للخسارة الأولى، لطرد الزوجين الأولين من الجنة. إنه يعبر عن رحلة حجّه بعبارات استعادة الفردوس. إنه يحول رحلة مجازية من بابل أو من منفى مصرى، أى المنفى التاريخى للعبرانيين، إلى الرحلة الاستعارية التى يتوجب على كل الكائنات البشرية أن يقوموا بها إلى قدس رمزية: "هنا يعيشون ويفرحون فى الثروة التى كسبوها بالدموع فى المنفى فى بابل، حيث كان الذهب محتقراً" [الفردوس، ١٢٣:٢٣ - ١٢٥]، أو "من مصر إلى القدس حتى

(ش) Paulus Orosius قسيس ومؤرخ إسباني من القرن الخامس عشر، وكتابه المذكور هو تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عام ٤١٧ ميلادى، وكتب بهدف أن يكون مرافقاً لكتاب القديس أوغسطين مدينة الرب. وقد استمد دانتي منه الكثير من معلوماته فى الكوميديا بشأن الشخصيات والأحداث. ويجدر بالذكر أن الترجمة العربية القديمة لهذا الكتاب صدرت حديثاً بتحقيق وتدقيق للدكتور عبد الرحمن بوى. (الترجم)

يمكنه أن يرى" [الفردوس، ٥٥:٢٥-٥٦]، أو من المنفى المؤقت إلى المواطنة "هنا ستكون لفترة قصيرة من قاطنى الغابة، وستكون معى إلى الأبد من مواطنى روما، حيث المسيح روماني" [الفردوس، ١٠٠:٣٢-١٠٢] ^(٥)، وعلى الرغم من أن هذه الاستعارات تشكل معاً تخيلات توراتية وسياسات رومانية، فإن الإشارات إليها تقوم أيضاً بوظيفة تقويض مزاعم دانتي عن المواطنة الرومانية باعتبارها المكانة السياسية المثلى. وهو فى الحقيقة يحول مدينة الرب ^(٦) لاوغسطين والإمبراطورية التى يصبح كل من يأتى إليها مواطناً رومانياً مجازياً.

على الرغم من هذه الجغرافيا والجيوستياسة المجازيتين فإن انتباه دانتي إلى "حظيرته الجمالية" يبين أنه لم يتخل أبداً عن التاريخ والجغرافيا التجريبتين فى قصيدته. فهو قد يشير بازدراء - على نحو أفلاطونى جديد وماكروبيوسى ^(٧) (ص) - إلى العالم الأدنى باعتباره "أرضية البيدر الصغير الذى يجعلنا قساة إلى هذا الحد" [الفردوس ١٥١:٢٢] - وهى استعارة توراتية لوصف العنف المستديم للعالم - ولكنه لا يتخل أبداً عن أملة بأن بالإمكان إصلاحه.

كان على دانتي - إذ يصف "الاختلاف" بأنه استعارة ^(٨) - أن يجد طريقاً (اللغة) لـ "يصور" الفردوس فى صورة شعرية. لهذا فإنه فى رحلة مجازية أوغسطينية ^(٩) يستبدل دعايات الصليبيين وحربهم بفضاء الشعر الذى يصبح حجه الباطنى، رحلته الحقيقية إلى الفضاء السماوى، "هناك حيث كل خير ينتهى ويبدأ ذاته" [الفردوس، ٨:٨٧] بالفعل المنعكس الذى يؤكد ديمومة السماء. وحيث "الاستعارة هى الأداة الأدبية السائدة لربط الشعر باللاهوت، يحول دانتي مادة أعاجيب الشرق ويُضفى طابع

(ص) نسبة إلى ماكروبيوس Macrobius (ولد فى فلورنسا نحو عام ٤٢٠م)، كاتب وفيلسوف لاتينى، أهم مؤلفاته Saturnalia عنى بشكل خاص فيه بتقويم أشعار فيرجيل. وكانت له شعبية كبيرة فى العصور الوسطى، وأثر كثيراً فى الشاعر الإنكليزى تشوسر. عرف عنه ازدرأؤه الشديد للعالم. (المترجم).

الاستعارة على الجغرافية - محتدياً حذو بونا فتتورا أشياء العالم - الأنهار، البحار، النجوم، الحجار، الأشجار، الورود، وما إلى ذلك - تصبح علامات عمل الرب الخلقى. وهو لكى يظهر الفردوس يدفع الشعر إلى حدوده المطلقة، "لتصف الفردوس يتوجب على القصيدة المقدسة أن تحقق قفزة، حتى كمن يجد طريقة قطع" [الفردوس، ٦١:٢٣ - ٦٣].

إن الفضاء المادى لعالم دانتي الآخر، وهو ليس موضوع هذه المناقشة، هو موقع مناظرات زمانه السياسية والجمالية والفلسفية والأيدولوجية. وعلى الرغم من أنه كان بإمكانه أن يتجه إلى فيرجيل طلباً لصيغة للجحيم، فى نصوص توراتية مثل حزقيال وفى رؤيا يوحنا يجد تلميحات "المطهر والفردوس"، ويفرض جحيم دانتي نظاماً أرسطياً صارم التنظيم على العواقب الفوضوية للإدارة البشرية المتعدية، مبينا أعمال العدالة الإلهية التى لا يمكن تجنبها. إن غابات الجحيم المظلمة وبركه الطينية ورياحه العاتية وصحاريه الحارقة ونيرانه المتقدة، ونفاياته الثلجية- التى تحاكى وحشية الطبيعة - إنما هى تذكيرات بأن قسوة الطبيعة هى "الأداتية الإلهية لمعاقبة اللاعقلانية البشرية، أما الجحيم كفضاء مجازى فإنه يكون حيث النعمة والضوء والحب ليست فى أى مكان". إن هذا الترتيل يحتذى نمطاً درامياً متماسكاً فى فضاء جغرافيا قاسية، تشبيه كناية عن الخطيئة والعدالة المطلقة وغياب النور الإلهي.

ويأخذنا المطهر إلى بيئة نسكية للتأمل والاسترخاء المغرى والصلاة، بينما تقود موسيقاه الكاتدرائية وفنه وشعره المسافرين عبر صعوده الوعر بعيداً عن الخطيئة، مع الهاءات ممكنة كثيرة توقفهم على طريقهم، وإن كانوا يمضون صاعدين أبداً نحو السماء. وإن يرفض دانتي المعتقد الشائع بأن جنة عدن هى فى الهند، فإنه يسوى المسألة التى دارت حولها مداولات حامية عن القارة الرابعة، أو المنطقة المعتدلة الموازية، بأن يضع المطهر هناك وراء قادش على الجانب المقابل للقدس، بينما روما ، كمركز للعالم، فى منتصف الطريق بالضبط بين القدس وقادش. وتكشف ذروة المطهر

حديقة يتحدى جمالها أى Locus amoenus وصفها الشعراء القدامى. وعلى الرغم من أن عالم المطهر منظم، وعلى غرار الجحيم تحكمه قوانين وعدالة، مع ذلك فإن الأنشودة تعرقل فجأة أى فكرة عن مكان التنبؤ. فهذا هو كاتو (ض) - منتحر وثنى - يحيى الشعراء ويقدم أول تحد لإرشاد فيرجيل: يقول ستاتيوس (ط) - الذى لابد أن يكون قد عاد إلى اليمبوس (ظ) - إن قصيدته قادتته إلى المسيحية؛ وفى وضع عكسى لمأساة آدم وحواء الأصلية فى جنة عدن، تحاصر بياتريس - وهى امرأة - دانتى - وهو رجل - عن انعدام إيمانه (كما حاضرت ديدو أيناكس (ع)؛ وفى اللحظة التى نطن فيها أننا نترك "الخطيئة" وراءنا، حينما يبدو دانتى قريباً من التغلب على أزمته الشخصية، فإن الكنيسة والدولة المعاصرتين المتعديتين وراء حدودهما تعيدان عرض خطيئة حواء الأصلية؛ حيث البغى تطفر مرحاً مع العملاق (الفردوس، ٣٢) وتقطع فضاء البهجة العذنية. تكرر الدراما التى تؤدى فى جنة دانتى العذنية الجديدة الخيانة الأصلية، غير أن الممثلين الآن هم القادة الكنسيون والسياسيون فى زمانه، والأحداث الممثلة تتم فى أوروبا، وليس فى عدن "شرقية" متخيلة.

لكن إذا كان المطهر يلمح إلى الصدمة التى تنتظر المسافر إلى العالم الآخر، فإنه يتعين على دانتى - فى الفردوس - أن يمضى وراء كل المشاهد الفنية الإنسانية؛ لأن

(ض) Cato رجل دولة روماني (٩٥-٤٦ ق.م.) جمهورى متزمت من المدرسة القديمة برز فى الفلسفة الرواقية. عندما انتصر يوليوس قيصر على بومبى - الذى تحالف معه كاتو ضد قيصر - أثر كاتو الانتحار، فأصبح بالنسبة للرومان رمزاً للفضيلة الرواقية. (المترجم).

(ط) Statius (٤٥-٩٦م) شاعر لاتيني ولد فى نابولى تضمنت أعماله التى بقيت ملحمة على غرار فيرجيل، تتمتع باحترام عميق فى عصره وطوال حقبة العصور الوسطى. (المترجم).

(ظ) Limbo مواطن الأرواح التى تحرم من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المعمدين. (المترجم).

(ع) Dido ملك قرطاج، Aeneas أمير طراودى ابن آلهة الحب والجمال Venus. (المترجم).

"المضى إلى ما وراء الإنسانية قد لا يدع فى كلمات؛ لهذا يوضع هذا المثل يكفى لأى من كانت النعمة بالنسبة إليه هى التى تحفظ تلك التجربة" [الفريوس، ١: ٧٠-٧٢]. حين يفكر دانتي فى الكيفية التى تتشكل بها الذاكرة من مجموعات مكانية ووجودية (ontological) أكثر مما تتشكل من مجموعات زمنية، لا يمكنه إلا أن يخبرنا بالكيفية التى شعر بها أو كيف بدا أن الفضاء يظهر له، لكن فضاء هذه الرحلة يفلت من الوصف الدقيق. إن القصيدة باعتبارها تيوديا (Teodea)، كلاموت وشعر، تمثل أو ترى بالعين الثالثة لـ هيو من سان فكتور (غ) (١٠)، أو بعين بوناڤنتورا التى "ترى" الرب والأشياء التى توجد فيه من خلال التأمل (١١) .

ويفسفتها حجاً فإن قصيدته هى "العلاج المكانى" (١٢) للشاعر، هى حملة دانتي الصليبية، رؤياه، نبوته، وتحوله الشخصى. ولا تكف مخاطباته المستمرة للقارئ أبداً عن تذكيرنا بأننا نقرأ عملاً أدبياً، وأن أى رحلة جرت كانت بالتأكيد فى الماضى، وأن فضاء القصيدة قد حل محل أى تجربة يمكن أن يكون قد ألهمها. إن دانتي - على تقاليد أوغسطينية بوناڤنتورا، تقاليد فضاء الرحلة - الحج - يحول الجغرافيا والشرق والرحلات والحج والحمالات الصليبية إلى مجاز.

يذهب أنتونيو غرامشى إلى أن "الثقافة" هى وسيلة لصنع وتحديد وتعزيز "إمبراطورية" أو "هوية قومية"، سواء كانت اقتصادية أو سياسية (١٣) .

(غ) Ugo di san Vittore (١٠٩٧-١١٤١) متصوف ولاهوتى من القرن الثانى عشر من بلاد الفلمنك، دخل الدير فى باريس، وكان من أشهر تلاميذه بيتر لومبارد Lombard، كان الهدف الرئيسى لكتاباتة إلحاق الهزيمة بالمذهب العقلانى. (المترجم).

وتحت مجهر هذا النوع من النقد الثقافي، عرضت نصوص "الشرائع الغريبة" مؤخراً باعتبارها مصدراً واحداً لهيمنة خفية تدعم أنظمة اقتصادية وسياسية، وخاصة تلك المزايم الثقافية التي تهزأ بشعور حضارة ما بذاتها^(١٤). في محاولة من جانب باحثين معاصرين لفهم الوعي "الكولونيالي" والدور الذي لعبته الثقافة في بناء البلاد الشرقية التي تم غزوها وسكنها، درسوا "الشرق" الذي أكسب طابعاً غريباً في أداب وثقافة الحقب الكولونيالية وبعد الكولونيالية^(١٥). وفي بحثهم العادل عن كشف الإنشاء التخيلي لـ "فكرة" الحضارة الغريبة التي افترضها مسبقاً كتاب بارزون أمثال جاكوب بوركهاردت Burckhardt وإريك أورباخ Auerbach وليو سبتزر Spitzer وأرنست كورتيسوس Cortius، حاول منظرون ثقافيون معاصرون - مزودون بمعارف ما بعد عصر الأنوار - أن يرسموا خطوط تطورات ثقافية معينة في العالم الغربي أفضت إلى مغامرات إمبريالية.

إن الخلق الثقافي لـ "الآخر"^(١٦)، والإيمان بـ "أجناس متوحشة"، والبحث عن الأشياء الثمينة والبلدان الجديدة، والافتتان بالمناظر العجيبة على حواف الأرض^(١٧)، قد ساعدت على حمل عبء نزعة التوسيع الأوروبية، واحتلت هذه الظواهر شواغل منظري أواخر القرن العشرين. وتظهر مثل هذه المواضيع في مصادر وسيطية كثيرة، تتراوح من الموسوعات (التي كتبها إيزيدور Isidore سمن أشبيلية [نحو ٦٢٢-٦٣٣]^(١٨)) وفينست بوفيه Vincent of Beauvais [ولد نحو ١١٨٤- مات ١٢٦٤]^(١٩)، على سبيل المثال، ممن قامت أوصافهم للعجائب على تلك التي قدمها بليني^(٢٠) أو سولينوس أو مصادر ذات صلة^(٢١). وأدب الرحلات (الذي كتبه ماركو بولو^(٢٢) على سبيل المثال) والحملات الصليبية والحج والمسردات التاريخية ذات العلاقة، كتلك التي كتبها فوشيه تشارتر Foucher of Chartre^(٢٣). جاك فيتري (Jacques of Vitry)^(٢٤) إن هذه النظرات المتخيلة للجغرافيا فيما وراء تخوم العالم اللاتيني المعروفة نادراً ما توضع في سياق مضاد لتقليد فكري متماسك أنكر وجود الأجناس المتوحشة وتفحص العجائب من

منظور تجريبى أو لاهوتى. وعلى سبيل المثال - كما ستبين هذه الدراسة - فإنه على الرغم من أن هذه المواضيع تظهر فى أعمال أوغسطين وأوروسىوس وألبرت الأكبر^(٢٤) (ف) وبوناڤنتورا، أن أيا منها لا يكسب "طابعاً غرائبياً" ولا "طابعاً شرقياً" بالمعنى المعاصر.

فى أعمال هؤلاء الكتاب المتأخرين وكذلك فى أعمال دانتي - على النقيض من أعمال الرومان الأقدمين^(٢٦)، لا نجد مفهوماً عن "الغرب" يتميز أو يتفوق بشكل ما على البلاد الأخرى. ويرجع هذا فى جانب منه إلى أنه حتى القرن السادس عشر، كانت أوروبا - وعلى وجه الخصوص أوروبا الجنوبية - جزءاً من نظام رافد يتمركز فى البحر الأبيض المتوسط مشتملاً على أقاليم مختلفة - المدن - الدول الإيطالية، اليونان، الشرق الأوسط، شمال إفريقيا، وفرنسا، على سبيل المثال - وفيها أنواع مختلفة من الناس، بينهم العرب والنورمنديون والإفرنج، كذلك المسيحيون واليهود والمسلمون^(٢٧). وأثناء الحملات الصليبية، التى كانت بوضوح حدثاً أساسياً فى تاريخ الوعى الأوروبى، بدأ الغرب اللاتينى يبدى وعياً ذاتياً عدوانياً^(٢٨)، وتصور على نحو مفهومي فكرة عن ذاته ككيان سياسى مسيحي موحد. مع ذلك فإن وجهات النظر الوسيطية فى "الشرق"، والإسلام بوجه خاص، لا تعبر عن تفوق أوروبى بالطريقة التى أصبحت شائعة من عصر النهضة إلى الحقب الحديثة. حتى على الرغم من أن المسيحيين كانوا يعتقدون بأنهم يملكون "العقيدة الحقة الوحيدة"^(٢٩). والحقيقة أن مواجهة الإسلام بطريقة مباشرة أظهرت للأوروبيين بالتحديد كيف كانت ثقافتهم قد أفقرت على النقيض من

(ف) Albert Magnus (١١٩٣-١٢٨٠) أحد أهم أساتذة توما الأكوينى، وقد أطلق عليه وصف "الأستاذ العالمى" Universal Doctor تعبيراً عن سعة اطلاعه. من مؤلفاته شروح الكتاب المقدس وشروح أرسطو. كان أول من حاول التوفيق بين فلسفة أرسطو والمسيحية. وهاجم شرح ابن رشد لأرسطو. (المترجم).

عدوهم المختار^(٣٠) . مع ذلك، فإن تلميحات قوية إلى توجه نحو "مركزية أوروبية" كانت تظهر بوضوح بالفعل، خاصة في أدب الرحلات والحملات الصليبية والحج.

يشير "الشرق"، وهو اصطلاح غامض على أحسن الفروض، بصورة عامة إلى كل البلاد إلى الشرق وإلى الجنوب من مركز تخيل ما قائم على أساس ميراث الإمبراطورية الرومانية قبل أن يقسمها كونستانتين إلى شرق وغرب في القرن الرابع. ويميز تصور إدوارد سعيد المفهومى شرق البحر الأبيض المتوسط - بلاد الشعب العربى - باعتبار أنه "شرق" مزدرى، مقابل شرق أقصى - الهند والصين - وهذا أفق مبجل^(٣١) ويطلق شيبيرى هينتس (Hentsch) الذى يرفض اصطلاحى "الشرق الأوسط" و"الشرق الأدنى" باعتبارهما "متمركزين عرقياً" وصف شرق البحر المتوسط على الشرق الأوسط. ويذهب - على نحو مقنع - إلى أن هذه المنطقة قد جعلت "جبهة أسطورية" بفعل التفجر الذى خلقه صعود الإسلام اعتباراً من القرن الثامن. وأصبح شرق المتوسط والشعوب التى تعيش هناك موضوع قلق للشعوب فى البلاد الغربية التى كانت تشكل فى السابق الإمبراطورية الرومانية^(٣٢) .

وفى الحقيقة، فإن فحصاً دقيقاً للتمثيل الأدبى للشرق الأوسط فى القرنين التاسع عشر والعشرين يظهر أن "الاستشراق" "متغير التكوين بصورة عميقة"^(٣٣) . وستبين هذه الدراسة لـ كوميديا دانتي بالمثل تغير معالجته لـ "الشرق".

إن الاهتمام المحدد بـ "الاستشراق" ليس برمته جديداً على دراسات حقبة العصور الوسطى. ذلك أنه لفترة تزيد كثيراً عن قرن والباحثون يظهرون اهتماماً بالمساهمة التى قدمتها الثقافة الإسلامية للتطور الأوروبى^(٣٤) . لقد استكشف الباحثون الافتتان الغربى بالعجائب الشرقية والازدراء والانجذاب المزامن لبلاد وشعوب الشرق، وكذلك الدور الذى نقلته هذه المشاريع المتخيلة إلى التراث الأدبى الغربى^(٣٥) . وقد طبقت مقاربات مماثلة على كوميديا دانتي.

عند دانتي "الشرق" (Orient) (ق) هو الشرق (East)، الذي منه مطلع الشمس، وهو يشمل على وجه التحديد الهند وشرق البحر المتوسط وفارس والحبشة، وعلى وجه العموم بقية آسيا. ولقد عالج كثيرون آخرون^(٣٦) تأثير الثقافة الإسلامية على الكوميديا، لكن كيف يطوع دانتي "مادة الشرق" الأدبية ويحولها فهذا أمر يشكل بعداً آخر من غرضه الشعري والسياسي واللاهوتي^(٣٧). يصر إدوارد سعيد - الذي يُفرد دانتي باعتباره يمثل نقطة الذروة في "الجسر بين العالم القديم والحداثة" - على أن "قواه كشاعر" قد كثفت "مقاربات الشرق" الازدرائية^(٣٨). وإذا أخذ سعيد المفهوم ذاته عن تقليد "أوروبي" (من أسخيلوس^(ك) إلى القرن التاسع عشر) يحاول أن يكشفه، فإنه يضع دانتي في نقطة المركز من ذلك التقليد^(٣٩).

في الحقيقة، يمثل دانتي "شروقاً" كثيرة، بينها شرق سياسي وشرق جغرافي، كذلك شرق متخيل. مع ذلك فلا واحد منها يثير قلقه أو خوفه. فإذا كانت "الشرقنة" تفصل الغرب عن الشرق في فعل "جغرافية متخيلة"، كما يؤكد سعيد^(٤٠)، سيصبح من الواضح أن دانتي لا "يُضفي طابع الغرابة" على شرق يرغب في استحواذه، إنما يريد في الآن ذاته أن يعاون في فعل "شرقنة" ثقافي. الأخرى أنه إذ يجلب موضوع الشرق في قصيدته إنما يقوم برسم الخط الفاصل بين الشرق والغرب ويكشف الغرب باعتباره موضع قلقه. وفي الحقيقة فإن تحليل معالجة دانتي لـ "الشرق" وهو بالتأكيد "جغرافيا متخيلة"، سيرينا أن الشرق ليس موضوع خوف وافتتان، إنما هو موضع

(ق) تأتي ضرورة التمييز بين East و Orient من أن الاصطلاح الأول يستخدم في الغرب بصفة عامة للإشارة إلى الشرق الأقصى، في حين أن الغربيين يستخدمون الاصطلاح الثاني عند الحديث عن الشرق الأوسط أو الأدنى. (المترجم).

(ك) Aeschylus (٥٢٥-٤٥٦ ق.م.) كاتب مسرحي بارز من كتاب المأسى اليونانية، أبرز أعماله أوريستا Oresta، بروميثيوس مقيداً Prometheus Bound، والفرس The Persians، وهي من بين سبع مسرحيات بقيت من مؤلفاته التي يقدرها المؤرخون بتسعين. (المترجم)

التضاد والجدال، محل منه يستطيع الشاعر أن يختبر فيه مواقف لاتينية غربية منتشرة، ليس هذا فحسب إنما أيضاً قناعاته الشخصية. وفي هذا الصدد يمثل "الشرق" في كوميديا دانتي نوعاً آخر من "الاختلاف" الذي يُدخله في قصيدته والذي يتحدى الوحدة التي يقيمها كمبدأ حاكم لها^(٤١).

لقد أفضى أمل دانتي السياسى به إلى إنشاء "جماعة متخيلة"^(٤٢)، أوروبا موحدة قائمة على أساس المثل الأعلى للسلام الرومانى Pax Romana. لكنه، إذا كان دانتي - فى الملكية - قد حاول أن يبعث من جديد النموذج القديم للإمبراطورية، وهو نظام سياسى "عالمى"، فإنه فى الكوميديا يدفن ذلك النموذج الميت ويستبدله بـ "فكرة أوروبا"^(٤٣). وتظهر "أوروبا المتحدة" هذه - التى يتخيلها دانتي - فى تعارض مع الحركة التوسعية للحملات الصليبية تحت لواء عالم مسيحي متحد، وبالمثل ضد البعثات التجارية والتبشيرية إلى الشرق.

كان دانتي قد اقترح فى الوليمة Convivio (١٣٠٩) حكومة عالمية، ذاهبا إلى أن الأرض برمتها، وكل ما هو معطى للجنس البشرى ليمتلك، ينبغى أن تكون ملكية؛ أى إمارة مفردة لها أمير واحد يملك كل الأشياء ولا يرغب فى أى شىء آخر، لهذا يحتفظ بالملوك راضين داخل حدود ممالكهم ويحفظ بينهم السلام الذى يتعين أن تعيش فيه المدن. وعن طريق السلام يمكن للجماعات أن تصل إلى أن تحب الواحدة منها الأخرى، وبهذا الحب يمكن لكل الأسر أن توفر ما تحتاج إليه، فإذا ما توفرت تجلب للإنسان السعادة، لأن هذه هى الغاية التى من أجلها وُلد [ص ١٥٥-١٥٦].

وقد عرض دانتي على نحو أوسع هذه القناعات الجغرافية والدينية المتداخلة فى كتابه الملكية (١٣١٢) الذى ذهب فيه إلى الدفاع عن الأصل والمصير الإلهيين للإمبراطورية الرومانية.

أى حالة البشرية التى لم ينتظرها ابن الرب أو اختار هو نفسه أن تكون، حينما كان عند النقطة التى عندها يصبح إنساناً من أجل خلاص البشر.... ولن تجد أنه كان ثمة سلام أبداً فى أنحاء العالم إلا تحت قيادة أوغسطس^(٤١) اللاأخلاقى عندما كانت توجد مملكة تامة [١-١٦-١-٢].

العالم فى الملكية هو كما كانت فكرته عن الإمبراطورية الرومانية ، لكن دانتي فى الكوميديا يدخل على وجه التحديد حدوداً شرقية وغربية لهذا التصور المبكر لجغرافية العالم. إن المثل الأعلى للإمبراطورية الرومانية، معبراً عنه كبرنامج سياسى حسى فى الرسائل ٥ و ٦ و ٧- التى رحبت بالإمبراطور المنتخب هنرى السابع إلى إيطاليا ليتوج (١٣١٠-١٣١٢)- ينظم قناعات دانتي السياسية. وكما كتب تشارلز تيل ديفيز Charles Till Davis، فإن نظرية دانتي فى التاريخ والسياسية تستند بصفة أولية على ذكرى ورغبة، على ذكرى عصر ذهبي مزعوم تحت قيادة أوغسطس، سلام عالمى اعتقد دانتي أنه وجد لمرة واحدة فقط فى التاريخ الإنسانى، ورغبة فى مخلص، من الواضح أنه أوغسطس جديد، يمكنه أن يستعيد هذا النظام الفريد والزائل إلى العالم الجديد^(٤٤) .

كان دانتي أول من دعا إلى فكرة "جماعة زمنية عالمية" يمكنها أن تطلب "تضافر جنس بشرى موحد بأكمله"^(٤٥) . وفى حجه دفاعاً عن حكومة عالمية ، مع فصل سلطات الكنيسة والإمبراطورية، وعلى أساس حكم القانون^(٤٦)، " هو قاعدة تحكم

(ل) Augustus (٦٣-١٤ ق.م.) أول أباطرة روما، وكان اسمه فى الأصل كايوس أوكتافىوس، تبناه عمه يوليوس قيصر وتولى الحكم بعده، وكان لا يزال فى التاسعة عشرة، وهو الذى ألحق الهزيمة بقوات عدوّه المتحالفين مارك أنطونى وكليوباترا فى معركة " أكتيوم " الشهيرة قرب سواحل اليونان (٣١ ق.م.) ، كسب بمضى السنين سلطات مطلقة وكان هدفه استعادة جمهورية روما وتطهير الحياة الاجتماعية والدينية. (المترجم).

الحياة" (الملكية ، ٢-٣ ، ١٤-٦) ؛ حيث روما هي مركزها، كان قد تعين على دانتى أن "يثبت لماذا يمكن لحكومة عالمية فوق كل الحكومات الأخرى في عصرها" [١-٢-٢] أن تضمن السلام، ولماذا يتعين أن تكون روما مركزها، ولماذا من الضروري فصل سلطات الدولة وسلطات الكنيسة. لقد دافع عن إقليمية في إطار حكومة عالمية، يمكن عن طريقها أن تحكم جميعاً بواسطة قانون واحد "في تلك الأمور المشتركة بين كل البشر وذات الصلة بهم جميعاً [١-١٤-٧]. إن من الواضح أن "الحكومة العالمية" التي يدعو إليها دانتى تعنى في الواقع أن تضم العالم بأسره. وهو على وجه التحديد يدرج الغارامانت^(٥) الذين يعيشون في "المنطقة الاستوائية"، الحثيين الذين يسكنون "المنطقة القطبية المتجمدة" [١-١٤-٦] - الشعوب التي باستطاعتها أن تواصل عاداتها المحلية بينما تعيش في ظل قانون عالمي. وقد كانت هذه الشعوب المهمة في أعمال بليني وفي أدب "العجائب"، وكذلك في أدب العصر الذهبي والفضي اللاتيني، توصف على الدوام بأنها "غريبة" و"متوحشة"^(٤٧)، غير أن دانتى يدخلها تحت حكم القانون "الروماني".

وعلى الرغم من أن كتابي **الوليمة** (٤-٥) و**الملكية** (١-١٦) يستذكran زمن السلام التاريخي حينما كان أوغسطس قيصر يحكم بفعل العناية الإلهية في وقت واحد مع ميلاد المسيح - فإن دانتى يتحول أيضاً إلى الحكاية الأسطورية عن أينياس وفيرجيل لكي يثبت لماذا يتوجب أن تكون روما مركز خطته الطوباوية وليستمد دعماً من تاريخ أسرة أينياس الممتزجة الأجناس ومن ثقافة روما الهجينة . وبعبارة أخرى فإن تفوق روما والرومان الفطري، بالإضافة إلى كونه مدعوماً إلهياً (الوليمة ٤-٤)، كان مكتسباً

(م) Garamantes قبائل من البدو الرحل في المنطقة الوسطى من فزان (ليبيا) يُعتقد أنهم أسلاف الطوارق. مشهورون بالبراعة والفروسية، وتاريخياً انخرطوا في جيش هانيبال. (المترجم).

بحق الفضيلة والوراثة، حسبما كان يرى^(٤٨) . كانت روما تقع فى مركز فريد يمكنها من أن تتولى قيادة العالم، لأن "نبالتها" التى تحتذى كانت ميراثها "الهجين". وجمع دانتي - محتدياً الخط العام الأساسى للجغرافيا الذى يطرحه أوروسيوس^(٤٩) وأوغسطين^(٥٠) . وجمع دانتي الجغرافية التاريخية اليهودية - المسيحية إلى الرومانية. يلمس فكرة التاريخ العالمى التى كان من شأن أوروسيوس أن يتخذها نقطة انطلاق له، والتى رتب أوغسطين - فى الفصول ١٦-١٨ من مدينة الرب تاريخ العالم ليتناسب معها داخل ثبت لتواريخ تاريخ بدأ فى جنة عدن. وبالمثل فإن جغرافية دانتي تحنو حذو جغرافية أوروسيوس - آسيا وأوروبا وإفريقيا. ويذهب دانتي إلى أنه من خلال أينياس ربطت روما القارات الثلاث جميعاً (آسيا وأوروبا وإفريقيا). ونقلت بهذا مركز العالم إلى إيطاليا عن طريق حق الوراثة والتمازج.

هذا مفهوم أصلى للنبالة، لأنه مبنى على أساس فضيلة القارات الثلاث ودمها "المتزج". وكتب دانتي عن أينياس "إلى المدى الذى يهم نبالة الوراثة، نجد أن كلاً من الأقاليم الثلاثة التى ينقسم العالم إليها قد جعلته نبيلاً، عن طريق أسلافه وعن طريق زوجاته على السواء [الملكية، ٢-٣-١٠]. وينقل دانتي عن الإنيادة^(٥١) مستذكراً أنه كان بين أسلاف أينياس ملوك آسيويون، وأنه من أوروبا جاء سلفه داردانوس الذى كان أقدم سلف إفريقى ل إلكترا، ابنة الملك الشهير أطلس (الملكية، ٢-٣-١١)^(٥١) . وتشهد زوجاته الثلاث على "عالميته"، ذلك أن أجزاء العالم الثلاثة - إفريقيا وآسيا وأوروبا - أمدته بزوجاته الثلاث: كروزا، زوجته الأولى، كانت آسيوية؛ ديدو، زوجته الثانية،

(ن) Aeneid قصيدة فيرجيل للمحمية التى لا تضاميتها فى شهرتها - ربما - سوى إلياذة هوميروس، وإن كان مؤلفها قد مات دون إتمامها فى عام ١٩ ق.م.. قويت بحماس منقطع النظير من الرومان بسبب طابعها "القومى" القوى، والقصيدة تتبع جنود الرومان ابتداء من أصولهم الطروادية البطولية إلى زمن الإمبراطور أوكتافىوس. (المترجم).

إفريقية، ولافينيا، الثالثة، أوروبية (الملكية ٢-٣ / ١٤-١٦). يذهب دانتي إلى أن أينياس، من خلال الميلاد ومن خلال الزواج، كان نتاجاً للقارات الثلاث المعروفة للعالم كلها، وقد جعله هذا مستعداً بمفرده لأن يقود الطريق إلى الإمبراطورية الرومانية^(٥٢). وهكذا فإنه في الوليمة (٤-٤) ناقلاً عن فيرجيل محدثاً الرب في الكتاب الأول من الإنيادا، فيكتب دانتي "لهؤلاء، الرومان، لا أضع حدوداً، سواء في المكان أو الزمان لهؤلاء إمبراطورية بلا نهاية [٤-٤/١١-١٢/١٢].

وكتب في الملكية:

وإذن دع أولئك الذين يقدمون أنفسهم على أنهم أبناء الكنيسة يتوقفون عن مهاجمة الإمبراطورية الرومانية، ويروا أن المسيح العريس أقرها بهذه الطريقة في بداية وفي نهاية حملته الدنيوية. وأنا الآن أعتبر أنه قد ثبت بالدليل الكافي أن الشعب الروماني قد أخذ إمبراطورية العالم بالحق [٢-١١-٧].

إن أهمية روما كمركز لأرض دانتي السياسية لهذا العالم تكمن وراء كلماته اللفظة عن قسطنطين، الذي نقل مقر حكم الرومان إلى القسطنطينية. إذ يجد دانتي (متذمراً) مكاناً لقسطنطين في الجنة لأنه جعل الإمبراطورية مسيحية (الفردوس ٢٠:٥٥ - ٦٠)، إلا أنه يشجب النقل إلى الشرق بأنه غير طبيعي (الملكية، ٢-١١-٨؛ الفردوس، ١:٦-٩) ويتهمة بأنه قوض الاستقرار السياسي للبحر الأبيض المتوسط تحت حكم روما^(٥٣). كما أنه أدى - في اعتقاده - إلى التخلي في الآن نفسه عن روما للبابا وللتدخل الكنسي في الشؤون الزمنية، والذي يقترح له دانتي في الكتاب الثالث من الملكية فصل السلطات الزمنية والكنسية. لقد كان كلا الكاتبين الرومانيين القديمين^(٥٤) والعهد الجديد (الروم والأفعال) قد رووا حكايات التحرك غرباً إلى روما. هكذا، حذو مصادر أولية تاريخية ومقدسة، يضع دانتي روما - وليس القدس - في مركز العالم، معلناً بهذا التقليد التوراتي الذي أقامه حزقيال وأكدّه القديس جيروم^(٥٥).

ويؤكد تركيز دانتي على أوروبا أنشوداته المحددة جغرافياً. فلورنسا هي شاعله في الجحيم، الأنشودة السادسة، بينما تتناول الأنشودة السادسة في المطهر إيطاليا. وفي الأنشودة السادسة في الفردوس يعود دانتي إلى الإمبراطورية ليبرهن على تدبير الرب في التاريخ وعلى غرض العناية الإلهية من سقوط طروادة الذي أدى إلى التحرك غرباً وتأسيس روما. يُدخل جستينيان (٥٢٧-٥٦٥) إمبراطور الشرق الذي كان قد وضع قوانين الإمبراطورية، موضوع أوروبا والإمبراطورية: "لمئة ومئة من الأعوام وأكثر أمام طائر الرب"^(٥٤) في حدود أوروبا القصوى [الفردوس، ٤: ٦-٥]، وهكذا يرتبط كونستانتين بهذه الحركة غير الطبيعية شرقاً. ويتكلم كافة المعلقين على هذه الأنشودة عنها باعتبارها عظة مقدسة عن قداسة الإمبراطورية، تحتفل بقوتها وحصانتها. وهنا يضع دانتي أساس جيوسياسته بينما يجعل جستينيان يستذكر في أنشودة حماسية تاريخ الغزو الروماني والقادة الذين زعموا القيام به، سواء كانوا جمهوريين^(٥٦) أو إمبراطوريين: توركوأتوس وكوينكتيوس، الديتشي والفايبي، سيبيو وبومبي، يوليوس قيصر، أوغسطس، تيبيريوس، تيتوس، جستينيان وشارلمان. ويستخدم دانتي - مفخراً بالتدخل السماوي باعتباره الدفعة التي حولت الجمهورية إلى إمبراطورية (الفردوس ٦: ٥٢-٩٦)، الأنهار لرسم حدود الفضاء الجغرافي المحدد للإمبراطورية. وبدلاً من أن يصنف انتصار سيبيو أفريكانوس ماجور^(*) في شمال إفريقيا، يتحول دانتي نحو أوروبا، فيتذكر هزيمة هانيبال على يد سيبيو عند حدود نهر الـ"توبو" في المعركة التي أنهت الحرب البونيقية الثانية؛ وبالمثل فإن غزو قيصر لأنهار الفار والزين وإيزير واللوار والسين والرون وروبيكون يضع تفاصيل أوروبا باعتبارها أرض الإمبراطورية

(٥٤) (المقصود هنا هو النسر، شعار الإمبراطورية الرومانية). (المترجم).

(*) Scipio Africanos Major (٢٢٥-١٨٢ ق.م.) قائد عسكري روماني حقق انتصارات كبيرة في إسبانيا ودخل بعدها إفريقيا حيث هزم هانيبال (من هنا لقب "الأفريقي"). اتهم فيما بعد بالرشوة، وقضى بقية حياته في المنفى. (المترجم).

(الفردوس: ٥١:٦-٦٦) أما حملات بومبى وقيصر الإفريقية - وتشمل نيل كليوباترا - فترسم الحدود الجنوبية للإمبراطورية.

يضع دانتي هذا الإطار، الذى له إيقاع قربان مقدس، بصوت جستنيان - تجسيد القانون والعدل الرومانيين والنموذج الأمثل للحكم الإمبراطورى - لأسباب ثلاثة مهمة يشير إليها فى الأنشودة. فبعد أن تحول على يد أغاييتوس الطيب^(٩) (الفردوس، ١٦:٦) من الهرطقة القائلة بالمسيح ذى الطبيعة الواحدة تحرك جستنيان غرباً، ثم أخضع نفسه للاستعادة المؤكدة للوظيفة القضائية للسلطة الإمبراطورية؛ وأخيراً ندب سلطته العسكرية لبليزا ريو، الذى استعاد أرض الإمبراطورية (الفردوس، ١٠:٦-٢٧) وأعاد الهدوء - بصفة خاصة - إلى شبه الجزيرة الإيطالية. ولأن جستنيان كان ملتزماً بتنظيم القانون فإنه عند دانتي يرمز إلى الوظيفة الإمبراطورية - التشريع والحكم العادل. ولأنه قد تخطى عن الهرطقة فإنه يمثل نموذج الحكم المسيحى، ويتحوله نحو الغرب فإنه يدعم نظرة دانتي التى ترى أن الحركة باتجاه الشرق كانت تشكل انتكاساً تاريخياً. وأخيراً، من خلال استعادته أرض الإمبراطورية يقوم جستنيان بوظيفة وصف محاور اهتمام دانتي الجغرافى^(٥٧).

فى زمن كان الاستكشاف الجغرافى والتوسع التجارى قد شهدا تجاراً مثل ماركو بولو أو مبشرين مثل الأب ريكولودو دا مونتيكروتشى - وكلاهما من معاصرى دانتي - كان هؤلاء يهودون من رحلات إلى الشرق ويصفون بلاده وشعوبه، وعندما كان الباباوات والفرنسيون لا يزالون يدعون إلى حملات صليبية شرق أوسطية، يركز عمل دانتي الأخير على النقيض من ذلك على أزمات أوروبا الكنسية والسياسية. ويأدخاله "الشرق" فى قصيدته يميز مقاربه المجازية للسفر عن المادة الأخرى أو الأوصاف التى

(و) Agapetus the Blessed بابا روما لعامى ٥٣٥ و٥٣٦، ينسب إليه جوستينيان أنه هو الذى أقنعه بفضاعة عقيدته التعددية وأنه لا وجود إلا لطبيعة واحدة فى المسيح. (المترجم).

تحركها دوافع تجريبية (أمبيريقية). وشأن الرحلات التبشيرية، فإن الهدف من أدب الرحلات عنده هدف إنجيلي، غير أن مكان التحول (فى العقيدة) هو أوروبا وليس شرق البحر المتوسط أو ما وراءه. وعلى الرغم من أنه معنىً بالجغرافيا التجريبية فإن العقائد الجيوسياسية واللاموتية تحدد معالجتها.

لا شك أن دانتى واجه الشرق المتخيل أو المخبر عنه باعتباره المصدر الكبير للمادة "العجائبية"^(٥٨) فى كثير من المصادر الأدبية الوسيطية. إن أقدم نص للعثور على "مادة الشرق" هو "رسالة الفاراسمانيين" *De Rebus in Oriente Mirabilis*^(٥٩) التى تعد يوميات رحلة إلى الشرق *Orient*. ويرجع تاريخها إلى وقت لا يتعدى القرن السابع أو الثامن. والمخطوطة الأقدم هى من القرن الثامن أو التاسع. والأحدث هى من القرن الخامس عشر. وتتضمن رسالة الفاراسمانيين مادة عجائبية منتقاة من كتاب أوغسطين مدينة الرب، "رسالة من الإسكندر إلى أرسطو"، وشخصيات أسطورية مستقاة من فيرجيل وتعليقات سيرفيوس^(٦٠) وزواحف لوكان^(٦١). وقد أثرت فى كتابات أخرى عن العجائب، كما فى مادة الإسكندر. كذلك فقد تضمنت مصادر دانتى المباشرة كتاب بلينى *التاريخ الطبيعى*، إما بصفة مباشرة أو بوساطة الأقسام الواردة

(ى) Farasmanes نسبة إلى فراسمان ملك تراقية الذى تزوج نجله راداميس من زنوبيا ملكة تدمر لاحقاً. ونستطيع تقدير الزمن الذى عاش فيه هذا الملك من معرفتنا بأن زنوبيا حكمت فى الفترة من عام ٢٦٧ إلى عام ٢٧٢ م (المترجم).

١٠ * *Honoratus Marius Servius* نحوى روماني اشتهر بتعليقاته على فرجيل وازدهر دوره فى نهاية القرن الرابع الميلادى. كان وثنيا وفق ما تشهد رسالة إليه من سيماخوس واعتبر "أعرف" رجال عصره. (المترجم).

ب * *Annaeus Lucanus* (٢٩-٦٥ ق.م.) شاعر روماني ولد فى قرطبة وتعلم فى روما، انتحر بعد الحكم عليه بالإعدام لإدائته بالتآمر على الإمبراطور نيرون. اعتمد دانتى كثيراً على ملحمة *Pharsalia* التى تحكى الصراع بين يوليوس قيصر ويومبى. (المترجم).

فى الموسوعات اللاتينية والعامية الوسيطية التى تدين لبلينى أو لمصادر أخرى اشتقاقية، ومادة "عجائب الشرق" الموجودة فى نصوص مثل كتاب برونيتو لاتينى (١٢٢٠-١٢٩٤) Li Livres dou Tresor (الجحيم ، ١٥) وكتاب مايكل سكوت (١١٧٥-نحو ١٢٢٥) De Secretis Mulierum (الجحيم ، ٢٠)^(٥٩)، وكتاب غوسوان صورة العالم^ت L' Image du Monde (١٢٤٦) ، والكتاب شبه الكاليسيئى Historia , Alexandra Magni^(٦٠) (Historia de Preliis) وكتاب جاك دى فيتري (نحو ١١٦٠-١٢٤٠) تاريخ الشرق Historia Orientalis ، ومسردات الحملات الصليبية والحج، وأغنيات الإيماء Chanson de gestes العامية (بما فيها المجموعة الكاملة لمغامرات الإسكندر). بالإضافة إلى هذا فإن أعمالاً جادة فى مجال البحث العلمى مثل كتاب ألبرت الأكبر (نحو ١١٩٣-١٢٨٠) De Mineralium وDe Caelo et Mundo ، وكتابه De Natura Loci استمدت إلهامها من بلوغ التعلم من الشرق، لكن لأن معالجة ألبرت كانت متأثرة بدرجة معتبرة بالمذهب الأرسطى فى القرن الثالث عشر وبالموضوعية العلمية، فإن مقاربتة لهذه المادة تختلف عن المعالجات الأكثر شعبية. كذلك يمكن إدراج الكتب عن الحيوانات وعن العجائب المستعارة فى هذا الجسم من المادة الأدبية أعمال مثل De Bestiis et Aliis Rebous ، الذى ينسب خطأً إلى هيو سانت فكتور (توفى ١١٤١).

تصف هذه المادة قائمة طويلة من العجائب - بما فيها أنهار ضخمة وأشجار عملاقة وحيوانات متوحشة وأناس غير مألوفى المنظر والتصرف. وأحجار كريمة وأشياء ثمينة - يمكن العثور عليها فى البلاد الواقعة على حواف العالم، كما تشكلها الجغرافيا القديمة.

^{٦٠} ت "صدر فى عام ١٢٤٥ . (المترجم).

ولقد كان كثير من هذه الأعاجيب (مثل الحيوانات الغريبة والأحجار الكريمة) يجلب إلى العاصمة في الحقبة الرومانية القديمة باعتبارها مادة حسية للاستمتاع بها ولتفحصها في البيئة الرومانية، لكن كثيراً منها بقي من أثاث المخيلة المكانية، أدخلها بلينى في عمله الموسوعي ضمن مشروعه لتركيبة ثقافى لما لم يكن الرومان قادرين على تحقيقه سياسياً وعسكرياً: نهر الكانج الكبير غير المروض الذى أخفق الإسكندر في عبوره، وغرائب الحياة البشرية التى تعيش على الحدود، والجواهر الآسيوية الرائعة التى كان يقال أنها تملك صفات خاصة. لقد أصبحت روعة الشرق واحدة من زخارف الشعر الرومانى، تظهر الاتساع الكبير للعالم وكافة السلع التى جلبها غزوه سيطرة التجربة الرومانية. وأظهرت هذه المادة الشرقية - كحليات للشعر - الممارسات المكانية المادية^(٦١) وهى تؤدى عملها فى الميدان الثقافى .

وعلى غرار تقاليد هذه الأعمال القديمة والوسيطية، فإن هذه العجائب من أقاليم الحدود تظهر كسمات رئيسة فى كوميدى دانتى. وفى الحقيقة فإن الكوميديا، كنوع من أدب الرحلات، تستخدم كثيراً من الموضوعات والأفكار التى تجد طريقها إلى هذا العمل الكبير^(٦٢). ولكن أنواع التحيز التى يبديها كتاب جغرافيون لاتينيون، أمثال بلينى وسولينوس وسترابو، تلك الأعمال - التى دعمت الفكرة عن أجناس "متوحشة"، قد أعادت إنتاج حكايات عن عجائب "مرئية"، وتنامت شعبيتها أثناء الحملات الصليبية - لا تظهر فى قصيدة دانتى. بدلاً من ذلك يأخذ دانتى موضوعات هذا الأدب إلى ما يسميه هانز أورس فون بالتازار^(٦٣) البعد اللامكانى لـ الكوميديا^(٦٣). هكذا تسكن المخلوقات المتوحشة القصيدة وتدرج الإشارات إلى الجغرافية الكبرى للعالم

^{٦١} Hans Von Balthasar (١٩٠٥-١٩٨٨) وصفه هنرى دولوباك بأنه "ربما أكثر الناس ثقافة". بلغ عدد كتبه ومقالاته أكثر من ألف. واعتبر أهم لاهوتى فى القرن العشرين وليس فى وطنه سويسرا فحسب. طوب قسيساً فى عام ١٩٣٦ ورفع إلى كاردينال فى عام ١٩٨٨ لكنه توفى قبل الاحتفال. (المترجم).

الخارجى - أى الأنهار والناس والحيوانات والأحجار الكريمة المدهشة التى كان يسعى الصليبيون والمغامرون لاصطيادها فيما وراء الأراضى المعروفة لإفريقيا وأوروبا وآسيا. إن للروائع - حقاً - مكاناً مهماً فى قصيدة دانتي. ولكن الطريقة التى يقدمها بها تفصله عن التقاليد الكلاسيكية المكتسبة بالمعرفة، عن الموسوعيين، وعن كتاب أدب العجائب الشعبى، وذلك على وجه التحديد لأن مفهومه للمعرفة - وكيف يطبقه على جغرافيته - يختلف جذرياً عن مفهومهم، على النحو الذى سنناقشه فى الفصل التالى.

هوامش المقدمة

Bonaventure, Collationes in Hexaëmeron, 329 (١)

(٢) بشأن إلهام دانتى انظر: Orosius, Histoires, وانظر أيضاً Mazzarino, The End of the ancient World, 58-75 وفيه يقول أن عالم العصور الوسطى شهد التاريخ بعيون أوغسطين وأوروسىوس.

(٣) هذه المفاهيم فى الفضاء يعرفها لوفيفر Lefebvre فى :

La production de l'espace

و ديفيد هارفى David Harvey فى The Condition of Postmodernity

(٤) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(٥) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(٧) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(٨) استخرج هذه الأفكار على أفضل وجه الإقناع سنغلتون Singleton فى :

"In Exitu Israel de Aegypto" and Dante's Commedia: Elements of structure. See also Carol V. kaske, " Mount Sinai and Dante's Mount Purgatory," and Demaray, the Invention of Dante's Commedia.

(٩) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(١٠) بشأن مفهوم أوغسطين انظر كتابه Cité de Dieu وحول أممية أوغسطين للعصور الوسطى ولدانتى بوجه خاص، انظر :

Courcelle, Recherches sur les "confessions" de saint Augustin; Marrou, Saint Augustin et la fin de la culture antique; and Courcelle, Les confessions de Saint Augustin.

(١١) يكن ماكروبيوس احتقاراً مائياً شبه تام للعالم، لأنه يدعو - مقتفياً خطى شيشيرون - موت الروح
:(Commentarii, 1.10.7)

(١٢) انظر مناقشة Krieger للمجاز فى : Reopening of Closure وانظر أيضاً: Ricoeur,
La métaphore vive.

(١٣) على الرغم من أن هذا الدعم الأوغسطينى لـ الكوميديا ليس بعبارات تأويلات مكانية، إلا أن فريتشيرو
Freccero قد طوره بقوة فى كتابه Dante 1-28، انظر أيضاً: Mazzotta, Dante, Hawkins
و"Divide and Conquer",

(١٤) انظر: Hugh of Saint-Victor, Commnetariorum

(١٥) انظر: Bonaventure, Itinerarium Mentis in Deum، انظر أيضاً: Gilson, he Philoso-
phy of Saint Bonaventure.

(١٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(١٧) "العلاج المكاني" Spatial Therapy مفهوم عرفه Dupront in Du Sacré 366-415

(١٨) يطور كتاب غرامشى Gramsci بعنوان Gli intellettuali الذى كتب فى عام ١٩٣٠ هذه الفكرة
(انظر ص ٩). وقد طور فكرته أكثر بورديو. Bourdieu, L'amore dell'arte.

(١٩) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard فى : Poetics of space

(٢٠) انظر - على سبيل المثال - سعيد: Culture and imperialism، دراسة للأدب الأوروبى فى الحقبة
الكولونيالية؛ و Quint, Epic and Empire وهى دراسة فى العلاقة بين الأسلوب الملحمى وبناء
الإمبراطورية؛ و Anderson, Imagined Communities وهى دراسة لدور الثقافة فى التشكيل
التخيلى للأمم.

(٢١) انظر سعيد، Said, Orientalism، ورده على نقاد نظريته فى Orientalism Reconsidered
وبشأن الخلافات مع سعيد انظر:

Ahmad, In Theory, 187-90

Hentsch, L'Orient imaginaire,

Lowe, Critical Terrains.

(٢٢) انظر: Babha, The Location of Culture و Spivak, In other Worlds,

(٢٣) انظر: Mary B.Campbell, The Witness and the Other World, 47-86 Friedman, The
Monstrous races.

(٢٤) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٢٥) انظر : Isidore of Seville, Etimologias

(٢٦) انظر Vincent of Beauvais, Speculum quadruplex sive Speculum Maius وهو يتضمن الكتاب الذي يحمل عنوان : Speculum Morale ليس كتابا لفينسان - Speculum Doctri-
nale, and Speculum morale, although Speculum morale is not Vincent's.

(٢٧) انظر Pliny, Natural History يتحول بليني في الكتاب السابع نحو الرائع والخيالي، متحدثاً عن سلوك شعوب العالم المختلفة : الحثيثين أكلوا لحوم البشر (١٠٩-١٠٠) ، المخلوقات النقيضة (١٠١١) والهنود والأحباش، الذين يدخلون في صفوف الأعاجيب (٢٠٢١).

(٢٨) لنظرة أفق لهذه المادة من ميرودوت حتى القرن الخامس عشر، انظر : Wittkower, "Mervels of the East"

(٢٩) انظر Marco Polo, Il milione

(٣٠) يعد كتاب Foucher of Chartre, Hierosolimitana مربية صليبية تتضمن مادة العجائب النموذجية. انظر الكتاب الثالث.

(٣١) انظر : Jacques de Vitry , La tradiction de l'istoria Orientalis وهو يصف في الفصول من ٨٢ إلى ٩٠ الأشجار والحيوانات والناس والأحجار الكريمة في الشرق.

(٣٢) انظر : Albert The Great, De Caelo et Mundo, De Natura Loci, and De Mineralium

(٣٣) حول الحس الروماني بالفضاء الجغرافي- الثقافي، انظر : Nicolet, L'inventaire du monde, و Romm, The Edges of The Earth

(٣٤) Amin, Eurocentrism, 10

(٣٥) Daniel, The Arabs and Medieval Europe, 111-39, Leyser, " Concepts of Europe in The Early and Highg Middle Ages", 47.

(٣٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space.

(٣٧) حينما كان الملك لويس التاسع في مصر سجيناً ، كان مندهشاً لمكتبة السلطان الخاصة، بالأخص لأن جمع النبلاء مثل هذه المجموعة من الكتب كان أمراً غير معروف في عالمه.

(٣٨) Said, Orientalism, 99, see also Le Goff, " L'Occident medieval et l'Océan Indien".

(٣٩) Hentsch, L'Orient imaginaire, 17-43

Lowe, Critical Terrains, ix, 136-37.

(٤٠)

Monneret de Villard, Lo studio dell'Islam; Lopez, "L'importanza del mondo: انظر: (٤١)
; Archibald R. Lewis, The islamico; Archibald R. Lewis, Nomads and Crusaders
; ; and southern, Western Views of Islam Islamic World and The West,

Poetics of space : في : Bachelard طور هذه المفاهيم باشلار (٤٢)

James, , Marvels of The East, , Wittkower, "Marvels of The East". Meltzki, (٤٣) انظر:
The Mattre of Araby, and Daniel, The Arabs and The Medieval Europe.

ويأخذ دانييل في كتاب Islam and the west بؤرة تركيزه في تطوير المواقف الغربية تجاه الإسلام
من القرن الحادي عشر وما بعده، وهي مواقف يشير دانييل إلى أنها لا تزال تعيش بيننا في الوقت
الحاضر، انظر أيضاً: Said, Orientalism.

(٤٤) أسهب معظم المناقشات التي تناولت دانتي والشرق Orient في الحديث عن ما يدين به لمصادر
إسلامية. ومن الأعمال المبكرة التي تتناول مصادر دانتي الشرقية كتاب Blochet, Les sources
orientales, انظر أيضاً "Dante e L'Oriente", Olschki, ويذهب دانتي - وليس في هذا ما
يفاجئ - إلى أن مخططاً مميّناً قد قسّم بين الغرب Occident والشرق في زمن دانتي. انظر
أيضاً: Palacios, Dante y e Islam; Palacios, La escatologia; Cerulli, Il "Libro della:
Scala"; Guénon, L'esoterismo di Dante; and Gabrieli, "Dante e l'Islam;
بحث Cantarino بعنوان Dante and Islam ثبت مراجع طويل مع الحواشي للأعمال الصادرة حول
الموضوع حتى ذلك التاريخ. انظر أيضاً: Cloughm "Gli Studi intorno alle fonti islamiche in
Dante" و Cerulli, Nuove ricerche sul libro della Scala

ويواصل Menocol, في كتابه The Arabic Role, 115-35 هذه المداولات ، متناولاً الرقابة
الغربية على النفوذ الإسلامي من جانب مؤرخي الثقافة ذوي التمرکز الأوروبي. ويتناول Corti, Perco-
si dell'invenzione, تأثير ابن رشد والرشدية على دانتي.

(٤٥) بشأن دور رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة في مخيلة دانتي انظر: Demaray, "Dante and
The Book of the Cosmos"

Said, Orientalism, 69.

(٤٦)

(٤٧) بشأن نظرية نقدية لمقاربة سعيد عن دانتي والإسلام، انظر 187-90 Ahmad, In Theory, وبشأن
نقد لفكرة سعيد عن "الاستشراق" والمعيّار الذي بُنيت عليه انظر: Ahmad, In Theory, 159-
219- Lowe, Critical Terrains. و

Said, "Orientalism Reconsidered", 14.

(٤٨)

(٤٩) بشأن تطبيق لهذه الفكرة على القصيدة برمتها، انظر: Barolini, The Undivine Comedy

(٥٠) بشأن هذا المصطلح، انظر: Anderson, Imagined Communities

(٥١) بشأن فكرة أوروبا في حقبة دانتي انظر على سبيل المثال:

Baritz, «The Idea of The West» ; Burke, «Did Europe Exist Before ١٧. .?»; Leyser, "Concepts of Europe in The Early and High Middle Ages"; Guenée, L'Occident; Phillips, "The Outer World of the European Middle Ages".

(٥٢) Davis, «Dante and The Empire» .٧٣ .

(٥٣) انظر Gilson, Dante, ١٦٥-٦٦، وبشأن مؤلفات عن فكرة دانتي عن روما وسياسته وأدوار البابا والإمبراطور، انظر:

Nardi, Saggi di filosofia dantesca, 215-75; Nardi, Dal «Convivio» alla «Comedia», 151-313. Silverstein, «On the Genesis of De Monarchia»; Entrèves, Dante as a Political Thinker; Renucci, Dante disciple et juge, 311-50; Barbi, Problemi fondamentali, 49-68; Kantorowicz, The King's two bodies; Davis, Dante and the Idea of Rome; Angelis, Ilconcettod'Imperium; Limentani, The Mind of Dante, 113-37; Mazzoni, "Teoresi e prassi in Dante Politico, 9-111; Mazzotta, Dante, 66-106; Dubois, History, 28-51, 52-70; Davis, Dante's Italy, 23-41, Ferrante, The Political Vision; Schnapp, Sistrunk, "Armour, Dante's Griffin; and, most recently, Scott, Dante's Political Purgatory.

(٥٤) في إشارة إلى الأنشودة السادسة في الفريوس والكتاب ٤ في الوليمة في كتابه Dante as Political Thinker، أكد Entrèves الدور الذي لعبه القانون الروماني في اكتشاف دانتي أيديولوجية الإمبراطورية.

(٥٥) انظر Pliny, Natural History , book 7; Romm, The Edges of The Earth , 82-120. and Friedman, The Monstrous Races. إن فصل دانتي بين القوانين المحلية والقانون العالمي يتوازى مع مناقشات القديس بولس لمثل هذه الفروق في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثس وإلى أهل رومية على سبيل المثال: الختان: " [ليس الختان بشيء ولا القلق بشيء، إنما حفظ وصايا الله] كورنثس الأولى ١٩: ٧ وأهل رومية ٢: ٢٩-٢٥)

(٥٦) بشأن مصادر دانتي عن هذه الفكرة انظر: Silverstein, "On The Genesis of De Monarchia".

(٥٧) Orosius, Histoires, 1.2.1-11

(٥٨) Orosius, Histoires, 1.2.1-11

(٥٩) Augustine, Cité de Dieu, 16.9

(٦١) يثير ديفيز هذه النقطة في "Dante and The Empire" 76

(٦٢) كانت ثمة أسطورة واسعة الانتشار والقبول في العصور الوسطى تعتقد أنه حينما انتقل قسطنطين شرقاً أسبغ على البابا سلطة زمنية لحكم الغرب. وقد بين الفكر الإنساني الإيطالي لورنزو فاللا Lo- renzo Valla أن التفويض المزعوم، المسمى هبة "قسطنطين" كان مزيفاً. انظر: Nardi, Dal "Convi- vio" alla "Commedia", 151-313

(٦٣) انظر Dubois, History, 28-51 ويعطى Mazzotta في كتابه 28 Dante خليفة هذه الترجمة الإمبراطورية. Translatio imperii وقد عرّفها Hugh of Saint- Victor بأنها "تنسيق الزمان والمكان الذي ترتبته العناية الإلهية" 677 De Acra Noe Morali,

(٥٥) "هكذا قال السيد الرب هذه اورشليم قد جعلتها في وسط الامم ومن حولها الاراضى [نبوة حزقيال، Jerome, Commentariorum, 2.5-6 انظر ايضا ٦-٥:٥]

(٥٦) بشأن إعجاب دانتي بالجمهورية الرومانية انظر: Hollander, "Dante's Republican Theory"

(٥٧) لتطوير شامل لهذه الأفكار، انظر: Paratore, "Il Canto VI del Paradiso"

(٥٨) لقراءة النص انظر: De Rebus in Oriente Mirabilis ويشان دراسات لهذه المادة، انظر مقدمة Le Couteux للنص في الصفحات Le Goff, "The Marvelous in the Medieval West", Le Couteux, Les Monstres; Céard, La nature et les prodiges. For the idea of a "Matter of the East", see Metlitzki, The Matter of Araby, and Mary B. Campbell, The Witness and the other World, 46-86.

(٥٩) نسب كتاب Michael Scot, De Secretis Mulierum خطأ إلى ألبرت الأكبر وألبرت الساكسوني.

(٦٠) Pseudo-Callisthenes' Historia Alexandri Magni (Historia de Preliis) يتضمن الطبعة اللاتينية من رسالة الإسكندر إلى أرسطو. Alexander's Letter to Aristotle.

(٦١) "ممارسات مكانية مادية" هو مفهوم طوره لوفافر Lefebvre في كتابه La Production de l'Es- pace. ويشرح David Harvey في كتاب 218-19 The Condition of Postmodernity, هذا المفهوم باعتباره "التدفق والتحويلات والتفاعلات الفيزيائية والمادية التي تحدث في المكان وعبره على نحو يؤكد الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي".

(٦٢) يثير Westrem هذه النقطة في مقدمة لكتابه. New Worlds, ix,xxxiii.

Balthasar, Dante, 79

(٦٣)

الفصل الأول

جغرافيا دانتي

مناطق العالم الثلاث إفريقيا، آسيا، أوروبا

- الملكية، ٢-٣ : ١٠-١١

على الرغم من أن دانتي يتبنى مقاربة رمزية أوغسطينية - بوناغنتورا وفكتورينية للمعرفة الجغرافية ويطبقها على موضوع الشرق. فإنه، مسابقة لهذه التقاليد المكتسبة، لا يفعل هذا على حساب معرفة تجريبية أو معتقدات أصلانية (أرثوذكسية). إن وصفه للجغرافية التجريبية يبين أنه كان واسع المعرفة في المداولات والاكتشافات في زمانه^(١). إنه يركب مناهج البحث والمقاربات الفكرية إلى معرفة توما الأكويني الدومينكانى (١٢٢٥-١٢٧٤) وألبرت الأكبر^(٢). مع تفهيمات روحية أوغسطينية - بوناغنتورا، بينما يواصل الأنظمة الرمزية التي طورت في مدرسة الشارتر^(٣) في القرن السابق^(٤). يعكس عرضه للجغرافيا الفيزيائية تركيبه لمقاربات المعرفة هذه. وفي الحقيقة كان

(١) Chartres مدرسة شارتر تعد من أهم وأشهر المدارس التي كانت تعلم فيها الفلسفة في العصور الوسطى. ويقول ويل ديورانت في قصة الحضارة "امتزجت الفلسفة والأدب". وكان أفلاطون أحب الفلسفة في هذه المدرسة. وفيها سؤى الخلاف الشهير في الفلسفة الوسيطية حول الكليات. (المترجم).

دانتى- كما يتمثل فى "سماء اللاهوتيين" (مسيحية برابان^(ب)) وتوما الأكوينى وألبرت الأكبر وهيو سانت فكتور أو بوناغنتورا ويواكيم فيورى^(ت)، على سبيل المثال) يرقصون معاً - قد حاول أن يخلق انسجاماً ما بين الفروع المتعددة للتيارات الفكرية فى عصره^(٤) .

ولقد أكد إدوارد مور^(٥) - فى بداية القرن العشرين، وتبعه عدد من الباحثين الإيطاليين المعنيين بدراسة دانتى (بينهم أسونتو مورى وجيوسيبى بوفيتو وألبرتو مانياغى وباولو ريفيللى وأوزفالدو بالداتشى) ومؤخراً كورادو غيتزى وباتريك بويد وبيرت أرمور- على استخدام دانتى الدقيق للجغرافية والفلك المعاصرين^(٥) . وعلاوة على هذا فإنهم يرون أن هذه الإشارات العلمية وغيرها فى القصيدة لا يمكن أن تكون دخيلة على البراعة الفنية للقصيدة ورسالتها^(٦) . لقد عرف دانتى الجغرافيا الأساسية الموجودة فى أعمال أوغسطين وأوروسىوس وإيزودور اشبيلية وأونوريوس أوتون^(٧)

(ب) Siger of Brabant (١٢١٠-١٢٧٧) لاهوتى فرنسى ترأس حركة "الرشدية اللاتينية" تعرض لهجمات قاسية من توما الأكوينى، خاصة بسبب قوله أن الأرواح الفردية ليست خالدة، إنما الخلود للكون، وتبين نظرية ابن رشد أن شيئاً يمكن أن يكون حقيقة فى الفلسفة العقلانية وزيفاً فى العقيدة الدينية. (المترجم)

(ت) Joachim of Fiori (١١٣٢-١٢٠٢) ناسك إيطالى، كتب شروحاً للكتاب المقدس تنبأ فيها بعصر الروح حين لا تكون لتراتبية الكنسية ضرورية وحين يتحد الكفار والمسيحيون. وقد أنزله دانتى فى الفريوس. (المترجم).

(ث) Edward Moore (١٨٧٣-١٩٥٨) فيلسوف بريطانى كان لكتابه مبادئ الأخلاق Principia Ethica تأثير كبير على المفكرين المعاصرين. وشارك مع الفلاسفة وايتهيد راسل وفتنغشتاين فى أبحاث فلسفية تتعلق بتحليل اللغة والمعرفة، ولقب بأبى الفلسفة التحليلية. (المترجم).

(ج) Honorius of Autun عاش فى النصف الأول من القرن ١٢، وازدهر كلاهوتى وفيلسوف فيما بين ١١٠٦ و١١٣٥، وقد عاش معظم سنى حياته فى جنوب ألمانيا فى عزلة النسك، وترك عدداً كبيراً من المخطوطات. (المترجم).

وكانت موسوعات القرن الثاني عشر، مثل *Libre Floridus* (نحو ١١٢٠) التي وضعها لامبرت سانت - أومير (مات ١١٢٥) أو موسوعة ألكسندر نيكام^(٤) (١١٥٧-١٢١٧) *De Naturis Rerum*، وكذلك كتاب وليام كونشيز^(٥) (نحو ١١٨٠-١٢٥٤) الفلسفة العالمية *De Philosophia Mundi*، قد توسعت في، وواصلت، هذه التقاليد المكتسبة التي كان من الواضح أن دانتى على معرفة بها. كذلك فقد كان على اطلاع على أعمال القرن الثالث عشر، مثل كتاب فينسان *Speculum Maius*، ومؤلفات ألبرت الأكبر، ومؤلفات برونيتو لاتيني (١٢٢١-١٢٨٧) (ومن ثم على أعمال سترابو وبليني وبطليموس وسولينوس، الذين حفظ الموسوعيون أفكارهم)، وربما أعمال روجر بيكون. كذلك فإن كتابي توما الأكويني، الموجز اللاهوتي *Summa Theologica* والموجز ضد الوثنيين *Summa Contra Gentiles*، قد ساهما في معرفة دانتى التجريبية بالعالم.

ثلاثية شأن الثالث الأقدس، فإن جغرافية دانتى الأوروستية، التي تقول بكثرة أرضية واحدة، هي نموذج لخرائط العالم^(٦) المؤلفة من أرض (T) ومدار (O) وخرائط العالم الموسوعية (انظر الشكل ١) من القرن الثالث عشر. إن خريطة من نوع T-O هي بمثابة دائرة (O) مقسمة بحرف T في بعض الحالات، أو حرف Y في بعض آخر (انظر الشكل ٢). وفي تقاليد تفصيلات أوروسيوس للأرض المدارية *Orbis Terrarum* الأعلى هو الشرق وليس الشمال، ومن ثم فإن المعتقد أن يكون النصف الأعلى من الخريطة هو آسيا، في حين تكون أوروبا على الجانب السفلي الأيسر وإفريقيا على الجانب السفلي

(ح) Alexandre Neckam (١١٥٧-٩) ولد في اليوم نفسه الذي ولد فيه ريتشارد قلب الأسد، وقد أرضعت أمه الاثنين في وقت واحد. أصبح أستاذاً في أوكسفورد، وكتب كثيراً تحت اسم "البريكوس". أشهر كتبه كتاب صور الآلهة.. (المترجم)

(خ) William of Conches فيلسوف ولاهوتي من القرن الثاني عشر، عني بدراسة فلسفة العرب وعلومهم الطبيعية. كتب شروحاً لمحاوره أفلاطون "تيمائوس" وتعليقاً على عزاء الفلاسفة لبوتيوس. وعرف بنزوعه للمذهب الإنساني كتلميذ لبرنار دو شارتر. (المترجم).

الأيمن. ويميز دانتى- مسترشداً بجغرافيته الثلاثية للعالم - أراضى الإمبراطورية الرومانية السابقة، والأراضى الحدودية للإمبراطورية الرومانية، والمنطقة وراء الأراضى الحدودية فى الهند والحبشة. إن فكرة الأرض المؤلفة من ثلاث قارات؛ حيث كل قارة - حسب المعتقد المسيحى التقليدى - يسكنها أبناء واحد من أبناء نوح - سام (آسيا) وحام (إفريقيا) ويافت (أوروبا) - تظهر فى أعمال أوغسطين وأوروسىوس وإيزيدور أشبيلية وبرونينو^(٩) وألبرت الأكبر. ويستخدم دانتى نظرية المناطق لماكروبيوس بالنسبة للمناخ (انظر الشكل(٢)) ولكنه يرفض فكرة وجود منطقة على الجانب المقابل من الكرة الأرضية تسكنها مخلوقات أخرى ليست متحدرة من نسل آدم وحواء. مع ذلك فإنه يتبع ماكروبيوس ومارتيانوس كابيلا^(١٠) وبرونيتو وألبرت حول استدارة الأرض: " من البحر الذى يحيط بالعالم [الفردوس، ٩:٤٨، المطهر: ٥٤-٤:٥٧، ١: ٢٧-٤].

تتبع جغرافيا دانتى تقاليد الموسوعات والخرائط العالمية الموسوعية، ولكنها تختلف عنها فى نواح معينة ملحوظة. فإن لوحة خريطة إيبستورف Ebstorf التى لم تعد موجودة (نحو ١٢٣٥) - والتى كان قياسها يبلغ ١٠ أمتار مربعة^(١١) - تظهر رأس المسيح فى أعلى (الشرق أو الجنة) ويديه فى الجانبين، وقدميه فى الأسفل (الغرب). ويعلن هذا حضور المسيح فى العالم واهتمامه به، وصلبه من أجل العالم، وكذلك حميميته مع العالم وامتلاكه إياه أيضاً، وربما أكثر أهمية من ناحية رسم الخرائط، فإن ذراعى الصليب تصبجان الأحداثيتين لكافة المقاييس الأرضية^(١٢). والطريقة التى يبرز بها رسام الخرائط فى إيبستورف أماكن معينة مثل القدس وروما على هذه الخريطة إنما تؤكد الأيديولوجيا السائدة باعتبارها تاريخ خلاص. وبالمثل فإن خريطة العالم لبسالتر Psalter (نحو ١٢٦٠) (انظر الشكل ٤)، والتى لا يتعدى قياسها ثلاث بوصات ونصف البوصة قطعياً^(١٣)، وهى خريطة من طراز T-O حيث الشرق لأعلى، وقد رفعت المسيح عند القمة خارج الكرة الأرضية ذاتها، وجعلت جنة عدن، وفيها آدم وحواء، عند الطرف الشرقى الأقصى للأرض، وراء نهر الكانج، والقدس فى مركز كتلة

الأرض. كذلك تظهر خريطة العالم هذه الأجناس المتوحشة، مع كل تصوراتها المتباينة، وتضعها واقفة في المنطقة الجنوبية وراء أفريقيا.

وخريطة العالم لهيرفورد (Hereford) (نحو ١٢٩٠) (الشكل ١) هي الأشهر بين الخرائط الموسوعية الضخمة من القرن الثالث عشر. وهي مرسومة على الجلد ومقياسها ٦٢ في ٤٨ بوصة^(١٤). وتتشترك في سمات كثيرة مع خريطة إبيستورف، وتتبع نمط خرائط T-O. فهي تقسم العالم إلى آسيا وإفريقيا وأوروبا. القدس في الوسط، والأراضي المقدسة - مع تفاصيل مثل "الجمجمة"^(د) وجبل الزيتون والصلب - تحتل قسمًا كبيراً من المركز، وخريطة هيرفورد متوجهة بحيث الشرق إلى أعلى وذروته رسم للمسيح في جلاله، بينما المخلصين والمعاونين على الجانبين، يستذكرون مشاهد يوم الحساب، تماماً كما في صور بعض الكاتدرائيات القوطية. ويظهر أوغسطس قيصر - وعليه تاج البابوية والإشارة من لوقا على التعداد الأوغسطي (٢: ١)^(ذ) - في أسفل الجانب الأيسر، خارج دائرة الخريطة. هكذا يظهر المسيح الصاعد عند القمة في الشرق؛ والمسيح المصلوب في المركز في القدس وفقاً لتقليد حزقيال (٢٨: ١٢)، ويظهر أوغسطس قيصر - كحاكم رمزي للعالم - في الركن إلى اليسار (الشمال الغربي)، ومسافر راكب يصحبه تابع في ركن على الجانب الأيمن، وقد طبعت كلمتا "إمض للأمام" إلى يسارهما. وتحت المسيح الصاعد مباشرة وداخل الدائرة في الشرق الأقصى توجد عدن، حيث تظهر شجرة المعرفة وطرد آدم وحواء من الجنة على السواء.

(د) موقع صلب المسيح حسب العقيدة المسيحية. (المترجم).

(ذ) في زمن ميلاد المسيح - وحسب إنجيل لوقا- أصدر القيصر أوغسطس مرسوماً بإحصاء سكان الإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

كذلك تصور الخريطة الشرق وفيه عجائب ومادة بلينية. وتشمل هذه - بين تفاصيل أخرى تشملها - نعمة تاكل الحديد، وحيوان الغرفين^(١٤) يحرس جواهر الزمرد وحملات الإسكندر والأجناس المتوحشة. وإلى جانب ملحوظة نصية طويلة - مبنية بصورة مؤكدة على كتاب سولينوس *Collectanea Rerum Memonabilium Polyhistor* - تصف الهند، حجمها ومدنها وشعبها وأحجارها الكريمة ومعادنها وأفيالها وطائر الأليريون ، وتمساح، وبيغاء ، وأناس نوى منظر شاذ مثل *Sciapods* يظللون أنفسهم من الشمس بقدمهم الواحدة الضخمة^(١٥) . كل أنهار العالم وبحاره ممثلة فى هذه الرؤية المفردة التى أزيلت منها كل التميزات بين الأسطورة والخرافة والتاريخ.

كما موسوعة مصورة تصف خريطة "هيرفورد" جغرافيا فيزيائية ، لكنها أيضاً تعلم التاريخ الطبيعى والأساطير واللاهوت والتاريخ التوراتى. بالإضافة إلى هذا كله، وإن لم يكن بالضرورة هدفها الأول ، فإنها تقدم خطة رحلة تحدد بدقة - على الرغم من تحريفات للمسافات - أماكن بعينها وخاصة فى أوروبا^(١٦) . إن من الممكن لمثل هذا النموذج أن يكون مجرد خريطة من طراز T-O، بلا حدود أو مراكز، ويمكن أن تكون من الصغر إلى حد أن يكون قطرها بوصة واحدة، وقد لا يكون لها إله حاكم (الشكل ٢) وتبدو أحياناً شكلاً أكثر وضوحاً، تجعل الرمزية اليهودية - المسيحية واضحة. فى مثل هذا النوع- كما فى خريطة سالوست *Sallust* (الشكل ٥)- غالباً ما تكون الأراضى المقدسة فى وسط القارات الثلاث، والفردوس هو فى الشرق عند قمة الخريطة.

شأن الكوميديا، كمجهود للمّ شمل العالم فى رؤيا موحدة مفردة، كانت خرائط العالم الموسوعية تقوم بالمثل بوظيفة كانت تقوم بها الأعمال الموسوعية الأخرى فى القرن العشرين- أعمال مثل مؤلف فينسان بوفيه *Speculum Mains* أو مؤلف توما

(ر) كائن خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد (المترجم).

الأكوينى Summa Theologica، جهود لإدماج المعرفة التجريبية مع العلم النظرى فى إطار مسيحى أصلاى (أورثوذكسى) موطد. ويذهب جاك لوغوف^(ن) إلى أن هذا الاهتمام بالنزعة الموسوعية نتج مباشرة عن المذهب الإنسانى فى القرن السابق، الذى استعاد ثقة البشر، الذين خلقهم الرب، وأقام طريقة مشروعة لمعرفة "الأشياء" من خلال مفهومه المسيحى المتجدد للطبيعة^(١٧). لقد ساعدت الزيادة فى عدد النصوص العامة فى تأمين أن تأخذ التقاليد المكتسبة طريقها إلى الصيغ الشعبية من الموسوعات^(١٨). ومن بين هذه الأعمال العامة كتاب غوسـوان Gossouin صورة العالم L' image du Monde (١٢٤٦) وكتاب برونيتو بالفرنسية Trésor وبالإيطالية Tesoretto (الثروة).

وسأناقش مقارنة دانتي الفكرية والشعرية بهذه المادة الجغرافية فى علاقتها بأنظمة المعرفة الرئيسية الثلاثة كما طورها ألبرت وهيو سانت - فكتور وبونافنتورا وجميعهم يظهرون فى سماء الشمس عند دانتي كنجوم مضيئة لاهوتية. ويذكر دانتي على وجه التحديد كتاب ألبرت De Natura Locorum فى الوليمة ويكتب أنه طبقاً لما يقول ألبرت ولوكان (فى الكتاب التاسع من Pharsalia) العالم تقسمه منطقة قيظ، وهى المنطقة التى يصممها ألبرت بالمناخ السابع (الأكثر حرارة) حيث يعيش الغارامنت. وحسب دانتي فإن هذه المنطقة تقسم البلاد المكتشفة من المحيط الجنوبى (٣-٥-١٢). وتذهب نظرية المناطق (وخرائط العالم المقسم إلى مناطق التى تدعم هذه النظرية) إلى أن العالم ينقسم إلى خمس مناطق مناخية مع وجود منطقتين متوازنتين متجمدة ومعتدلة ومنطقة قيظ عند الخط الاستوائى (انظر الشكل ٣). وقد

(ز) Jacques Le Goff (١٩٢٤-) أبرز مؤرخ فرنسى تخصص بالعصور الوسطى، وبالأخص ثقافتها، وعرف بانتمائه للمدرسة التقليدية التى تربط التاريخ بالجغرافيا. خلف المؤرخ الفرنسى الأشهر بروديل فى منصب الأستاذية فى "معهد الدراسات العليا" للعلوم الإنسانية من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٧. آخر إصداراته "ميلاد المطهر" (المترجم).

حفظت أعمال ماكروبيوس^(١٩) ومارتينوس كابيللا. فإن النظرية الفيتاغورية أو نظرية كراتيس^(س) أفضت إلى وضع فرضيات بأن العالم المعروف إنما كان واحداً من كتلتين متماثلتين من الأرض على الكرة الأرضية كانت تفصل بينهما المنطقة الاستوائية الحارة ومحيطان يلفان الأرض. وأقضى هذا بدوره إلى الاعتقاد بوجود الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة للكرة الأرضية: مكان آخر، قارة أخرى، أو كتلة أرضية أخرى لم يواجهها أولئك الذين فى نصف الكرة الشمالى. وكان وليام كونشيز وآخرون من مدرسة الشارتر فى القرن الثانى عشر من بين أولئك الذين تناظروا حول نظرية المناطق ومسألة الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة للكرة الأرضية^(٢٠).

ويمكن فهم نظرية المنطقة المقابلة للكرة الأرضية كصيغة قديمة / وسيطية لنظرية القرن العشرين عن تعدد الأصول التى نشأ عنها الجنس البشرى؛ وقد أكد بعض المتزمين بهذه النظرية أنه بسبب استحالة عبور منطقة القيط، لم يكن الناس الذين يعيشون فى تلك المنطقة المقابلة من نسل آدم وحواء. أما نظرية أحادية الأصل التى كان يؤيدها هيزود^(ش) حسب قول ألبرت، ويؤيدها الكتاب المقدس، كانت تفرض أصلاً واحداً للبشرية كلها، وقد أكدت هذا تأويلات سفر التكوين ١ و ٢. أما وجود أجناس متوحشة و"روائع طبيعية" ومناطق جغرافية خارج الأرض المدارية الثلاثية فقد تحدثها نظرية الخلق اليهودية - المسيحية، التى ذهبت إلى أن الرب صنع العالم الطبيعى وأن الجنس البشرى بأسره تحدر من آدم وحواء. ولم يكن هذا بمثابة إضفاء طابع أدبى على قصة التكوين؛ بل على النقيض، إنها تساند الاعتقاد الأساسى بأن رباً عادلاً ومحسناً - الطبيعة هى مساعده - قد خلق العالم للكائنات البشرية كلها المتحدرة من

(س) Crates ممثل ومؤلف كوميديات أثينى ازدهر نحو عام ٤٧٠ ق.م. واعتبر المؤسس الحقيقى للكوميديا اليونانية. (المترجم).

(ش) Hesiod (القرن الثامن ق.م). شاعر يونانى لقب بأبى الشعر الوعظى (التعليمى) أشهر مؤلفاته Theogony ويتناول فيه أصل نشوء العالم والآلهة. (المترجم).

الأبوين الأولين. أما نظرية المناطق المقابلة والعجائب التي ظهرت خارج أو وراء هذه النظرية في الطبيعة فقد بنت منطقة وظواهر وأناساً استبعدوا من هذه الرؤيا^(٢١) .

كذلك فإن هذا التنظير واضح في الخرائط المؤلفة من أربعة أقسام التي تخيلت مناطق وراء العالم الثلاثي، مثل خريطة بيتوس لبيانا *Beatus of Liebana* (نحو ٧٧٦-٧٨٦) (انظر الشكل ٦). فالخرائط من نوع خريطة بيتوس تشمل قارة رابعة، تقع بعيداً عن العالم المعروف؛ وهذه القارة غير معروفة بسبب حرارة الشمس وهي موطن سكان المنطقة المقابلة للكرة الأرضية^(٢٢) . ومن بين الأقدمين فإن أرسطو وإيراتوستينيس *Eratosthenes* وبوليبيوس وسترابو وشيشيرون وميلا وسنيكا وبليني وبطليموس ومارتيانوس كابيلا وماكروبيوس هم الذين كانوا يعتقدون بوجود هذه المنطقة المقابلة للأرض. في حين أن بلوتارك ولوكان *Lucan* وفيرجيل، ولهذا دلالة، وأورسيوس (الذي لا يذكر هذه النظرية في مناقشته الموجزة للجغرافيا) وأوغسطين لم يعتقدوا بها^(٢٣) .

ويبرهن ألبيرت الأكبر علمياً في كتابه *De Caelo et Mondo* - محتثياً حذو أرسطو وبطليموس - على انقسام الأرض إلى نصفين ويعتمد على بطليموس لإثبات حجمها. ويغطي ألبيرت في كتابه الآخر *De Natura Locī* عدداً متنوعاً من الموضوعات، تشمل "طول وارتفاع الأماكن القابلة للسكنى"، وتقسيم الأرض حسب ما يمكن وما لا يمكن أن يسكن^(٢٤) . وفي المنشور الثالث - الذي يعتمد بدرجة كبيرة على أعمال أورويسيوس ويوليوس أونوريوس وإيتيكوس إيزتريا^(٢٥) *Aethicus of Istria* - يغطي جغرافية الكون ويضمّنه مناقشة "تقسيم الأجزاء الثلاثة للعالم: آسيا وأوروبا وإفريقيا"^(٢٦) . وفي مناقشته لمجال الحجج بشأن مناطق العالم المناخية الخمس، التي حددها ماكروبيوس ومؤيدوه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وفي تقديمه لوجهات نظر هوميروس

وأفلاطون وفيثاغوراس، وأوفيد^(ص) القائلة بأنه من المستحيل العيش فى المنطقة الاستوائية أو غيرها، يرفض ألبرت هذه الآراء محبداً وجهة نظر بطليموس وابن سينا. فيكتب: "هناك - مع ذلك - أسباب بطليموس وابن سينا للنقيض ، فهما يقولان أننا نرى بأعيننا بشراً كثيرين عاشوا بين مدار السرطان وخط الاستواء؛ وقد وصلت إلينا كتب الفلاسفة من أمم كثيرة بشأن النجوم هناك. ذلك أن الهند والحبشة هما جزئياً فى تلك الأماكن. ويتبين من هذا أنهما بالضرورة مأهولتان^(٢٧) .

يميز ألبرت سبع مناطق مناخية منفصلة بناء على الطول والارتفاع^(٢٨) . واعتماداً على دليل بطليموس وابن سينا وبيانات شهود عيان آخرين فإن ألبرت - ذاكراً جزراً وجبالاً وشواطئاً كأماكن باردة - يؤكد أن المنطقة الحارة يرجح أن تكون قابلة للسكنى شأن المناطق المعتدلة؛ حيث إنها لا تكون حارة فى كل منطقة^(٢٩) . وعلى الرغم من أن ألبرت لا يذكر نقلاً عن أوغسطين، فإنه يختلف مع أوغسطين - الذى ذهب فى مدينة الرب إلى أنه "لا يوجد سبب" للاعتقاد بنظرية "المنطقة المقابلة للأرض" التى يعيش فيها الناس على الجانب الآخر من الأرض، حيث الشمس تطلع حينما تغرب فى العالم المعروف^(٣٠) . ولم يجد أوغسطين دليلاً تاريخياً على هذه النظرية ، إنما الحدس العقلانى وحده، وبالإضافة إلى هذا فإن هذه النظرية تتناقض مع الكتاب المقدس، لأنه لا يبدو منطقياً لأوغسطين أن الناس كانوا يعبرون المحيط ويوطدون أنفسهم على الجانب الآخر من العالم.

(ص) Ovid (٤٣ق.م - ١٧ م) شاعر روماني هو أول من نضج من الكتاب العظام فى ظل الإمبراطورية. بين أهم أعماله فى الحب Ars amatoria الذى ثبت مكانته كشاعر العاطفة والرقعة فى الشرائع العليا لمجتمع روما بلا منازع. لكن عمله الأهم هو المسوخ Metamorphoses ويعكس فيه سقوط أوهام جيله. (المترجم).

ومن العالم القديم إلى العصور الوسطى المتأخرة أدى التكهّن بشأن أناس فى المنطقة المقابلة أو الموازية، لا يشاركون فى السماوات ذاتها أو فى المواسم نفسها (أى المكان والزمان نفسيهما أو ربما حتى الشمس والقمر نفسيهما). إلى أن يذهب بعضهم إلى أن الناس على الجانب الآخر من خط الاستواء كانوا متوحشين أو شواند كما هو بالفعل الحال فى جغرافية مارتيانوس كاييلا (التي تشمل الأمازون والهيبيبود والحيثيين والأحباش، وأناس آخرين من أفريقيا). يذهب أوغسطين - متناولاً مسألة الأجناس "المتوحشة" أو البلينية^(٣١) - فى مدينة الرب إلى أنه حتى إذا كان هؤلاء موجودين فإنهم يكونون جميعاً متحدرين من آدم وحواء ومن ثم لا يمكن اعتبارهم شواند. ويقرر أوغسطين أنه ليس من الممكن للرب أن يصنع خطأ، ولهذا فإن أبناء نوح وأدم وحواء، الذين تحدروا منهم، ما كان يمكن أن ينتجوا الأجناس المتوحشة التي تحدث عنها التاريخ الوثني^(٣٢). وهو إذ يعدد كل الأجناس البلينية، التي يشير إلى أنها مصورة بالفلسيفساء (موزايك) فى قرطاج ومبنية على فضوليات التاريخ الطبيعى، يكتب: ماذا ينبغى أن أقول عن Cynocephal، الذين لهم رؤوس كلاب وينبحون بالفعل، ما يجعلهم يعتبرون حيوانات متوحشة وليسوا بشراً؟ لا حاجة للاعتقاد بكل أنواع البشر التي يقال إنها موجودة. مع ذلك فأيا من كان يولد فى أى مكان ككائن بشرى، كحيوان عقلانى أخلاقى، ومهما كان يبدو غريباً لحواسنا فى شكل جسمه أو لونه أو حركاته أو صوته، أو فى أى ملكة أو جزء أو نوع لطبيعته أيا كان، لا يمكن لأى مؤمن حقيقى أن يشك فى أن مثل هذا الفرد له أصوله فى الإنسان الواحد الذى كان أول من خلق الرب. مع ذلك، فإن ثمة تمييزاً بين ما استدأم بفعل الطبيعة فى الأغلبية، وما هو رائع بفعل ندرته ذاتها^(٣٣).

هكذا، عند أوغسطين، ولأن كافة البشر متحدرين من البشرى الأول، فإن أى تنوع فى مظهر الكائنات البشرية يكون جزءاً من نظام الخلق. وعند أولئك الذين يبنون فكرة السواء يمكن أن يكون هذا صعباً على الإدراك. عند أوغسطين مثل هذه المخلوقات هى

روائع بالمعنى المقابل للمعجزات، وهذه هي تجل لإرادة الخلق لدى الذات الإلهية، كل هذه المخلوقات الرائعة، إذا كانت كائنات عاقلة، إن وُجدت - وهو أمر وضعه لتوه موضع التساؤل - هي مخلوقات الرب. أما كونها نادرة فيفسر لماذا تعتبر رائعة. يستجيب أوغسطين - فى الحقيقة - للخيوط الثلاثة القديمة للتفكير فى "الرائع". فهى عند أرسطو جوانب لمعرفة الطبيعة وبالتالي ينبغى أن تصنف؛ أما عند شيشيرون - الذى يجادل فى هذه القضية - فإن الأعاجيب هى وسيلة الآلهة للتواصل مع البشر؛ أما الموقف الثالث، الذى يمثله بلينى ، فيرى فى الروائع قوة الطبيعة ومن ثم هى رابطة مع مصير البشر. عند أوغسطين- وعلى تقاليد شيشيرون أكثر من هذا - العجائب تكشف النقاب عن قوى الرب الخالق، الذى لا يكف أبداً عن أن يوقظ فى البشر الإحساس بالرائع^(٣٤) .

كذلك فإن إيزيدور فى أصول الكلمات Etymologiae يناقش المتوحش تحت فئة الأعاجيب De portentis ويلاحظ - وفقاً لفارو Varro - أن الأعاجيب - المخلوقات الوحشية التى تعلن وتظهر وتتنبأ بالمستقبل - هى تلك الأشياء التى تظهر مناقضة لقوانين الطبيعة. وتشمل الأعاجيب المظاهر المدهشة فى عالم الطبيعة. "النذر" بشأن المستقبل، والمخلوقات المتوحشة مثل "السينودات" Cynodontes - وهى مخلوقات لها رأسان وثلاث أيد - والخنثويات والعمالقة والمخلوقات التى لها رؤوس كلاب والسيكلوب (العماق ذو العين الواحدة) Cyclopes وغيرها. ولكن - يشير إيزيدور محتذياً حنو أوغسطين- هذه المخلوقات تبدو مظهرية فحسب "منافية للطبيعة". وهى لا يمكن أن تكون غير طبيعية لأنها مصنوعة وفقاً للإرادة الإلهية. وهكذا فإن ثمة بُعداً لاهوتياً للوحوش، إنها توجد بإذن الرب. وحيث إن الطبيعة هى فيض الرب فإن كل شىء فى العالم الطبيعى له مكانه فى الخلق. وما وحش إلا ذلك الذى نشير إليه بإصبعنا^(٣٥) .

فى القرن الثانى عشر كانت شخصيات مهمة مثل برنار كليرفو(ش) فى كتابه Liber de Gratia et libero arbitrio . تؤكد الفكرة القائلة بأن لا شىء يوجد إلا ما يأتى من الرب؛ ومن ثم فإن المخلوقات العجيبة لا بد أن تكون متخيلة. وبالمثل أصر الآن دو ليل Alain de Lille على أن كل المخلوقات تملك ملكة العقل^(٣٦) . وفى الحقيقة فإن رد فعل الكنيسة على تزايد شعبية هذه المادة "الغريبة" كان إدماجها فى الإطار المسيحى؛ وهكذا فإن ظواهر مثل التنانين والوحوش وغيرها من المخلوقات العجيبة من أزمنة ما قبل المسيحية أو من مستودعات اليونان والرومان الأقدمين كانت تصور مجازياً بأنها "تعمد" الثقافة الشعبية. وهكذا أصبحت الأجناس المتوحشة أيضاً موضوعاً للتصوير المجازى - على سبيل المثال المخلوقات التى لها رؤوس وحوش كتشويه والأقزام كمنثين للمهانة والمخلوقات برؤوس كلاب كوثنيين^(٣٧) .

ويعلن كتاب غوسوان صورة العالم L' Image du Monde فى الحقيقة أن التوحش مسألة نسبية. وتتضمن موسوعة فينسان بوفيه وصفاً كاملاً للمتوحش، وكتاب برونيتو الثروة Tresor مستودع غنى بالعجائب من عالم الحيوان، وغراميات الإسكندر تضمنت مغامرات كثيرة فيها أنواع كاملة من الروائع^(٣٨) . وبالإضافة إلى هذه الأعمال هناك عاميات سلسلة تتناول الوحوش والزواحف والأحجار الكريمة المنقوشة و Valucraries . بل هناك عظة مشكوك فى نسبتها إلى أوغسطين تصف الأحباش، بعضهم له رؤوس فى صدورهم. وبعضهم قساوسة متزوجون يضاجعون زوجاتهم مرة كل عام وفى جنوب الحبشة نساء بعين واحدة. ولكن فى تقليد استخدام "الآخر" لمحاسبة المؤمنين فإن هذه

(ش) (1091-1153) St Bernard of Clairvaux لم ينتم إلى مدرسة فلسفية، لكنه وضع كل ثقله الفكرى فى الاهتمام بالتصوف. وكان من دعاة اللاهوت التصوفى. واعتبر غاية الحياة ونهايتها بلوغ مراتب الإنسانية القصوى فى المحبة التأملية للرب. (المترجم).

الموعظة تنتقد المسيحيين، ذاهبة إلى أنه في حين أن هذه الكائنات الأخرى شواذ، فإنها أكثر تديناً وأكثر إيماناً وأقرب إلى المسيح من البشر^(٢٩) .

ويحسم ألبرت المناظرة حول ما إذا كان أناس يعيشون في عامل بديل بأن يعلن أنه بينما يمكن أن توجد مناطق منفصلة، وتفصل صحراء شاسعة بين الشمال والجنوب، مع استعداد لرحلة طويلة وشاقة، فإنه يكون من الممكن عبور المنطقة الإستوائية وبلوغ المنطقة المعتدلة الأخرى^(٤٠) . وهو يذهب إلى أن نصف الكرة الأدنى من الأرجح أن يكون منقسماً مناخياً مثل، النصف الشمالي، وأن أناساً ربما يسكنون هناك، ولكنه يرفض كنوع من الجهل الفكرة القائلة بأن الناس الذين يسكنون المناطق المواجهة للكرة الأرضية يمكن أن يكونوا قد سقطوا من الأرض^(٤١) . ويشير ألبرت إلى أن المنطقة الواقعة بين مدار الجدى والمنطقة الأخيرة في الجنوب هي منطقة تجلو السكنى فيها على مدار السنة^(٤٢) .

وتوحي نقاط التوازي في استخدام دانتي الشعرى لهذا التنظير بأنه قد قرأ أعمال ألبرت العلمية. وفي الحقيقة فإن جغرافيتيهما تتفقان في عدد من الجبهات، بعد كل الحجج السديدة يجعل دانتي الأرض مستديرة ويتبنى أبعاد ألبرت وبطليموس بالنسبة لحجم الأرض كما برهن عليها في كتاب *De Caelo et Mundo*؛ وكما في كتاب أورويسيوس *De Natura Loci* فإن عالم دانتي المعروف ثلاثي؛ ويحذو دانتي حذو ألبرت بشأن النظرية القائلة بأن الأحباش والهند يعيشون في منطقة مناخية قائظة (المطهر، ٢٦: ٢١، ٢٧: ٤). ومن الأمور ذات الدلالة، وحيث إن هذا الموقف يبتعد عن التقليد الجغرافى الذى كان يتمسك به إيزيدور والموسوعيون المتأخرون وخرائط العالم ذات المقاييس الكبيرة، التى كانت تضع جنة عدن فى الشرق، يبدو أن ألبرت قد وضع منطقة مسكونة ذات تماثل فى الدفاء والبرودة والرطوبة والجفاف فى نصف الكرة الجنوبي^(٤٣) . وتتصل هذه النظرية بعض الصلة مع تحديد دانتي موقع المطهر وجنة عدن على مسافة ٩٠ درجة وراء قادش، وليس فى الشرق كما أوحى موسوعيون أمثال

إيزيدور ورابانوس ماوروس وفينسان بوفيه "الفردوس مكان فى الشرق" (٤٤). من الناحية الأخرى فإن توما الأكويني - محاجاً على أساس الفلسفة، يقرر أن "الفردوس ليس (بعد الآن) مكاناً مادياً"، ولكنه يقرر أيضاً أنه "المكان الأنبل على الأرض" (٤٥). ويبدو أن دانتي - فى تجاهله للنظرية عن أناس على الجانب الآخر من الأرض - إنما يحذو حذو أوغسطين، غير أنه يذعن لألبرت، بشأن إمكانية أن يكون قد جرى عبور منطقة حارة بالفعل، وهو إذ يحدد مكان عدن على قمة جبل المطهر فى نصف الكرة الجنوبي (المطهر، ٢٢: ١-٢٤) على الجهة المقابلة تماماً للقدس (المطهر، ٦١: ٤-٧٥)، على الرغم من كونها بيئة خرافية، إلا أنه يضعها وفقاً لنظرية ألبرت الجغرافية. وأخيراً، يبين دانتي أنه يعرف كتاب ألبرت De Menirialium الذى يصف خصائص الأحجار الكريمة.

بالإضافة إلى المقاربات التجريبية (الأمبيريقية) للمعرفة، كما مثلها ألبرت والمدرسة الفكتورينية - وخاصة هيو سانت - فكتور (انظر مثلاً الفردوس، ١٢: ١٢٣) - قدم دانتي مقارنة رمزية لمعرفة أشياء العالم. إن هيو يشرح تفصيلات مقاربتة لاكتساب المعرفة بالواقع التجريبى فى أعمال عديدة. ولكن بصورة أهم فى

Commentariorum in Hierarchiam Coelestem S. Dionysii Areopagitae

وفى عظاته الكنسية ، التى يذهب فيها إلى أن "الإنارة الروحية" من الداخل تجعل من الممكن رؤية الإلهى فى العالم المرئى (٤٦). ويؤكد هيو، محتذياً حذو بسيدو - ديونيسيوس، أن باستطاعة البشر أن يروا وأن يفهموا عالم الواقع التجريبى، عمل الخالق لأن للروح ثلاث أعين. عين الجسد تتيح للروح أن ترى العالم خارج ذاتها وأن ترى تلك الأشياء التى فى العالم؛ وبعين العقل تستطيع أن ترى ذاتها والأشياء التى فى إطارها؛ والعين الثالثة عين التأمل - تجعل بالإمكان رؤية الرب داخل الروح ورؤية الأشياء التى فى الرب (٤٧).

مثل هذه النظرة إلى المعرفة تقبل أن كل رؤيا هي جماعية - تجريبية (أمبريقية) ، رمزية / روحية وعقلانية؛ وهذه تتوازى مع النظريات التأويلية التي توصي بأن تُقرأ النصوص لغوياً (فيلولوجياً) وتاريخياً وروحياً (مجازياً) . فالعقل عند هيو جزء من الإيمان، وحيث إن الصفحة الإلهية ملكة فإن العلوم هم خدامها؛ ولكن العلم - وفق ما يعلنه هيو - غير حقيقى إذا لم يستمد معلوماته من المحبة^(٤٨) . يعرض كتاب هيو *Libre de Tribus Maximis Circumstantiis Gestarum* - الذى يتبع التقاليد الأوغسطينية التأويلية^(٤٩) - مبادئ رسم الخرائط، بمعنى أنه فى مناقشته الفنون العقلية يذهب إلى أنها أقسام من عالم مخلوق مفرد موحد فى سلسلة زمنية وفيزيقية متصلة^(٥٠) . لقد وُحِّدَت نظريته فى المعرفة فى أساسها الفكرة القائلة بأنه لأن الرب خلق العالم الذى تقمص فيه، فإن العالم مقدس، وأن الغرض من التعلم هو فهم هذه الهبة وتقديرها والاستمتاع بها.

كذلك تظهر وجهات نظر هيو سانت فكتور - بجذورها الأوغسطينية فى جوهرها - فى أعمال بوناڤنتورا . فهو - كمثل لاهوت الفرانسيסקانى - قد تبنى وجهة النظر التى ترى إن عالم الطبيعة يكشف عن صانعه؛ لأن الخلق يمثل الحكمة الإلهية^(٥١) .

وهو لكى يميظ اللثام عن لاهوته الثلاثى *Triplex theologica* ، ردأ على شواغله بشأن النزعة المدرسية (السكولائية) فى اهتمامها المفرط بالخطاب العقلانى كوسيلة لفهم العالم، كتب بوناڤنتورا فى مؤلفه *Itinerarium mantis in Deum* "يتعلم المرء معرفة ما بالحقيقة عن طريق أسلوب ثلاثى فى اللاهوت - كما لعلك تعرف - رمزى وعقلانى وصوفى"^(٥٢) . وهو لم يعن بهذا أن ينكر أغراض البحث العقلانى، إنما أكد أن "المسيح هو وسيلة كل معرفة"^(٥٣) .

عند بوناڤنتورا للعقل ثلاثة جوانب - التأمل والإيمان والاستدلال - وكل هذه ضرورية للمعرفة الحقة. وفى الفصل الثانى من كتابه *Itinerarium* يناقش كيف يمكن

للشعر أن يروا الرب فى تجلياته فى عالم التجربة الحسية. فالتجليات - كأشياء خيرة وجميلة، أو باعتبارها جمال العالم - هى علامات الرب غير المرئى الذى صنعها. وعند بوناڤنتورا يتبع الصعود إلى الرب طريقة تأملية فى التفكير والاعتقاد والاستدلال بشأن التجليات، أثار أقدام الرب^(٥٤). ويشرح فى كتابه Breviloquium - محتضياً حذو هيو سانت - فكتور - أن العين الجسدية تبين العالم والأشياء التى فيه، وعين الاستدلال تبين الروح والأشياء التى فى الروح. وعين التأمل تبين الرب والأشياء التى فيه^(٥٥). يتطلب سلم الصعود هذا مركباً من التعلم، سواء معرفة العالم التجريبى (الإمبريقي) أو معرفة الحقيقة اللاهوتية. فإن بوناڤنتورا يرى العالم كمجموعة من العلامات والرؤى الإلهية والصور الزمنية للحقائق الأبدية. وعلى الرغم من أن أشياء العالم ليست غايات فى ذاتها أو مناسبات للدهشة، فإنها علامات على جمال الخالق، تقود المرء من الانتباه للمرئى إلى حب اللامرئى^(٥٦).

اختلفت وجهات نظر بوناڤنتورا عن تلك التى نجدها فى النصوص الأفلاطونية الجديدة لمدرسة شارتر، وعن وجهات نظر أرسطو والأرسطيين الجدد، وعن وجهات نظر الشراح العرب الذين اقترحوا التحقيق فى الطبيعة على نحو مستقل عن مسائل ما فوق الطبيعة، على النحو الذى نراه حقيقة فى كتاب ألبرت De Natura Locī الذى فيه يتجنب كل ذكر للاموت، عدا الملاحظة الأرسطية الوحيدة بأن الرب هو المحرك الأول^(٥٧). فإذا كانت السعادة السماوية عند توما الأكوينى هى معرفة الرب، فإن السعادة السماوية عند بوناڤنتورا هى الحب، والاستحواذ والفرح الناجم عن اتحاد كل القوى مع الرب. ويتميز أثار أقدام الرب فى عالم الظواهر الطبيعية كان لاموت بوناڤنتورا يسعى للتغلب على الفصل بين الرب المتعالى والرب الملازم (الكامن) فى الطبيعة، وهو تحول هدد بإحداث انقسام بين الفروع العلمية واللاهوتية وبين الفهم التجريبى (الأمبريقي) والروحي. وقد أفضى هذا التمييز ببوناڤنتورا إلى منهج فى التأمل كان يرى فى الظواهر الطبيعية مصدر الاتحاد بين البحث الفكرى والروحي. وبطبيعة الحال كان لهذه الفرضيات المسبقة أثر عميق على نظرياته التأويلية، وأدت به إلى تأكيد الجوانب الرمزية

للنص الذى تجرى مناقشته؛ وهذا واضح بشكل خاص فى تعليقاته على كتاب Hexa-meron^(٤٨) فحسب الجغرافيا، قدمت هذه المقاربات الفكتورية والفرانسيסקانية للمعرفة نظرية معرفة epistemology استطاع بها أن يجعل الظواهر الحسية مجازية، وأن يحول ما يمكن تعلمه عن طريق البحث العقلانى إلى وسيلة رمزية توحى بصانعها، على نحو ما نظّر بونا فينتورى.

يصبح واضحاً، طوال الفردوس، اعتماد دانتي على لغة بوناڤنتورا، وبالتالي بصفة غير مباشرة على لغة بزيڤو- يونيوسىوس، بعد فحص دقيق للتلميحات التى يتركها لنا. وبطبيعة الحال فإن بوناڤنتورا مصور على نحو بارز فى القصيدة ومقرونا إلى توما الأكوينى. مع ذلك، وعلى نحو أكثر تحديداً، يُدمج دانتي صوراً بوناڤنتورا عديدة فى القصيدة، بينها "سكالا" (ميزان سلم يعقوب و صليب المسيح) الذى يمكنّ الحاج من أن يرتفع دوماً من الجحيم، نزولاً من جسد الشيطان (الجحيم، ٨٢:٣٤-١١٩)(٤٩) صعوداً إلى السماوات (الفردوس، ٨٦:١٠، ٢٩:٢١). إن صورة السلم، كما أوضحت فكتوريا كيركهام، هى "السلم" الذى خلقه الرب والذى يربط الأرض بالسماوات^(٥٠) وتتضمن الإشارات البوناڤنتورا الأخرى بصمات الرب وعلاماته وظلاله فى عالم الطبيعة. وعلى سبيل المثال:

مثل القبرة وهى تحلق فى الهواء تغرد لأول وهلة، ثم تصمت، راضية باختتام إنشادها حتى الاكتمال، هكذا بدت لى صورة من كان بصمة لهذه اللذة الخالدة، التى يصير كل شىء بإرادتها ما هو [الفردوس، ٧٣:٢٠-٧٨].

هنا لوصف النسر السماوى للحكام العادلين يأخذ هذا التشبيه الموسع الحاج أربع درجات من "اللذة الخالدة". يحل مجاز "اللذة الخالدة" محل ما يشير إليه على أنه واحد فحسب من مئة من الصور والإسهابات التى يستخدمها دانتي وفقاً لتقاليد بزيڤو- ديونيسيوس فى الإشارة إلى الألوهية. وعند دانتي فإن "صورة" (فرق أول) "البصمة" (فرق ثان) للمجاز عن الرب ("اللذة الخالدة") (فرق ثالث) هى "قبرة" لا تملك

سوى ذكرى "الحلاوة الأخيرة التى تشبّعها" (فرق رابع). وفى القلب من هذا التخيّل الموسّع يكمن مرجع - الألوهية - مخفية ومكشوفة فى بصمات لا تحصى من وجودها. وثمة صور بوناڤنتورا أخرى فى الفردوس، مثلاً خير الألوهية الذى يضع بصمته على العالم (١٠٩:٧). يشجب بوناڤنتورا بشدة نظامه الخاص (الذى فيه تتطابق تطابقاً صحيحاً القدم مع آثار القدم (١١٥:١١٦-١١٦)؛ لأنه أخفق فى أن يقتفى آثار أقدام فرانسيس. وكانت بياتريس قد اختارت "أن تترك فى الجحيم" آثار أقدامك (٨١:٣١). هذه "الآثار" هى علامات مجازية تحل محل صانعها وتعلنه، ولكن مكانتها كأثار تعلن ما لها من حدود. وكلفتها رمزية فإن الواسطة التى تعلن مكانتها المرجعية، أى الآثار هى "نسخ" الربّ الواحد الذى لا يمكنها إلا أن تعلنه.

أعتقد أن من المهم - مع ذلك - أن ندرك أن هذا الاستخدام الأوغسطينى - البوناڤنتورا والدانتينى ليس هو نفسه الأفكار الحديثة عن المجاز، كما ناقشه على سبيل المثال كوليريدج^(ص) الذى حقق تقدماً للفكرة القائلة بأن لغة التوراة وفرت النموذج للمجاز الشعري، بمعنى أنها جعلت اللغة الشعرية نفسها خبرة ما لا يوصف. هنا تجذب اللغة الرمزية على وجه التحديد الانتباه إلى إخفاق الوسائل اللغوية فى أن توصل الكيان الإلهى الذى تقصد أن توحى به. ففى حين أمكن كوليريدج أن يكتب - فى مناقشته لسفر حزقيال - أن الكتاب المقدس يستخدم "نسقاً من الرموز المتناغمة

(ص) Samuel Taylor Coleridge (١٧٢٢-١٨٣٤) شاعر وكاتب وناقد إنكليزى من الشريحة العليا من المثقفين البريطانيين فى عصره. كان فكراً ليبرالى النزعة. أقام علاقة صداقة قوية مع معاصره الشاعر الإنكليزى المرموق وليام وردزورث الذى ألهمه أفضل ما كتب خاصة فى الشعر، مثل The Rime of the Ancient Mariner و Kubla Khan ونشراً معاً "القصائد الغنائية" Lyrical Ballads وسافراً معاً إلى ألمانيا حيث درس كوليريدج الفلسفة. بعد عودتهما إلى إنكلترا ترجم كوليريدج بعض أعمال شيللر. أدمن على تعاطى الأفيون بعد أن اتخذته علاجاً لمرض صدرى. على الرغم من قلة إنتاجه كميّاً فإنه كان بلا منازع الناطق الفكرى باسم الحركة الرومانسية الإنكليزية. (المترجم).

فى ذاتها، والمكونة من المادة ذاتها مثل الحقائق التى هى موصلاتها"^(٦١)، فعند دانتي، كما عند أوغسطين، على الرغم من أن الرموز هى موصلات فإنها لا يمكن أن تكون من مادة الحقائق التى تحملها، إنها بالفعل تلمح إلى وتعيد إليه مرجعها، ولكنها لا يمكن أبداً أن تجعل العالم حاضراً^(٦٢). إن مكانتها الرمزية هى على وجه الدقة وسيلة جعلها مرجعها الذى لا يوصف، فيصبح المجاز الآلية التى بواسطتها تصبح الهوة الوجودية (الأنطولوجية) بين ما تشير إليه الكلمة والكلمة نفسها هوة لا يمكن عبورها.

تقوم خرائط العالم المزينة بالرسوم عند دانتي بتركيب الخطوط الرئيسية للبحث الفكرى من أوغسطين وأوروسىوس إلى هيو وألبرت وبوناغنتورا. وتعكس جغرافيته الفرضيات المسبقة النظرية التى يبدو أنها تميز خرائط العالم الوسيطية والموسوعية التى خدمت الأغراض الأيديولوجية بينما كانت تدرس الجغرافية التجريبية. وعلى سبيل المثال فإن دانتي - شأنه شأن صانعى خرائط العالم وشأن ألبرت - معنى بالجغرافية الفيزيائية ويعلم تجربى (إمبريقى) لصنع الخرائط. وهذا ظاهر فى عدد من الجهات. أولاً، يقدم كتاب *De Vulgari Eloquentia* - الذى يصف دانتي فيه أربع عشرة لهجة إقليمية إيطالية - يقدم خريطة لغوية أدبية مفصلة، لا تتعارض مع الدراسات الحديثة للحنجريات، للغات المحكية فى إيطاليا^(٦٣). وفى الفصل الأول من كتاب *De Vulgari Eloquentia* يصف دانتي قسماً من لغات العالم على أساس الجغرافيا. وتظهر معرفته بجغرافية إيطاليا ولغاتها دراية بالخرائط البحرية الدقيقة علمياً (الخرائط الملاحية البيانية) التى كانت فى التداول فى القرن الثالث عشر^(٦٤). إضافة إلى هذا فإن الكوميديا مليئة بإشارات جغرافية محددة، سواء إلى إيطاليا نفسها وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط، كذلك يحدد دانتي مواقع أنهار العالم بدقة^(٦٥). وهو يضع مناطق الأرض الزمنية بإشارات جغرافية دقيقة، كما - على سبيل المثال - فى المطهر، حيث يلاحظ أن الليل يحط على نهر الكانج، والغروب فى القدس، والشروق فى نصف

الكرة الغربى على جبل المطهر (١:٢-٦). وبالمثل فإن رسالة مسألة المياه واليابسة *Questio de Aqua et Terra* - وهى موضوع نزاع - والتي كتبت فى عام ١٢٢٠، تبرهن على معرفة دانتي واهتمامه بالمسائل النظرية التى تناقش نظرية المناطق واليابسة فيما وراء العالم المعروف. وتذكر رسالة *Questio* اسم دانتي فى بيانين افتتاحى وختامى بوصفه آخر الفلاسفة الحقيقيين، مشيرة إلى أنه هو المؤلف.

ويتمركز نزاع تحديد مؤلف رسالة *Questio de Aqua et Terra*، أو بصورة أدق، *Questio de Sité et Figura sive Forma, Duorum Elementarum, Aqua Videlicet et Terre*.

حول طبيعة كتلة اليابسة التى يقع موضعها فى الجحيم (١١٢:٢٤-١٢٦) وفى مسألة (٢١) لأن دانتي - فيما يبدو - يقترح وجهات نظر متباينة فى العلاقة بين البحر واليابسة^(٦٦)، وفى الأنشودة (٢٤) من الجحيم - وإشارة إلى الفرق بين نصفى الكرة المتواجهين (١١٢) وإلى "نصف الكرة الخاص بنا" [١٢٤]، يشرح فيرجيل أنه حينما سقط إبليس على الأرض، وتفادياً للتلوث فإنه وضع فى نقطة معاكسة تماماً للقدس - المركز التوراتى للأرض - الأمر الذى تسبب فى تراجع كتلة اليابسة (١٢٢-١٢٤) إلى "نصف الكرة الخاص بنا". والموقف المتخذ هنا هو أن نصف الكرة الشمالى هو القسم القابل للسكنى من الأرض، فى حين أن البقية هى مياه ولهذا فهى غير مأهولة. ومن المثير للاهتمام أن كتاب ألبرت *De Natura Dolci* يميز موقف الأقدمين فيتاغوراس وهوميروس وأوفيد وأفلاطون وديموقريطس وآخرين لم يذكر أسماءهم من موقف بطليموس وابن سينا، فقد ذهب الأول إلى وجود خمس مناطق مناخية واعتبر المنطقة الحارة منطقة لا يمكن عبورها؛ والآخر - على النقيض من ذلك، وكما أشرت - ذهب إلى إمكان عبورها، تماماً كما يفعل ألبرت^(٦٧). ويبدو فيرجيل - فى نص دانتي - يحتذى حذو تقاليده القديمة. وبالمثل فإن خطبة يولييسيس إلى رجاله، التى ذاعت

أخبارها، فى الأنشودة ٢٦ من الجحيم تشير مباشرة إلى اليابسة فيما وراء مضيق هرقل، الذى يريد رجاله أن يستكشفوه باعتباره "العالم بغير بشر" [١١٧] وتتلاقى شخصية يوليسيس الهوميرية (والفيرجيلية) عند دانتي مع ملاحظة ألبرت بأن هوميروس (وهيزيود) كانا يعتقدان بأنه لا توجد يابسة أو بشر وراء العالم المعروف. فإذا لم يكن دانتي يتفق مع هذا الموقف، كما يفهم ضمناً من رسالة المسألة (Quaestio) يكون مثل هذا آخر فى الكوميديا حيث يشير الشاعر إلى حدود فيرجيل.

لقد ذهب الباحثون إلى أن موقف المؤلف فى Quaestio بشأن علاقة اليابسة بالمياه ستدمر التوازن اللاهوتى الذى يجعله دانتي مركزياً فى جغرافية الكوميديا^(٦٨). وهو إذ يضع مكان المطهر جبلا داكنا بعيدا [الجحيم، ١٢٢: ١٢٣] حيث عدن فى قمته، بالتحديد عند الجهة المقابلة للقدس، وعلى تسعين درجة طولية من قادش ومن نهر الكانج، فإنه يخلق توازياً جغرافياً تاماً^(٦٩). وتظهر هذه المواقف - حسبما يذهب الباحثون- أن دانتي يعرف ولكنه يرفض عامداً نظرية "العالم المقابل للأرض". وهذا النمط الهندسى حاسم بالنسبة للاهوت دانتي والاستعارات التى طورها فى المطهر^(٧٠) للأرواح الهابطة إلى المطهر "حينما خرجت إسرائيل من مصر". وهكذا فإنه يعادل الحياة فى العالم مع الأسر والحياة بعد الموت مع التحرر من المنفى^(٧١).

مع ذلك فقد جادل فرانشييسكو ماتزونى باستمرار فى صف تأليف دانتي المسألة Quaestio، وكان أحدث محاولاته فى "مقاييس دانتي للعالم". فهو هنا إذ يتخذ الموقف القائل بأن دانتي كان نتاج "المذهب الإنسانى المسيحى" للقرنين الثانى عشر والثالث عشر، يصر على توفيقية الشاعر الفكرية. كما تتضح فى أعماله المتنوعة وفى استطلاعها للنظرية العلمية، سواء الأرسطية أو البطلمية أو المدرسية (السكولائية)، كما ظهر فى الوليمة Convivio، والكوميديا والمسألة Quaestio. وهو يشرح أن المسألة تتبع تقاليد أعمال موسوعية أخرى استلهمت النظريات الأرسطية فى العصور الوسطى

المتأخرة. وكما يبين مازوتا (Mazzotta) أيضاً فإن "المنطق" وهو النهج الفكرى لبحث المسألة "مستخدم فى معظم نصوص دانتي "الاستطردادية والشعرية"^(٧٢) . وفى الحقيقة فإن المسألة تشارك فى المقاربة النظرية لألبرت فى كتابه *De Natura Loci*. وفى حين أن غرضها الرئيسى ليس أن تقدم صورة للعالم *Imago mundi* فإنها تتبع أبعاد سطح الأرض كما بينها ألبرت. وتمتد مناطق اليابسة المأهولة من الكانج إلى قادش، ١٨٠ درجة على خطوط الطول و٦٧ على خطوط العرض، مؤلفة ربع سطح الأرض^(٧٣) . مع ذلك فإن الاهتمام الأول فى المسألة هو باستطلاع مشكلة المبادلة بين نصفى الكرة إذا كانت اليابسة هى فى الشمال وحده؛ لأن هذا من شأنه - نظرياً - أن يجعل المياه تصعد إلى ارتفاع أعلى من اليابسة، وهو ما يؤدى إلى إغراق هذه الأخيرة إلى أرض من المياه بسبب وزنها. وتضع المقالة فرضية على الطريقة الأرسطية عن الكيفية التى بها تحل هذه الصعوبة النظرية منطقياً، وهو تناقض ظاهر مع التوازى التام الذى يفصله دانتي فى الكوميديا . فحين يحدد دانتي مكان المطهر - كجزء من "العالم الآخر" - فى الجهة المقابلة للأرض فى الكوميديا، إنما يترك بغير حل مسألة الأجسام البديلة من اليابسة أو البشر على الجانب الآخر من الأرض.

إن كافة أعمال دانتي وبما فيها المسألة - تبين اهتمام الشاعر ومعرفته بالنظرية الجغرافية التجريبية (الإمبريقية) المعاصرة. فقد كان دانتي - شأنه فى ذلك شأن ألبرت فى كتابه *De Natura Loci* - قادراً على إقامة الحجة نظرياً بشأن مناطق الأرض والعلاقة فيما بينها، فى الوقت ذاتها - وكما يفعل ألبرت فى الفصل الثالث من *De Natura Loci* - على اتباع نظرية الأرض الثلاثية شبه الأصلانية (الأرثوذكسية)^(٧٤) . وبالمثل يستطلع دانتي - فى الكوميديا - الشواغل الموسوعية بالعجائب. فعلى تقاليد أوغسطين وأوروسىوس يتجاهل الشائعات عن الوجود الفعلى للأجناس المتوحشة، لكنه فى الوقت نفسه يحول التخيلات إلى استعارات. وقد احتوت المادة التى تظهر فى

الموسوعات، فى مجموعات العجائب ويشأن خرائط العالم التى تتضمن مخلوقات من أنواع مختلطة متباينة - القنطور(ض) والمينوطور(ط) والغرفين(ظ) على سبيل المثال - وكذلك أوصاف وتصويرات الأجناس المتوحشة (أكلة لحوم البشر والناس بغير رؤوس والكائنات من الجهة المقابلة) . وعلى الرغم من أنه كانت هناك أماكن كثيرة للعشور على هذا النوع من المادة فى تلك الحقبة، كانت مصادر دانتي الأولية الكتاب اللاتينيين الأقدمون^(٧٥) .

لعل خيال دانتي التوفيقى والتركيبى قد جعل البحث النظرى من النوع الذى نجده فى الرسالة Quaetio متمشياً مع البحث اللاهوتى لأوغسطين، الذى كان يرفض فكرة "المتوحشين" على أسس لاهوتية وتجريبية (أمبريقية). وهكذا فإن دانتي يضيف طابع المجاز على "العجائب" بينما وضع "البرى" و"الوحشى" فى "الجحيم". إن الوحوش فى القصيدة - مخلوقات خيالية مثل مينوس^(ع) وسيربيوس^(غ) وغيريون^(ف)^(٧٦) وإبليس، ذا الرأس المذهل (الجحيم، ٣٤: ٣٧) - هى جميعاً فى "الجحيم". والجحيم هو موقع "المذهل" وحيث الخطاة يتعجبون من أن شخصاً حياً استطاع أن يسافر عبر الجحيم وحيث الشيطان هو "المدهش" المطلق. ولكن الجحيم يضم كسكن كل أولئك الذين سعوا وراء

(ض) Centaur فى الخرافة الكلاسيكية كائن خرافى نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان. (المترجم).

(ط) Minotaur كائن خرافى نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل ثور. (المترجم).

(ظ) Griffin كائن خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد. (المترجم).

(ع) Minos ملك كريت ابن زيوس وأوروبا. اعتبر مشرعاً موهوباً حتى أنه نصب بعد موته واحداً من قضاة محاسبة الموتى. (المترجم) .

(غ) Cerberus وحش خرافى يحرس مدخل الجحيم ويمنع دخول الأحياء مثنى الأموات. (المترجم).

(ف) Geryon فى الأساطير اليونانية كائن من ثلاثة أجساد وله أجنحة. تمكن هرقل من قتله فى النهاية. (المترجم).

العلامة باعتبارها شيئاً وليس العلامة باعتبارها علامة، أو أنهم كانوا قد أخطأوا العلامة ظناً بأنها شيء؛ وفى الحقيقة فقد نؤمهم هذا الخطأ، ودانتى يجعل عقابهم الأبدى محاكاة لسقوطهم الأخلاقى. إنهم باعتبارهم إسقاطات وحشية فى الجنس البشرى يمثلون بشاعة الخطيئة التى تتم بها - فى الآن ذاته - غسوة البشر وإخافتهم.

بالإضافة إلى هذا فإن سكان الجحيم البشر الخطاة يبدون إلى حد كبير مثل الجار القريب للمرء، حتى وإن لم يبدو متشابهين. وعلى الرغم من أنه استمد إلهاماً من مصادر كلاسيكية، فإن وحوش دانتى الشيطانية، وبعض العقوبات للملعونين، تعيد صهر عجائب مادة الشرق. إن سيربيروس يماثل الإنسان ذا رأس دب الذى كتب عنه منذ زمن بعيد يرجع إلى ستيسيئاس^(ق) (٧٧) والذى ذكر فى الموسوعات. كما أن الغريون، "العجائبي" (الجحيم، ١٦: ١٣٢) ورمز الزيف مرسوم بتصميمات مطابقة للثياب التركية والتتارية (الجحيم، ١٧: ١٦-١٧). ويبدو الخونة - والخائن الأكبر هو رمزهم الكامل - مثل أكلة لحوم البشر، وتعطى قصة يوغولينو^(ك) مثلاً على أكل لحوم البشر فى بيزا، وليس من بلاد المتوحشين المتخيلة^(٣٣)؛ والعرافون، الذين يسبقون ورؤوسهم ملتوية إلى الخلف، يذكرون بمخلوقات العالم المقابل للأرض (٢٠) ومظهر اللصوص (٢٥) يوحى بالمخلوقات الشريرة المتداخلة أنسجتها فى كتب العجائب والحملات الصليبية (مثلاً، الكتاب ٢ من مجلد فوشيه شارتر (Foucher of Chartres)

(ق) Ctesias مؤرخ وطبيب إغريقى، عاش سنوات طويلة فى بلاط بلاد فارس، وأرسله الفرس فى عام ٣٩٨م إلى إيفاغوراس ثم كونون. ولم يبق من مؤلفاته إلا مختصر وضعه فوتيوس لكتابه فارس والهند، وفيه حاول أن يبرهن على أخطاء وقع فيها هيروdot. (المترجم).

(ك) Ugolino حاكم مدينة بيزا (الإيطالية) ويظهر فى الأنشودة الثالثة عشرة من الجحيم، التى تعد أنشودة المتحررين. (المترجم).

Historia Hierosolimitana. وهكذا يستخدم دانتي هذه المادة الشرقية العجيبة، التي كانت قد وجدت طريقها إلى أعمال المثقفين، كجزء من نسقه الرمزي عنده مثل هذه الشواذ هي "غرائب" العالم الجهنمي^(٧٨).

إن تخيل "الوحشى" يؤدي عدداً من الوظائف النفسية. أولاً، كمبيد للجهود البشرية، وهو أمر مرعب ومدهش فى آن معاً، يهدد الوحشى النظام الاجتماعى. وبهذه الصفة يصبح موضوعاً للفضول والنفور، حصاد المخاوف والرغبات، رمزاً لقوى الشر، مجازاً أو "كاريكاتوراً"، وتعبيراً وحشياً عن غموض إنسانى. ويمكن رؤية عادة الكنيسة لتشبيه هذه الوحشيات أثناء هذه الفترة كآلية لتأكيد البعد النفسى للوحشى. ومن السهل إدراك نمط مماثل فى تمثيل دانتي للوحوش الشيطانية فى الجحيم، حيث يجذب الحاج بصرياً ويفزع من الوحوش الكلاسيكية التى تقوم بنور حراس السجون فى جهنم. كذلك فإن الوحوش تلخص هذا الغموض البشرى - القدرة على أن يكون وحشاً لا عقلانياً ومخلوقاً عقلانياً معاً، أن يكون خطيراً وجذاباً معاً - بهذه الصفة فإن هذه الوحوش تمثل ما هو منفر للغاية وما هو مفر للغاية على السواء فى الشر. وتتيح السمات الجذابة فى هذه المخلوقات المنحرفة أيضاً لها أن تخفى طبيعتها الكامنة. ويسارع البشر إلى اتباعها بفعل فوائد مثل الحب الجنىسى والاستقرار المالى أو الرغبة فى المعرفة والسلطة والنجاح. ويمكن لهذه الفوائد أن تتحول بسهولة إلى مضار خطيرة على النحو الذى تضرب له الأمثلة الصيغ الدانتية لحكايات فاريناتا(*) وبرونتينو^(ل) وأوليسيس.

ولقد قيل إن مفاهيم مثل "البرية" و"التوحش" و"البربرية" التى يمكن، جزئياً على الأقل، معادلتها مع "الوحشى" كانت قد فقدت تدريجياً طابعها الخرافى مع ازدياد

(*) Farinata Degli Uberti زعيم الغيبليين فى فلورنسا ويظهر فى الأندودتين ٦ و١٠ من الجحيم (المترجم).

المعرفة بالمناطق التي يفترض أنها برية^(٧٨) . ويمكن للمرء أن يفترض أن الأجناس المتوحشة، التي يتخيل وجودها على الحدود، لم تعد موجودة بمجرد أن استكشفت هذه الفضاءات بواسطة الجغرافيين التجريبيين (الإمبريقيين) أو أخضعت بواسطة الغزو العسكري. وبطبيعة الحال فإننا في عصرنا هذا قد قمنا بإسقاط فنى لوجود هذه البرية فى الفضاء الخارجى، كجزء من ممارسة تتخيل أشكالاً أخرى للحياة فى إقليم لم يتم غزوه بعد، إنما أيضاً كنقد طويأوى لعالمنا نحن. وبالمثل فإن هذه "البرية" تتغلغل فى صيغ الثقافة الشعبية عن النشاط الإجرامى. ويذهب هايدن وايت (Chyden White) إلى أن إزالة الطابع المكانى باطراد "عن الإنسان البرى" كان مصحوباً بإضفاء طابع داخلى على البرية، وهو ما يمكن ربطه بكارل يونغ^(٧٩) والمفكرين الآخرين البعد الفرويديين Post- Freudians مثل ميلانى كلاين^(٨٠) ونورمان أو. براون^(٨١)، وهذه البرية المحولة إلى عامل داخلى تؤدى بالطريقة نفسها الوظيفة التى كانت تؤديها خرافة "الإنسان البرى" فى الأزمنة القديمة - كمجاز للرغبات وأشكال القلق المكبوتة^(٨٢) .

تتيح الوظيفة، النفسية (السيكولوجية) لـ "البرية" نقطة بداية لمناقشة المفاهيم المسيحية عن "البرية". فكما ناقشت أعلاه، فإنه على الرغم من حكايات قاسية كثيرة سلبت التعاليم المركزية للمسيحية الأصلانية (الأورثوذكسية) فإنه لا مكان فى هذه

(م) Carl J. Jung (١٨٧٥-١٩٦١) زعيم المدرسة التحليلية فى علم النفس. انشق على فرويد بسبب ضيق الأخير بالافاق التى أراد يونغ أن يفتح علم النفس عليها : الأساطير والتصوف والدين والعالم الروحى للإنسان، وضيق يونغ بالنظرية الجنسية عند فرويد . (المترجم).

(ن) Melanie klein (١٨٨٢-١٩٦٠) عالمة نفس فرويدية، من رائدات التحليل النفسى للأطفال مع آنأ فرويد. ولدت فى فيينا وتوفيت فى لندن. (المترجم).

(هـ) Norman Brown أحد أهم مؤسسى التاريخ النفسى (Psychohistory) أهم مؤلفاته: Life against Death, Love s Body, Apocalypse and/or Metamorphosis; (المترجم).

المسيحية "للمتوحش" إلا حيث يناسبه فى الخطة الإلهية. إن الاعتقاد بأن الحرمان البشرى ضار وأن المحرمات (التابو) ضد الناس لا مشروعية لها، هى أمور معيارية فى العقيدة المسيحية. وعلى سبيل المثال فإن أفكاراً كهذه تظهر فى الأناجيل حين يستنكر المسيح المحرمات ضد الناس من الملل والأعراق الأخرى ، ويأخذ بها آباء الكنيسة، وخاصة أوغسطين. وهكذا فإن "تحويل البرية إلى عالم داخلى" كان جوهرياً بالنسبة للتفكير المسيحى ، وإن يكن غير يقينى بالمعنى اليونانى. إن إضفاء طابع مجازى على المخلوقات ذات المظهر الوحشى هو تطور مفهوم لهذا التحويل للبرية إلى الداخل. وذلك أن ما هو شكلى يتقمص حالة داخلية. وعلى النقيض من "البرية" المتخيلة، التى -إذا وجدت- تكون طبيعية ففى صيغة دانتى تكون هذه "البرية" المحولة إلى الداخل غير طبيعية حقاً لأن اللاعقلانية البشرية تفضى إلى أفطع الخطايا، كما تصور فى انحرافات الجسد عند البشر الذين يجدون أنفسهم فى الجحيم أو فى الوحوش التى تحرس جهنم. ويمكن أن تعرف الخطيئة وأن تقسم وتصنف وترتب وتتراتب وتُخضع لفحص دقيق، لكنها فى النهاية هى الوحشية المطلقة، الضلال الحقيقى^(٨١) .

تختلف جغرافيا الكوميديا عن الجغرافيا التجريبية الحديثة، وعن النظريات الماكروبيوسية، وعن جغرافيات العصور الوسطى فى جوانب عدة: فالمحيط يحيط باليابسة، جاعلاً اليابسة مثل جزيرة؛ العالم المعروف مقصور على الشمال؛ خطوط العرض والطول مقصورة على اليابسة المأهولة؛ والقارات الثلاث أصغر؛ وأبعاد البحر الأبيض المتوسط تختلف عن أبعاده اليوم؛ وروما - وليس القدس - هى مركز العالم.

ونجد - بوضوح - فى أعمال دانتى، كما فى خرائط العالم - نجد مفاهيم عدة للجغرافيا تعمل فى آن معاً. فهو فى البلاغة العامية (De Vulgari Eloquentia) يفصل بدقة علمية الفضاء الجغرافى للغة الإيطالية، لغته الأم، على النقيض من لغات عامية أخرى وعلى النقيض من اللاتينية. وفى الملكية (Monarchia) يرسم خريطة "الفضاء

الطوباوى" للدولة المثالية - مؤيداً "العالم بأسره" موحداً تحت حكومة واحدة على نموذج الإمبراطورية الرومانية القديمة. وهو فى الكوميديا يصف أقاليم إيطاليا والدول - المدن كفضاءات اجتماعية ذات حدود وذات تواريخ وعادات فريدة. ولكنه يقدم أيضاً معرفة عامة بجغرافية العالم. وهو، إذ يعيد صنع النماذج الماكروبيوسية فى الكوميديا لتحديد موقع المطهر فى نصف الكرة الجنوبى، فإن جغرافية دانتي ذات القارات الثلاث، كما فى خرائط العالم الموسوعية طراز تى - أو T-O . تتضمن أيضاً كثيراً من المخلوقات الغرائبية مثل المينوطور والغرفين، وتعطى مدن مثل القدس وروما مكانة بارزة متوازية. ولكنه فى الإشارة إلى آثار بونافنتورا، تؤدى دور آثار الأقدام الغامضة للرب وعلامات على الحضور الإلهى فى عالم الطبيعة، يجعل الجغرافيا أيضاً مجازية.

هوامش الفصل الأول

(١) بشأن مناقشات حول دانتي والعلوم انظر المقالات المجمعة في كتاب: Dante e la scienza, Le stelle di Dante; وانظر أيضاً كتاب: Gizzi, L' astronomia nel poema sacro ويشأن مناقشة أسبق تحديد موقع معرفة دانتي بالفلك والجغرافيا وعلم الكون، انظر طبعة: Quaestio وصفحة ١٢ من طبعة Mazzoni.

(٢) See Nardi, Saggi di filosofia dantesca, 81-109, 139-66: Vasoli, "Dante, Alberto Magno e la scienza dei 'peipatetici'": and Armour, "Dante e l'Imago mundi", 191-202. For the background to these developments, see Chenu, La Théologie: Haskins, Studies in the History of Medieval Science: Duhem, Le système du monde, particularly vols. 1-3: Thorndike, History of Magic, with vols. 1 and 2 covering medieval science; and Boffito, Gli strumenti della scienza.

(٣) بشأن نظرة أفق للتطورات في نظرية المعرفة من القرن الثاني عشر وبعده، انظر

Stock, Myth، ويشأن مثال محدد انظر Evans, Old Arts and New Technology, 92-167 Langlois, La Connaissance، Chenu, Nature, Man and Society : and Science Viarre, La survie d' Ovide. ، sance de la nature

ويتضمن هذا الكتاب ثبوتاً ممتازاً بالمراجع حتى عام ١٩٦٦ للدراسات الأولية والثانوية ذات الأهمية المركزية للعلم الوسيطى؛ وانظر أيضاً مقدمة Wetherbee لكتاب Bernardus Silvestris، Cosma- graphia، وكتاب ١٦٢-1 Platonism and Poetry Wetherbee،

(٤) يتخذ Mazzotta من محاولة دانتي تحقيق مثل هذا الانسجام محور أدلة في كتابه Dante's Vision.

(٥) انظر ما يلي بشأن مناقشات لجغرافية دانتي:

Moore, "The Geography of Dante"; Moore, "The Astronomy of Dante", 1-108, in which he argues that Dante knew the Elementa Astronomica of Alfraganus; Boffito and Sanesi, "La geografia"; Revelli, L'italia nella Divina Commedia; and Mori, "La geografia nell' opera di Dante." Dante also figures in Wright, Geographical Lore, 106-7, and Kimble, Geography in The Middle Ages, 241-44. For Dante's

scientific knowledge, see Boffito, Saggio d'un commento scientifico. For his knowledge of Gerard of Cremona's Liber de Causis and of Alpetragios, see Nardi, Saggi di filosofica dantesca, 81-109, 139-66; Baldacci, "I recenti contributi"; Gizzi, L'astronomia nel poema sacro; Beniamino Andriani, Aspetti della scienza in Dante; Pecoraro, Le stelle di Dante; Hawkins, "Out upon Circumference"; and Armour, "Dante e l'imago mundi," ١٩١-٢٠٢.

ويمكن للمرء أن يدرج هنا أيضاً كتاب Kleiner, Mismatching the Underworld, الذى يكشف فيه بنكاء - فى الفصل الرابع (٨٥-١١٦) كيف يقدم دانتي رؤى تقديم العلم. ولست أناقش جغرافية العالم الآخر، كما يفعل - مثلاً - مورغان Morgan فى كتاب Dante and the Medieval Other World.

(٦) انظر Pecoraro, Le stele di Dante ٢٤-١٩. انظر أيضاً Hart, The Cristo-Rythme and Polyvalence, and Boyde and Russo, Dante e la scienza..

(٧) انظر Honorios of Autun, De Imagine Mundi

(٨) بشأن صناعة الخرائط فى العصور الوسطى انظر بيزلى Beazley الذى يكتب رافضاً: "الخرائط غير العلمية لحقبة العصور الوسطى المتأخرة ... هى عبث تام... إلى حد أن إشارة مجردة إلى الكائنات المتوحشة هنا وهناك تكفى". وهذا فى كتاب The Dawn of Modern Geography- 3: 528. وبشأن جغرافية العصور الوسطى انظر المصادر التالية:

Lewel, Geographie du moyen âge; Deslile, "Notice sur les manuscrits du Liber Floridus de Lambert"; wright, Geographical Lore; Olschki, Storia letteraria.; Kimble, Geography in the Middle Ages; Vaughan, Mathew Paris; Almagia, Planisferi; Destombes, Mappemondes a.d. 1200-1500; Sutto, "L'image du monde"; Bagrow, History of Cartography; Broc, "Visions médiévales de la france"; Lecoq, "La mappemonde du Liber Floridus". Brincken, " Monumental Legends on Medieval Manuscript Maps"; P.D.A. Harvey, " Medieval maps"; wood-ward, " Medieval Mappaemundi,"

وهو يتضمن قائمة تسلسل زمنى بخرائط العالم الرئيسية فى العصور الوسطى، ٢٠٠-١٤٦٠ (٦٨-٢٥٩) وثبتاً ممتازاً بمراجع صناعة الخرائط فى العصور الوسطى (٧٠-٣٦٩):

P.D.A. Harvey, Medieval Maps; Russell, Inventing the Flat Earth; P.D.A. Harvey, Mappa Mundi. وهو وصف ونظرة أفق تاريخية لخريطة العالم الراهن توسع العمل الذى قام به Jancey, Mappa Mundi. فى وقت سابق جانسى.

Moir, The World of Hereford Cathedral; Fernandez-Armesto, Before Columbus; and Westerm, Discoveing New Worlds.

Augustine, *Cité de Dieu*, 16-18; Orosius, *Histoires*, 1.1.2; Isidore of Seville, (٩) *Etimologias*, 14.2; Brunetto, *Li Livres dou tresor*, 1.21, 121-24; and Albert the Great, see Nardi, *saggi di filosofia dantesca*, 63_72; and Beniamino Andriani, *Aspetti della Scienza in Dante*; For Dante's use of Albert, see Cioffari, "Dante's use of Lapidaries"; Vasoli, "Dante, Alberto Mango"; and Armour, "Dante e l'Imago mundi", 192.

(١٠) Martianus Capella, *De Nuptiis Mercurii*. انظر

تأتي P.D.A Harvey, *Mappa Mundi*, 30 وكل ما تبقى من خريطة العالم إيبستورف Ebstorf قياسات الخريطة من كتاب ١١ في القرن الثالث عشر - وقد استمدت هذا الاسم من إنها اكتشفت في عام ١٨٣٠ في سكن للراهبات في إيبستورف بألمانيا- هو النسخة المصورة فوتوغرافيا بالحجم الطبيعي التي تمت في عام ١٨٨٨ . والنسخة الأصلية ترجع الى الفترة ما بين ١٢٣٥-١٢٤٠ والفترة ١٢٨٠-١٢٩٠.

انظر: Woodward, "Medieval Mappaemundi", 307-14.

Freccero, Dante, 168 (١٢)

P.D.A. Harvey, *Mappa Mundi*, 29 (١٣)

Ibid., 3. (١٤)

Solinus's *Collectanea Rerum Memrabilium sive Polyhistori* is preserved in works (١٥) like Isidore of Seville of Seville's *Etymologiae* and Vincent of Beauvais's *peculum Naturale*.

Harvey, *Mappa Mundi*, 3 (١٦)

Le Goff, "Pourquoi le XIIIeme Siècle a-t-il été un siècle d'encyclopédisme?" (١٧)

(١٨) Langlois, *La connaissance de la nature*, 49-113. انظر

(١٩) في كتاب Commentarii in Somnium Scipionis, 2.5-9 يعلق ماكروبيوس على الفصل السادس من مقال شيشرون "Scipio's Dream" متناولاً الإمكانيات العلمية والفلسفية على السواء المتضمنة في نص شيشرون. ويتسم الفصل السادس العالم السفلي إلى مناطق جغرافية مع الشعوب التي ليست فيما بينها صلات.

(٢٠) William of Conches, *Glosae Super Platonem* : انظر

(٢١) انظر: Boffito, L'eresia degli Antipodi.

(٢٢) Woodward, "Medieval Mappaemundi," 304.

(٢٣) كتب أوغسطين: "إما أن ما هو مكتوب عن هذه الأجناس زائف، أو أنها ليست بشراً؛ أو - إذا كانت بشراً - فإنها من نسل آدم (Cité de Dieu, 16-8). ويشأن خرافة المخلوقات المضادة، انظر: Lecoq, La Mappemonde du Liber Floridus.

(٢٤) Albert the Great, De Natura Loci, 1.9,1.6.

(٢٥) See Tilmann, An Appraisal of the Geographical works of Albertus Magnus, 169.

(٢٦) Albert the Great, De Natura Loci, 3.5.

(٢٧) Ibid., 1.6, Albert the Great, The Book concerning the nature of Places, 54.

(٢٨) Albert the Great, De Natura Loci, 1.9-10.

(٢٩) Ibid., 1.6.

(٣٠) Augustine, Cité de Dieu, 16.9 (my translation)

(٣١) انظر: Pliny, Natural History, Book 7

(٣٢) "Quaeritur etiam, utrum ex filiis Noe vel potius ex illo uno homine unde etiam ipsi extiterunt propagata esse credendum sit quaedam monstrosa hominum genera, quae gentium narrat historia, sicut perhibentur" (Cité de Dieu, 16.8).

حيث إن ماري ب. كامبل Mary B. Campbell تتخذ وجهة نظر مختلفة عن تلك التي اقترحها ، فإنها تناقش أيضاً- وإن بصورة متعجلة- أوغسطين والأجناس المتوحشة في كتابها The Witness and the Other World، وهي تؤكد - بناء على مدينة الرب Cité de Dieu أن أوغسطين كان يؤمن فعلاً بوجود وحوش (انظر ص ٧٧). انظر أيضاً Friedman, The Monstrous Races 37-86، وقریباً من وجهة نظري وجهة نظر كلاينر Kleiner الذي يكتب في Mismapping the Underworld, 126 "يحذر أوغسطين قرار مدينة الرب أن لا يسيئوا تفسير هذه المخلوقات. وهو يصر على أنه سيكون منقبيل الجريمة أن نتخيل أن أشكالها المشوهة هي دليل على عدم كفاءة الرب".

(٣٣) Augustine, Cité de Dieu. 16.8 (my translation)

(٣٤) لا تزال المناقشة الأفضل - بفارق كبير- للتقاليد ولكانة أوغسطين فيها - هي كتاب Céard, La nature et le prodige وخاصة الصفحات ٢-٩٠. يذكر المؤلف سيار كتاب أرسطو Generatione Animalium, 4 cicero, De Divinatione, De Natura Deorum; Pliny, Natural History الكتاب السابع، لدعم هذه الاستنتاجات.

See Isidore of Seville, *Etimologias*, 11, and Lecouteux, *Les monstres dans la pensée médiévale européenne*, 10-12. For other discussions of the "monstrous" and the "wild," see Bernheimer, *wild Men in the Middle Ages*; Baudet, *Paradise on Earth*; Kappler, *Monstres*; and Meslin, *Le Merveilleux*.

Alain de Lille, In *Cantia Canticorum*, 53. (٣٦)

Les Monstres dans la pensée médiévale européenne, يقدم Lecouteux في كتابه: مناقشة ذكية للكيفية التي تمت بها عملية استيعاب هذه المادة في المخيلة الوسيطية ورد فعل الكنيسة إزاءها. انظر أيضاً:

Le Goff, "The Marvelous in the Medieval West," and Wittkower, "Marvels of the East".

Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale*, 92. Brunetto, *Li Livres dou tresor*, (٣٨) 1.131-99; Roy, "En marge du monde connu"; Gerard, *La nature et les prodiges*.

Ad Frates in Eremo, sermo 37, cols.1301-4. (٣٩)

Albert the Great, *De Natura Locis*, 1.7. (٤٠)

Ibid., 1.7, 1.12 (٤١)

Ibid., 1.7. (٤٢)

Ibid. (٤٣)

Isidore of Seville, *Etimologias*, 14.3; Rabanus Maurus, *De Universo*; Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale*, 63.24. (٤٤)

Aquinas, *Summa Theologica*, in *Opera Omnia* 2, 1.102.1-4. (٤٥)

Hugh of Saint-Victor, In *Ecclesiasten Homiliae* XIX, 156. (٤٦)

(٤٧) طور هذا التفسير كلاينز في كتابه *The theory of knowledge*

See Baron, *Science et sagesse*, 95. (٤٨)

See Hugh, *Eruditiones Didascalicae*, and Augustine, *De Doctrina Christiana*. (٤٩)

(٥٠) وضع هيو Hugh أيضاً كتاباً جغرافياً بالمعنى الحضري بعنوان *Descriptio Mappe Mundi* انظر أيضاً.

Schulz, "Jacobus de Barbari's View of Venice," 447.

Bonaventure, *Collationes in Hexaëmeron*, "Collatio XII", 14 (386) (my translation) (٥١)

Bonaventure, *Itinerarium Mentis in Deum*, 4 (my translation). (٥٢)

Bonaventure, *Collationes in Hexaëmeron*, "Collatio I", 11 (331) (my translation). (٥٣)

Bonaventure, , *Itinerarium Mentis in Deum*, Chaps 1,2. see also Gilson, *Philosophy of st Bonaventure*; Vasoli, "S. Bonaventura filosofo francescano"; Jallonghi, *Il misticismo Bonaventuriano: spargo, Category of the Aesthetic*; Caballero, *Transcendencia e inmanencia de Dios*; Vona, "Dante filosofo"; Corvino, *Bonaventura da bagnoregio*; and Hagman, "Dante's Vision of God". (٥٤)

Bonaventure, *Breviloquium*, 2.12.270 (٥٥)

see Vasoli, "s. Bonaventura filosofo francescano." (٥٦)

Albert the Great, *De Natura Locorum* (٥٧)

بشأن أدلة حول تأثير هذه التغيرات الفكرية على فكر القرن الرابع عشر.

انظر: Leff, *the Dissolution of the Medieval Outlook*, وبشأن أدلة ضد تحديات خاصة للرشدية، انظر: Aquinas, "On there Being only one Intellect".

. See Maranesi, *Verbum Inspiratum* (٥٨)

(٥٩) انظر Freccero, Dante, 176-77 وفيه يشرح هذه الفكرة ويضيف أنه في جسد الشيطان. "نزولاً" هو بالفعل "صعوداً" بمعايير الأبدية.

(٦٠) يطرح مقال Kirkham عن صورة السلم التقاليد التوراتية واللاموتية لهذه الصورة ويقدم الحجج عن دوره المنظم الجوهرى في المطهر، انظر. 235. *I quindici gradi*.

. Coleridge, *The Statesman's Manual*, 29. (٦١)

(٦٢) بشأن مناقشات لفهم أوغسطين للغة الرمزية في الكتاب المقدس، انظر: Jordan, *Words and Word*.

See Giuseppe Andriani, "La carta dialettologica d'italia secondo Dante", and (٦٣) Mori, "La geografia nell'opera di Dante, 289-92

See Mori, "La geografia nell'opera di Dante, 289-97. For descriptions and photos of these maps, see Gizzi, *L'astronomia nel poema sacro*, 2:109-16. For con-

temporary maps beginning with the 1320 " Planifero circolare annesso al tratta-
to. De Mapa Mundi di Fra Paolino Minorita, " see Almagia, Planisferi; and Tony
Campbell, " Portolan Charts", 459,460, in which he attributes seven maps to
pietro Vesconte prior to 1321.

Fallani, " Viaggio dantesco"; Casella, " Questioni di geografia dantesca"; Revelli, (٦٥)
L'Italia nella Divina Commedia, 57-73. Kimble, in Geography in the Middle Ages,
244, يفرد معرفة دانتي الفاهمة لمواقع أنهار العالم.

(٦٦) يذهب Boffitto في "L Opera di Dante"، ص ٢٤٤ إلى أن مؤلف Quaestio إيطالي. كذلك يذهب
Nardi في La caduta di Lucifero إلى حجج ضد تأليف دانتي هذا الكتاب. لكن انظر Mazzoni
204 La Questio de Aqua et terra، الذي يستنتج فيه أن دانتي هو مؤلف Quaestio، لكن انظر
أيضاً Mazzoni في "Il Punto sulla" الذي يؤكد فيه مرة أخرى إلتزام دانتي باتحاد مراكز مجالات
اليابسة والماء. كذلك يذهب Pasquazi في 121-56 D'egitto in Jerusalem، باتجاه تأييد
تأليف دانتي كتاب Quaestio

Albert the Great, De Natura Loci, 1.6 (٦٧)

Pecoraro, Le stelle di Dante, 110 (٦٨)

. Moore, " The Geography of Dante" (٦٩)

يقع جبل المطهر على الجهة المقابلة للجحيم، الذي يقع بدوره تماماً تحت القدس التي هي في مركز
خريطة الأرض. انظر خريطة Singleton في الجحيم ص ٦٤٠، وتقدم مقالة Nardi عن أسطورة عدن
عند دانتي أكثر الخلفيات أكاديمية لكافة النظريات الوسيطية (الشعبية واللاهوتية على السواء) حول
موقع عدن. انظر: Saggi di filosofia dantesca, 311-40، أيضاً: Boyde, Dante Philo-
mythes and Philosopher, 109-11

(٧٠) بيثير هوكنز Hawkins هذه النقطة في "Out Upon Cicumference"

Singleton, "n Exitu Israel de Aegypto"; Carol V. Kaske, " Mount Sinai and (٧١)
Dante's Mount Purgatory."

Mazzoni, "Dante ' misurator di mondi'," 25-53; Mazzotta, Dante's Vision, 102. (٧٢)

Mazzoni, "Dante ' misurator di mondi," 25-53 (٧٣)

(٧٤) كما أشار Tilmann يتناقض الكتاب الثالث من مؤلف ألبرت De Natura Loci تناقضاً فعلياً مع
الكتابين الأول والثاني فيه.

(٧٥) أوضح Renucci ماذا فى كتابه Dante disciple et juge 217-31، انظر أيضاً I Pizzani, "Monstra e Mirabilia." و I Armour, "Monstra nella cultura classica"

(٧٦) يناقش Kleiner فى 117-37 Mismatching the Underworld كائن الغريون باعتباره أعجوبة والصلة بين رمز دانتي للزيف وفن الشعر.

(٧٧) على الرغم من أن ستيسيلاس Ctesias يظهر لنا من خلال أعمال فوتيوس Photius فإنه يظهر لنا وقد تحول على يد كتاب آخرين أيضاً. انظر : Ctesias, La Perse, L'Inde و Histoire de l'Orient

(٧٨) كما يشير Peter Armour فى مقاله " 158 I Monstra e Mirabilia " فإن الجحيم له وحوشه وأعاجيبه ، إلا أنه فى المطهر والفردوس – نجد دانتي حقاً فيبلد العجائب. وفى الكوميديا ليست الأعاجيب هى تلك التى تورث من الماضى الوثنى. إنما هى غوامض المسيحية-الخلاص والافتداء اللذان يتكشفاً للحاج فى مسار رحلته.

(٧٩) انظر: White, Tropics of Discourse ,150-82

(٨٠) Ibid, 153-54

(٨١) كما يكتب White عن خطاة دانتي الذين أخضعوا العقل للشهوة " إذا كان هؤلاء الخطاة رجالاً متوحشين، يفتقرون إلى روح بشرية، كما عوقبوا فى جهنم، إنما- كالوحوش الوثنية فى قصيدة دانتي - فقد نصبوا حراساً على جهنم أو جلادين للخطاة الذين أرسلوا إلى جهنم " (المصدر نفسه، ١٦٥).

الفصل الثانى

الشرق فى العالم اللاتينى

هكذا ترك لياتى من مصر فائزاً

برؤية القدس ليتأملها

- الفريوس، ٥٥:٢٥-٥٦

خلال حياته شهد دانتي نهاية المملكة اللاتينية فى فلسطين. سقطت طرابلس فى عام ١٢٨٩، وعكا، آخر معقل للمملكة اللاتينية، تم اجتياحها فى عام ١٢٩١ (أشار إليها غيدو دا مونتفيليرتو^(١) فى الجحيم، ٨٥:٢٧-٩٠)، والممتلكات الفرنجية الباقية فى صيدا وصور وبيروت وحيفا وطرطوس وقلعة بيليران أخليت فى السنة ذاتها^(٢). وقد أدت تجنة الشهداء، وغيرها من البيانات المختلفة التى ظهرت فى الكوميديا عن الحملات الصليبية، بالباحثين إلى الإجماع على أن دانتي كان يشارك فى المعتقدات السياسية بشأن الأراضى المقدسة طابوراً طويلاً من البابوات والملوك الفرنسيين الذين كانوا يدعمون الحملات الصليبية لاستعادة هذه الأراضى^(٣). ولكن مقارنة التعارض بين قصيدة الحج لديه مع مسردات الحج - الصليبية تظهر أنه، وإن كان يستخدم لغة

(١) Guido Da Montefeltro (١٢٢٣-١٢٩٨) أعظم وأحكم زعماء الغيبيليين فى فلورنسا، كان يعد الأعداء عسكرياً فى إيطاليا كلها. بعد معارك مريرة مع البابا ومع خصومه طرد من الكنيسة، لكنه توفى فى دير للفرنسيسكان. (المترجم).

خطابية صليبية، فإنه لا يحتضن أهدافها العسكرية أو الجيوسياسية أو الجدالية. فهو إذ يأتي من مصر مجازية إلى القدس يتبين خطاب المسردات الصليبية والحجية ولكنه يستخدمها لينتقد إخفاق الغرب اللاتيني في الصعود إلى مستوى مثله العليا المعلنة. إن مسردة الصليبي الحجى يطلق جدالاً ضد الفساد الذى بالفعل يصادر "القدس" المجازية ويهدد الصعود إلى الرؤيا النهائية للسلام.

على خطى قناعاتهم الأدبية والخطابية تعتمد المسردات الحجية والصليبية على معارضة ثنائية. فهم يميزون بين أهل الداخل وأهل الخارج، المسيحيين و"الآخرين"، وكلامهما يشجبان العدو ويندبان الإخفاق المسيحى^(٣). إنهم يتبنون لغة الحج، دون التمييز الحديث بين الرحلة الدينية والحملة الصليبية^(٤). يؤكدون على المشاهد والعجائب التى ترى. ويعتمدون على قراءة أدبية للكتاب المقدس لدعم مزاعمهم النزاعة للقتال للاستيلاء على بلاد وعلى أشياء.

وعلى الرغم من أن الكوميديا تشاطر مسردات الحملات الصليبية والحج، مشيرة إلى الطريقة المختلفة التى يستخدمها دانتي فإن اعتقاداتها تبرز التباين المذهل فى التوجه نحو الشرق فى هذه الأعمال. إن المسردات الصليبية والحجية تصف رحلة هى فى أن واحد رسالة دينية ومطلب يقيم فروقاً صارخة بين أهل الداخل وأهل الخارج. وفى الحالتين فإن فكرة التجديد الروحى هى الدافع إلى الرحلة، والاثنتان خبرتان على عتبة الشعور تحركان البيئة الرهبانية للصلاة والتقشف، والغرض الدينى. وفى الأعمال التى كتبت بعد توسع الإسلام، هناك إما مواجهة خطابية ضمنية أو صريحة، أو مواجهة حقيقية مع ذلك الدين والناس الذين يمارسونه. وفى الغالب فإن المسردات الصليبية والحجية تثير، فى نقد ذاتى ضمنى أو صريح، مسألة ما الذى يشكل ارتداداً وماذا يكون مسيحياً، مشيرة إلى الإخفاقات الأخلاقية فى العالم المسيحى وإلى مشروعية حالات الاهتداء إلى المسيحية. وهذا النمط موجود أيضاً فى قصيدة دانتي ، التى يدان فيها المسيحيون بصورة أكثر تحديداً^(٥).

تضم المسردات الصليبية التي يرجح أن يكون دانتي قد عرفها التسلسل الزمني للأحداث (Chronicon) الذي كتبه وليام صور (William of Tyre) (المولود ١١٢٠)، في القدس، الذي كان كبير مطارنة صور من عام ١١٧٥ إلى ١١٨٤-١١٨٥: ومستشارا لملك القدس من ١١٧٤) أو صيغتها التي كتبها جاك دي فيتري Jacques de Vitry (المولود نحو ١١٦٠-المتوفى ١٢٤٠)، وهو راهب فرنسي أصبح مطراناً لصور في عام ١٢١٧ وبعد ذلك مطراناً للقدس. وإلى جانب أوصاف الأراضي المقدسة التي ظهرت في الأعمال الموسوعية مثل التاريخ الكنائسي Ecclesiastical History للمبجل بيدي Bede (ب) (نحو ٦٧٣-٧٣٥) الذي تضمن وصفاً مختصراً موضوعياً للأماكن المركزية في حياة المسيح (١٥:٥-١٧)^(٦) أو كتاب فينسان بوفيه التاريخ التأملی، Speculum Historiale الذي يروي تواريخ الحملات الصليبية حتى نحو عام ١٢٤٠، ومن المرجح بدرجة عالية أن دانتي عرف أعمال ريكولودو دا مونتيكروتشه Ricoldo Da Montecroce والفرانسيكاني فيدينزيو بادوا Fidenzio of Padua. ولعله قد عرف أيضاً مؤلف ثاديو نابلس Thaddeo of Naples، وكان شاهداً على سقوط صور، وقد كتب Hystoria de Civitatis Acconensis et Tocius Terre Sancte Desolacione et Conculcacione ,

في صورة رسالة في عام ١٢٩١. وفي هذا العمل يحض ثاديو المسيحيين على أن يهبوا لمساعدة الأراضي المقدسة، حيث شهد مذابح لا توصف، مثل انتحار النساء والعنف ضد الراهبات، حينما سقطت المدينة^(٧). وكان فيدينزيو بادوا عضواً نشطاً في مجلس ليون في عام ١٢٧٤، الذي اختتم بدعوة إلى حملة صليبية أخرى، وهي دعوة أيدها - كارهاً - بوناڤنتورا نفسه. كذلك فقد شهد فيدينزيو انهيار السلطة المسيحية في الأراضي المقدسة؛ رأى مدناً مسيحية تسقط ومسيحيين يؤخذون أسرى. ويرى

(ب) Venerable Bede لقب بالمبجل. كان راهباً إنكليزياً، وكان مؤرخاً وباحثاً، كتب أكثر من ثلاثين مؤلفاً في التاريخ وقواعد اللغة ولا يزال يعد مرجعاً للمعلومات التاريخية والأسطورية. (المترجم).

كتاب Liber Recuperationis terre sancte - الذى يصف البلاد بأنها موطن " أمم متباينة" - تاريخ كل الناس الذين يعيشون فى الأراضى المقدسة، من اليهود إلى الآشوريين والرومان والمسيحيين والعرب ثم المسيحيين مرة أخرى. ويتضمن هذا العمل بياناً عن حياة محمد، ويعزو معتقداته إلى نفوذ المذهب النسطورى^(٥) ، وينتهى إلى تبرير ونداء إلى المسيحيين بأن يعيدوا الاستيلاء على القدس. وعلى غرار مؤلفى المسردات الصليبية يلوم فيدينزو الشقاق المسيحى على فقدان الأراضى المقدسة. وهو يدين بشكل خاص المشاجرات بين أهل جنوا والبندقية وبيزا، والزهو والتفرق بين الفرسان الهيكليين^(٦) والهوسبتالييريين^(٧) والتوتونيين^(٨) وبالأخص إهمال البلاط الرومانى^(٩) .

ولكن أهم مصدر مظنون لدانتى هو الأب ريكولو دا مونتيكروتشه^(١٠)، وهو مواطن فلورنسى ولد حوالى عام ١٢٤٣ باسم ريكولو بنينو Pennino ودخل النظام الكنسى الدومينيكانى فى عام ١٢٦٧ فى سانتا ماريا نوفيللا، وهى كنيسة وساحة كان دانتى يرتادها كثيراً. وقد حاضر ريكولو مرات متقطعة هناك إلى أن سافر إلى أسيا فى عام ١٢٨٨ . وكان فى بغداد حينما سقطت عكا، وعاد من أسيا فى عام ١٣٠١، ووقتها أنتج مؤلفه الرئيسى عن الإسلام. وهو بحث ينم عن فهم متطور للمعتقدات والممارسات الدينية للمسلمين^(١١) . وهو أيضاً مؤلف كتاب Itinerarium

(ت) نسبة إلى نسطور (نسطورس) (٣٨٠-٤٥١) بطريرك القسطنطينية الذى دافع عن العقيدة القائلة بطبيعتين إلهية وإنسانية للمسيح. طرد من المجمع المقدس ورحل إلى فارس ثم إلى الصين وانتهى به المطاف فى مصر. وانتشرت النسطورية فى أنحاء شتى من الشرق، ولا تزال بعض معتقداتها قائمة فى الكنيسة المسيحية الشرقية. (المترجم).

(ث) يطلق عليهم أيضاً الداوية، وهم أيضاً المحامون وطلاب الحقوق (خاصة فى إنكلترا) (المترجم).

(ج) Hospitalirs أعضاء منظمة دينية - عسكرية قامت فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر (المترجم).

(ح) Teuton الجرمان أو الألمان القدامى (المترجم).

وهو بمثابة دليل للصليبيين والحجاج يصف الأماكن المقدسة، وكتاب تفنيد القرآن (Confutatio Al Corani) وكتاب دعوى ضد الأمم الشرقية (Libellus contra Nationes Orientales) وكتاب دعوى ضد أخطاء اليهود (Libellus contra Errores Judaeorum). وقد درس ريكولفو اللغة العربية وعاش لعدة سنوات في بغداد، حيث بشر (بالمسيحية) ونازع العقائد الدينية مع الباحثين العرب. ولكنه لم يشر بحملة صليبية كحل للخلافات الدينية، إنما بالأحرى فضل الحوار السلمي،^(١١) على النحو الذي يُظهر دانتى القديس فرانسيس يمارسه (الفردوس، ١١: ١٠٠-١٠٥). ومن المحتمل بدرجة عالية أن دانتى عرف ريكولفو أو سمع به أو قرأ عن خبراته "في حضور السلطان المزمور [الفردوس، ١١: ١٠١]."

في المسردات الصليبية والحجبة، التأكيد هو على الإبصار المادى. وفي الحقيقة فإن الغرض المركزى للأراضى المقدسة والحملات الصليبية هو استعادة الأرض وتأثرها المقدسة حتى يستطيع الحجاج أن يبصروا بأنفسهم أين وقعت الأحداث "المقدسة". إن خرائط الأراضى المقدسة سمة مركزية لهذا التأكيد على الإبصار المادى (مثلاً، خريطة بيترو فسكونتى فى أوائل القرن الرابع عشر فى Liber Secretorum Fidelium Crucis لمارينو سانودو^(١٢) أو فيدينزو بافودا Fedenzio of Pavoda فى كتابه Liber Recuperationis Terrae sanctae (الصادر فى عام ١٢٩١)^(١٣) . أن من عواقب هذا التأكيد المفرط على الإبصار المادى أن أوصاف الآثار المقدسة والأماكن والعجائب أصبحت سمة مركزية فى المسردات الصليبية. لقد أولى كثير انتباه للأشياء الثمينة (التحف الفنية الذهبية، مثلاً، وكذلك الأجزاء المكسورة من صليب حقيقى أو من رمح حقيقى)، التى يمكن رؤيتها أو حيازتها من مواجهة عسكرية ناجحة مع الثقافة

(خ) Marino Sanudo ولد نحو عام ١٢٦٠ . سياسى وجغرافى من البندقية عرف بمحاولاته لإحياء روح الحركة الصليبية وزخمها. وكانت مؤلفاته بمضمونها الجغرافى والسياسى بمثابة دليل للصليبيين فى محاولاتهم لاستعادة الأراضى المقدسة. (المترجم).

الإسلامية. وهكذا، شأن الأساطير ذات الوظائف الأتيولوجية (أى المتعلقة بتشخيص أسباب الأمراض)، فإن هذه المسردات تضع قائمة موجودات محددة من أحداث وقعت فى تاريخ مقدس وتدعم ادعاء بامتلاك أماكن معينة. إنها إنما تستخدم المقاربة الأدبية إلى التأويلات التوراتية لدعم دعاياتها.

الحملة الصليبية ورحلات الحج

كانت الصلة بين الحملات الصليبية والحج ضمنية منذ زمن إعلان قسطنطين المطالبة باسترجاع الأراضى المقدسة، لأن الأمن العسكرى للمنطقة كان جوهرياً للحفاظ على ممارسة شعائر تبجيل "الأماكن المقدسة"^(١٣). إن رسائل القديس جيروم حول قيمة مشاهدة الأماكن التى وقعت فيها الأحداث المقدسة قد أرست عادة الحج التى كانت قد بدأتها بالفعل أم قسطنطين فى القرن السابق^(١٤). وقد أكد جيروم قيمة "الإبصار" بمعنى الخبرة المادية كسمة مركزية للـ "رؤية"، كنتيجة لتأمل الأمر الذى من شأن إبصار الأماكن أن يشجع عليه^(١٥). إن "الفضاء المقدس" وخطابيات الأراضى المقدسة التى كان القديس قسطنطين يستخدمها خلال القرن الرابع، حينما أصبحت الإمبراطورية الرومانية "الإمبراطورية الرومانية المسيحية"^(١٦)، قد عادت تطفو على السطح إثر الحملات الصليبية، حينما أصبح العالم المسيحى اللاتينى حجة يجرى التجمع حولها للتغلب على النزعة الانقسامية فى المسيحية الأوروبية.

يهيمن التداخل بين أنسجة وظائف الدين والدولة على الخطابيات الصليبية: فقد استخدمت الكلمات *Iter* و *Expeditio* و *peregrinatio* كمتراادات. وتعنى كلمتا *Iter* و *Expeditio* "رحلة نحو غاية محددة"، ولكن *peregrinus* كلمة ذات تاريخ أكثر تعقيداً. فقد استخدمت بمعنى "غريب" أو "لا مواطن" أو "تائه" ممزوجة مع "الرحالة الدينى"، وهى استعارة يهودية - مسيحية نقدية؛ تستخدم فى النصوص المقدسة العبرية، وفى

العهد الجديد، واستخدمها الكتاب المسيحيون الأوائل. وهى مستخدمة فى العهد القديم اللاتينى بمعنى "غريب" أو "أجنبى" أو "مسافر"، أى بمعنى شخص يأتى من مكان آخر، فى تضاد مع معنى "مواطن". وفى العهد الجديد فإنها تعنى أيضاً "غريب" أو "تائه"، ولكن دلالة أعمق تلونها، لأن لها معنى الرحالة الدينى^(١٧) وثمة معنى ثالث، طوره أوغسطين هو "الغريب المسيحى"، موحياً بفكرة المنفى الإنسانى والتغرب بعد "عدن"، حيث أعضاء "مدينة الرب" يؤدون حجهم بين الاتقياء^(١٨). وتتداخل هاتان الدالتان، إذ يصبح المجاز تدريجياً الوسيلة لوصف حالة الاغتراب المسيحى فى رحلة حياته أو حياتها، من المنفى الرمزى إلى القدس الرمزية. وقد أصبح الحج بطريق البر (وبعد ذلك الحملة الصليبية) المجاز المرسل Synecdoche لرحلة الحياة هذه، فيما انصهر تقليد الحج فى النهاية مع تقليد الحملة الصليبية^(١٩). وهكذا - مثلاً - فى تسلسل الأحداث Chronicom فى هذا الجانب الذى يمثل تماماً مسردات حملة صليبية أخرى، يدعو وليام صور الحملة الصليبية الأولى حجاً، ويشير طوال الوقت إلى الصليبيين على أنهم حجاج. إن غاية الحج هى الاستيلاء على القدس. وفى حين أن القدس هى عند القديس جيروم والقديس أوغسطين هى المدينة العلوية، المجازية، والرحلة إليها هى رحلة الحياة، فإنه بحلول القرن الثانى عشر، فى النصوص الصليبية الجدالية، القدس هى غاية الحاج وقد تحول إلى صليبي. بحلول القرن الثانى عشر أصبحت كلمة perigrinus تشير إلى الصليبي والحاج^(٢٠).

فى سماء المريخ يقدم دانتي مفتاحاً إلى قراعه الخاصة للمسردات الصليبية والتاريخ الصليبي. على وجه التحديد، فى الفردوس، الأنشودات من ١٥ إلى ١٨، حينما يذكر الشهداء المصاحبين ككاشياغويدا^(د) Cacciaguida يتعرف على جوشوا وجوداس

(د) جد أعظم لجد دانتي . لا نعرف شيئاً عن حياته سوى ما يذكر دانتي أنه سمعه فى سماء المريخ، وكان قد تبع الإمبراطور كونراد الثالث إلى الحملة الصليبية الثانية ونصّب هذا فارساً. وقتل فى معركة ضد المسلمين فى نحو عام ١١٤٧ (الترجم).

ماكابيوس، شارلمان ورولان، وليام ورينووار Renoart، وغودفري بويون وروبير جيسكار. الثنائى الأول توراتى، والثانى مشهور فى أغنية رولان^(د) Chanson de Roland، والثالث فى دائرة وليام أورانج، الصيغة الأشهر بينها هى أليسكان Aliscan، وهى ملحمة فرنسية، مثلها مثل أغنية رولان تدور فى أوروبا. ومن الواضح أن دانتي على معرفة بهذه المسردات حيث أنه يأخذ منها بعض الشخصيات. وهى تشارك فى الخطابية الدينية والسياسية والجو القتالى للأدب الصليبي الآخر. إن حياة جيفرى بويون Godfrey of Bouillon أول ملك مسيحي للقدس، محكية فى كافة تسلسلات أحداث الحرب الصليبية الأولى، بما فى ذلك تسلسل الأحداث الذى كتبه وليام الصورى وفى Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum مصدر كل مروى عن الحملة الصليبية الأولى. وحيث إن كاشياغويدا يذكر كونراد الثالث فإن من الممكن أيضاً أن يكون دانتي قد تعرف على كتاب أودو دو دويل Profectione Ludovici VII in Orientem أفضل بيان معاصر عن الحملة الصليبية الثانية الكارثية. ويدخل فى كتاب Cronica^(٢١) لجيوفانى فيلانى Giovanni Villani (المتوفى عام ١٣٤٨) تاريخ روبرت جيسكار، وهو نورماندى من القرن الحادى عشر اشتهر بسبب حملته فى جنوب إيطاليا وصقلية حيث تغلب على الانقسامية فى المنطقة وأقام منطقة موحدة وإن تكن متنوعة عرقياً (يونانيون، وعرب ولومبارديون ونورمانديون وما إلى ذلك). وحفاظاً على التعريف المعاصر للحملة الصليبية فإن اختيار دانتي المحدد للشهداء الصليبيين فى الفردوس لا يقتصر على أولئك الذين كانوا نشطين فى الأراضى المقدسة. وفى هذه المجموعة أيضاً فإنه يضم الأشخاص الذين ارتبطوا بإضفاء السلام على البلاد المسيحية فى الغرب اللاتينى.

(د) رولان (أو أورلاندو) أشهر أنصار شارلمان فى روايات العصور الوسطى. وأغنية رولان أغنية فرنسية يُعتقد أنها كتبت فى منتصف القرن الحادى عشر فى مقاطعة بريتانى، وكانت تتألف من ٤٠٠٢ بيتاً وهى تتحدث عن المعارك التى خاضها حين غزا رولان إسبانيا ثم انتصار شارلمان فى سرفوسة حيث كان رولان قد مُزِم على يد المسلمين، (المترجم).

ولأنه كان معروفاً في كل قلعة وفي كل مدينة كبيرة في أوروبا فإن مصدراً محتملاً لدانتى عن تاريخ الحروب الصليبية كان تسلسل الأحداث^(٢٢) الذى كتبه وليام لقد كان ماثيو باريس (١٢٠٠ - ١٢٥٩) قد نقله (فى كتابه التاريخ الصغير Historia Minor، ١٢٣١ الأمر الذى يشير فى ملحوظة على الهامش إلى أن المؤلف كان يحوز نسخة من مؤلف وليام، وكذلك نقله جاك دوفيتري، الذى استخدم كتاباً مفقوداً بعنوان Gesta Orientalem Principium بالمثل^(٢٣) . أما مؤلف وليام فقد وجد طريقه إلى العامة وعلى الأقل فإن واحدة وسبعين مخطوطة من ترجمة فرنسية للتاريخ لا تزال باقية^(٢٤) . كذلك فقد أعيدت ترجمة صيغة فرنسية إلى اللاتينية على يد الدومنيكاني فرانسيسكوس بيبينوس Fransiscos Pipinus من بولونيا فى القرن الرابع عشر. وكون دانتى يقدم صلاح الدين كقائد نموذجى وجيفرى بويون كرجل يتسم بشجاعة وإخلاص دينيين، تماماً مثلما فى صيغ وليام، لدليل قوى على أنه عرف مؤلف وليام^(٢٥). ومثله مثل وليام لا "يمشرق" الشرق التجربى (الإمبريقى) باعتباره موقع الحيوانات والنباتات الغريبة والأحجار الكريمة. أما جاك دوفيتري على النقيض من ذلك - وهو الذى كتب تاريخاً موجزاً للقدس (Historia Hierosolimitana Abbreviata)، حوالى ١٢٢١) أدمجه فى تاريخ فرنسى للشرق (Historia orientalis) وتاريخ الغرب (Historia Occidentalis) - فإنه يزودنا بالخلفية الأبرى عن الحملات الصليبية. يبدأ جاك دوفيتري بمحمد وديانته؛ ويحكى الحملات الصليبية من الأولى إلى الثالثة؛ ويصف البلاد والناس والحيوانات والزهور فى شرق البحر الأبيض المتوسط؛ ويضم مادة غرائبية. بعد وصف للناس يتحول تاريخ الشرق نحو فساد رجال الدين الغربيين وإخفاقهم فى العيش وفقاً لقواعدهم، وهى عادة يعزوها جاك دوفيتري إلى رخاء بلاد الشرق. وفى الختام يصف "عجائب" الأشياء الطبيعية المحيطة فى الأراضى المقدسة وما وراءها، حاكياً عن التناين ووحيدى القرن والحيات والأحجار الكريمة والكائنات الخنثوية. كذلك يستخدم مؤلفات فوشيه شارتر Foucher of Chartres وإيزيدور وبصورة أساسية نسخاً من أوصاف وليام للأراضى المقدسة وتاريخها. وقد استخدم تاريخ الشرق كل

من ماثيو بارس ومارينو سانودو وبيترو دى بينا، وهكذا أصبحت هذه المادة منتشرة على نطاق واسع فى عدد من المصادر^(٢٦).

تشارك أوصاف مواقع الأراضى المقدسة فى مسردات الصليبيين والحج فى كثير من السمات. ويسبب الاهتمام بالمواقع الفعلية حيث يقال إن أحداث الكتاب المقدس قد وقعت، فإن المستوى الأدبى للتوراة والصدق التاريخى فى هذه الأعمال يأخذ أسبقية على التفسيرات الرمزية. وكما لاحظنا من قبل فإن بها تأكيداً مفرطاً على الإبصار، وهو ما بدا فى الحقبة البطركية للكنيسة. وعلى سبيل المثال يكتب القديس جيروم " أن ذلك الذى رأى يهودا Judaea بأى عينيه سيحملق بوضوح أكثر فى الكتاب المقدس" ^(٢٧) .

كذلك فإن لهذه المسردات وظيفة خطابية لأنها تقوم بدور مسردات دعائية للملكية المسيحية للبلاد، وفى أحسن الأحوال تذكر معلومات دقيقة عن الإسلام، لكنها مع ذلك تفقد مشروعيتها. لكن هذه السمة تدخل فى تضاد متوتر مع وظيفتها المتعلقة بإيضاح التفاوت بين الأهداف الدينية المعترف بها للحملات الصليبية - الحج والسلوك الفعلى للصليبيين. وفى الحقيقة كان كثير من مسردات الحج الوسيطية يحكى سلباً تعارضاً بين المسيحيين الذين يسعون لامتلاك البلاد وما يسمى العدو.

إن تسلسل الأحداث الذى كتبه وليام - وهو أكثر أعمال تلك الفترة تطوراً- يصف سمات معينة للمسردات الصليبية. يبدأ وليام تاريخه بإعلان أن محمداً (الابن البكر للشيطان) قد غوى بلاد العرب^(٢٨) . وعند وليام أن الحملة الصليبية الأولى كانت حجاً، بدأه البابا أوربان بدعوته الدينية (التي يضمناها فى كتابه). وهو يصف الخصائص المميزة للمشاركين فيها بأنهم قد انخرطوا فى تجربة تأملية مشتركة، انفصل فيها أزواج عن زوجاتهم وأبنائهم وأبائهم، ولم تكن أى رابطة عاطفية تقوم دليلاً ضد هذا الحماس". ويكتب وليام عن خطبة أوربان " هذا الحماس المشبوب بالعاطفة للحج، لم يؤثر فقط فى أولئك الذين أنصتوا إلى كلماته الفعلية... إنما ألهم حتى أولئك الذين لم

يكونوا حاضرين برغبة حارقة فى القيام بالرحلة ذاتها^(٢٩) . ويحكى الاستيلاء المبذول مجدداً على القدس من قبل المسيحيين، ثم فقدانها لقوات صلاح الدين فى أعقاب ذلك فى عام ١١٨٧، فيصف الأماكن التى وقعت فيها الأحداث المقدسة. وهكذا فإنه يطلق زعماً بشأن هذه الأرض عن طريق تأويل للكتاب المقدس. وعلى الرغم من أنه جرياً على تقليد لأوغسطين يتجاهل قصص الوحوش والعجائب، فإنه يؤكد أن النزوع للأذى لدى المسيحيين كان مسؤولاً عن الإخفاق فى الأراضي المقدسة.

كذلك فإن أغنية رولان وأليسكان - وهما عملان يستمد دانتى منهما مباشرة بعض الشخصيات - يستخدمان أيضاً الاعتراضات الخطابية والثنائية للمسردات الصليبية. وفى كلتا الملحمتين، القتال ضد السراسنة^(د) هو محور الانتباه وهدف الأبطال هو "استعادة" الأرض. والمسلمون الخيرون الوحيدون هم الذين تحولوا إلى مسيحيين - على سبيل المثال براميموندى Bramimundi فى أغنية رولان ورينووار فى أليسكان. مع ذلك فإن أغنية رولان تنتقد الجانب المسيحى أيضاً (مؤامرة غانيلون الناجحة لتدمير النبلاء الاثنى عشر تفضى إلى ضعف الفرنسيين فى مواجهة العدو)، وهى تشير إلى العملية القانونية وليس إلى المواجهة القتالية باعتبارها الحل الأفضل للصراع بين المسيحيين^(٣٠) . مع ذلك، تصف القصيدة العنف باعتباره الآلية الرئيسية لبناء الدولة الفرنسية البازغة^(٣١).

إن أغنية رولان فى جوهرها ملحمة شبه شفهية تحتفى بتدخل الرب لصالح القوات الكارولنغية بعد هزيمة النبلاء الاثنى عشر. وشأنها شأن المسردات الصليبية تستخدم المستوى الأدبى للتوراة لدعم مزاعمها عن التدخل الإلهى. إنها إذ تستدعى

(ر) Saracens أى المسلمون . وقبل ظهور الإسلام كان هذا المصطلح يستخدم من قبل شعوب الشرق الأوسط غير العربية للإشارة إلى العرب، وبعده أصبح مرادفاً للمسلمين. وأصل المصطلح لا يزال غير معروف للمؤرخين واللغويين. (المترجم).

فعل الرب فى انتصار يهوشع^(٣٢) تفترض صوابية قضيتها الخاصة^(٣٣) *Pein unt tort e chrestiens unt dreit*، حتى وهى تبالغ فى إخفاقات المسلمين، الذين تصفهم بأنهم عبدة أصنام جبناء ومخادعون، ومثل هذا الربط بين المسلمين وعبادة الأصنام

"Mawnets" (اسم محرف مشتق من اسم محمد، يشير إلى الأصنام بوجه عام) كان واسع الانتشار كما يشير مايكل كاميل *Camille*، وعلى الرغم من أن المسلمين، تماماً كما اليهود، متشددون بشأن التحريم الإلهى ضد الصورة المحفورة^(٣٤). وتؤكد الآثار المقدسة قضية شارلمان، فى حين أن الأصنام المسلمة المخترعة تظهر عديمة الحيلة^(٣٥).

وفى أليسان ، فإن رينووار، وهو أسير عربى *païen* اشتراه الملك من التجار، يحول حملته الصليبية ضد العرب فى فرنسا إلى حج يفضى إلى تحوله فى النهاية، إذ يتبرأ من أخيه وأمه وشعبه والدين الذى ولد عليه. وفى صراع مع أخيه يُطلب من رينووار أن يعود إلى دين آبائه وعبادة "لوسيايل" ومحمد^(٣٦) - فى تأكيد من جديد للرابطة بين الإسلام والوثنية- ولكنه يرفض. ويظهر المسيحيون الذين يسخرون من رينووار باعتبارهم صغاراً انقساميين وقساة. وإذا يردد رينووار ترتيلاً عن تدخل إلهى فى الشؤون البشرية، من آدم إلى أسانسيون *Ascension*، ويتوسل رينووار من أجل مساعدة مماثلة فى معركته ضد أتباع "ماهون"^(٣٧). وبحلول نهاية الملحمة، وفى قصة استيعاب ثقافى ناجح تعادل قصة وليام، هزم رينووار القوات العربية وارتد إلى المسيحية، ليصبح وكيلاً إقطاعياً لوليام ويتزوج أليس ابنة الملك.

هذه المسردات والملاحم الصليبية الفرنسية - التى استمدت معلوماتها من مقارنة أدبية للتفسير التوراتى المستخدم لدعم طموحات جيوسياسية - تبرهن على بزوغ نزعة قومية فرنسية، ثقافية وسياسية، إلى جانب خواف من الأجنبى. وأهم من هذا بالنسبة لدانتى، فى أفراد المسلمين المرتدين إلى المسيحية كشخصيات نموذجية على النقيض

من المسيحيين الفاشلين، فإن أغنيات الماثر تركز الجدل الصليبي على الغرب اللاتيني، حيث يُكشف عن المسيحيين الرسميين باعتبارهم انقساميين ومخادعين أما المرتدون عن الإسلام إلى المسيحية فهم أبطال.

الكوميديا والخطابية الصليبية

يفعل دانتي أكثر من هذا لكي يربط قصيدته بالمسردات الصليبية - الحجية. إنه يشاطرهم أيضاً أهدافهم ويتبنى لغتهم^(٢٨). يستخدم كلمة Pellegrino - حاج^(٢٩) - تسع مرات، وهو عدد له دلالاته، ست مرات في المطهر (المطهر، ٦١:٢-٦٣، ٤:٨، ١٦:٩-١٧، ١٣:٩٤-٩٦، ١٦:٢٣، ١١٠:٢٧) وثلاث مرات في الفردوس - بعبارات متنوعة - وهو، مع ذلك، يعزف عن الاهتمام بالأهداف المكانية - العسكرية - الجغرافية للحجاج الصليبيين التقليديين. والتسعة - بطبيعة الحال - هي رقم بياتريس: "كانت تسعة، أى كانت معجزة، جذرها - يعنى - معجزة، هي الثالوث الإعجازى وحدة" [الحياة الجديدة: Vita Nuova-9، (٣٠): ٤] ويضعنا دانتي - باستخدام هذا العدد - في حالة تأهب إزاء معنى خاص كامن. ففي الكوميديا يستخدم دانتي غالباً التسعة كمضاعف للثلاثة (الثالوث) ليعنى الإعجازى بوجه عام^(٤٠). والإشارات الست إلى الحج في المطهر مقابل الإشارات الثلاث في الفردوس تقدم توازياً عددياً، كما لو أن الست الأولى هي "حجّات" والثلاث في الفردوس تجعل عددها كاملاً.

ويذكرنا استعمال دانتي الشائع غالباً للفظه حاج- كتشبيه أو كمجاز- بتجارب الحجّات الدينية؛ إذ يمثل هذا الاستعمال محاولة لتركيب تجربة الرحلة الخلاصية للحاج دانتي وفيرجيل والأرواح في المطهر. يجعل دانتي من رحلة العالم الآخر عبر "المطهر" بديلاً عن الحجّات التقليدية، وهي عودة ذات دلالة إلى الفكرة التوراتية عن البشر كغرباء في العالم. ويشير فيرجيل إلى دانتي وإلى نفسه - مثل أولئك الذين يقابلهم في المطهر - على أنهما حاجان، ولكنه أيضاً يعرف الحاج في هذا السياق: شخص يسافر

ولكنه ليس خبيراً بالرحلة. يقول أحد التائبين - مساوياً الحج و"العيش" ذاته - : أه يا أخى، كل واحد هنا مواطن لمدينة حقيقية: ولكنك تعنى واحداً عاش فى إيطاليا مقيماً مؤقتاً حاجاً [المطهر، ٩٤: ٩٦-٩٧] هذا - ولا يكاد يكون من الضرورى أن نشير - لاهوت أوغسطينى تقليدى^(٤١)، ولكن استخدام دانتي يتخذ دلالة إضافية حينما يوضع فى سياق الكتابات الصليبية - الحجية لتلك الفترة. إذ يطبق دانتي - إلى جانب استيعابه الفكرة الأوغسطينية عن الخبرة الإنسانية باعتبارها حجاً - لغة الحاج والمسردات الصليبية على رحلته الخاصة إلى العالم الآخر.

ترد كلمة حاج على وجه التحديد ثلاث مرات فى الفردوس، ولكل مناسبة وظيفة فريدة. يصف ظهورها للمرة الأولى الأسلوب المجازى فى القصيدة الغنائية الثالثة^(٤٢):

"وكما ينعكس حتى شعاع ثان من شعاع أول، ويتصاعد لأعلى مجدداً، مثل حاج يتوق إلى طريق العودة لموطنه، هكذا انعكس فعلى من فعلها الذى تغلغل خلال عيني إلى مخيلتي، وثبت عيني على الشمس لأكثر من احتمالهما".

[الفردوس، ١٠: ٤٩-٥٤]

وعبارة "لأكثر من احتمالهما" هى مفتاح هذا التشبيه، لأن الظروف الخاصة تجعل من الممكن لدانتي أن ينظر مباشرة إلى الشمس. وهذا الفعل أشبه بحاج يعود إلى موطنه. وهنا فإن لفظة *pelegrin* تعنى بالتأكيد الحاج الذى يريد العودة إلى الرب. وفى ظهورها الثانى تشير إلى روميرو *Romero* "الضارب فى الأرض والحاج، الذى من أجله فعل ذلك". [الفردوس، ١٣٤: ٦-١٣٥]، والذى كخادم للقوى سعى إلى حل الصراعات الأوروبية بين النبلاء عن طريق عقد زيجات سياسية. إن حياته العملية - التى يشير دانتي إليها بوصفه بأنه حاج - توازى حياة دانتي نفسه: كلاهما كانا خادمين مخلصين لقياً معاملة قاسية فى مقابل جهودهما. وفى الإشارة الأخيرة - قرب نهاية الصعود - يشير إلى نفسه بأنه تماماً مثل حاج:

ومثل حاج ينتعش وهو يتأمل هيكل نذره، على أمل أن يبلغ

ذات يوم عن الحال التى كان عليها،

وهكذا كنت أرنو بعينى عبر الضوء الحى

على طول الطبقات، مرة لأعلى ومرة لأسفل

ومرة أدور بينهما .

[الفردوس، ٤٣:٣١-٤٨]

وعلى الرغم من أن دانتى يتطلع إلى رحلته عبر العالم الآخر باعتبارها حجاً، فإنه لا ينكر قوة تأثير رحلة التفكير إلى الأماكن المقدسة. مع ذلك فإنه يستبدل الخبرة المادية للرؤية، المقاربة الأدبية للنصوص التوراتية والأماكن التى ترتبط بها، بخبرة بديلة ورؤيا بديلة، على نحو ما يفعل أوغسطين والفكثوريين ويونافنتورا. إن رحلة دانتى الرؤيوية تجمع النزعة الأدبية، وفى تقاليد يونافنتورا فى كتابه *Itinerarium Mentis in Deum*، الذى يصف رحلة داخلنا وفوقنا، يستعويض عن رحلة مجازية بالحج الأدبى^(٤٣). إن "العلاج المكانى" الذى يقدمه هو بالفعل علاج مكانى - رحلة خارج الفضاء الجغرافى إلى فضاء المخيلة الرؤيوية، التى لها مزاعمها الخاصة فى الواقع. وفى الحقيقة فإن قصيدة دانتى ربما تطرح أقوى حجة على الإطلاق لصالح قيمة الرحلة الأدبية، لأن قصيدته، باعتبارها فضاء النص، تصبح تجربة توبته الشخصية ورحلته إلى رؤيا السلام، بينما تقدم الفرصة ذاتها لقرائه^(٤٤).

وعلى غرار *pelligrino* فإن لفظة *milizia* الجيش تعبير آخر يستعمله دانتى من النصوص الصليبية. إنه يستعملها تسع مرات فى الفردوس ومرة فى المطهر حينما

يشير إلى موكب ممثلى التاريخ العالمى اليهودى المسيحى، "الجيش الرائع" [الفردوس، ١٧:٣٢] باعتباره "جند المملكة العلوية" [الفردوس، ٢٢:٣٢]

وتمشيًا مع التخيل البطرسي، حيث لفظة militia ("الخدمة العسكرية") لمذهب التعميد ووصف الحياة المسيحية، يستعمل دانتي militia مجازًا للحياة ذاتها باعتبارها حملة صليبية "قبل أن تترك زمناك فى الحرب" [الفردوس، ١١٧:٥] إن أولئك الذين يعيشون بنجاح حياة مسيحية ومن ثم يأتون إلى السماء هم أيضاً "الجند الذين اتبعوا خطى بطرس" [الفردوس ١٤١:٩] ؛ "حينما يكون الإمبراطور الذى يحكم أبدياً قد تفكر فى جنده [الفردوس، ٤٠:١٢-٤١]؛ "يا جند السماء" [الفردوس، ١٨:١٢٤]؛ "جيش الفردوس" [الفردوس، ٤٣:٣٠-٤٤] ؛ و "الجيش المقدس" [الفردوس، ٢١:٣١]. واستخدام دانتي مصطلح الجيش للدلالة على المختارين الذين حاربوا فى حياة من أجل الحقيقة المسيحية لا يشير إلى حرب يدعمها المسيحيون وفقاً للتقليد الصليبي القسطنطيني-الكاروليني. الأخرى أنه يشير إلى أولئك الذين كرسوا حياتهم تماماً للحياة المسيحية، حتى الوصول إلى الموت - "الجند الذين اتبعوا خطى بطرس" - وهو يتضمن الصراع ضد الهرطقة. إن فولكو وسان دومينيك - وهما عضوان فى جيش دانتي، كلاهما حارباً ضد الهرطقة. وهو يشير إلى سان دومينيك وسان فرانسيس باعتبارهما "بطلين" - أختارهما الإمبراطور الأبدى لتجميع الجيش للتشجيع "جيش المسيح" [الفردوس، ١٢:٤١-٣٧] لكى يرفعا الصليب لأعلى ويتبعوا المسيح [الفردوس، ١٤:١٠٦]. يخصص دانتي لغة صليبية، ولكنه يطبقها على رحلة الحياة أو معركتها ضد أعداء المسيح ويحول الطابور السماوى إلى جيش مسيحى.

الإسلام فى الكوميديا

بالفعل ربما لأن الإسلام نما وازدهر داخل الحدود الجغرافية للعالم الرومانى - المسيحى السابق، يعتبره دانتي - تمشيًا مع المسيحية الوسيطية الأصلانية

(الأورثوذكسية) - انشقاقا [الجحيم، ٢٨:٣٥] عن المسيحية. لكن هذا الاعتقاد لا يفضى به إلى تبني حملة صليبية عسكرية. وعلى الرغم من أنه يشاطر وجهات النظر التقليدية في الإسلام مع غيره من الشخصيات المثقفة في تلك الفترة، إلا أنه يرفض الحجج الصليبية المثارة في الدوائر الكنسية والسياسية الوسيطة الفرنسية. وسأذهب من جانبي إلى أن المواقف الوسيطة تجاه الإسلام قد تراوحت كثيراً: من هجمات لاذعة ضد مؤسسه وأتباعه نجدها في كتاب جاك دوفيتري تاريخ الشرق Historia Orientalis، إلى الموضوعية غير الحقيقية عند توما الأكويني. وتظهر بصورة جلية المقاربات "الواسعة المعلومات والمثقفة" عن محمد في هذه الملاحظات لتوما الأكويني في الموجز ضد غير اليهود Summa contra Gentiles:

"محمد... ضلل الناس بوعود بمتعة جسدية تدفعنا نحوها شهوة الجسد. كذلك فقد احتوت تعاليمه تصورات كانت مطابقة لوعوده، فأعطى سيطرة كاملة للمتعة الجسدية. في هذا كله - وهو أمر ليس من غير المتوقع - كان يطيعه رجال شهوانيون. أما عن أدلته تأييداً لمذهبه، فإنه لم يضع أمامنا إلا ما يمكن أن يفهم فحسب بواسطة القدرة الطبيعية لأي شخص يتمتع بأكثر درجات الحكمة تواضعاً. وفي الحقيقة فإن الحقائق التي علمها قد مزجها مع أساطير كثيرة ومع مذاهب على قدر كبير من الزيف. لم يقدم أية علامات أنتجت بطريقة خارقة للطبيعة، وهي وحدها التي تعطى بصورة مناسبة شهادة على وحى إلهي؛ ذلك أن فعلاً مرئياً يمكن أن يكون إلهياً فحسب يكشف عن معلّم للحقيقة ذي إلهام غير مرئي. وعلى النقيض فإن محمداً قال أنه بعث بقوة أسلحته - وهما

علامتان لا يفتقر إليهما حتى اللصوص والطفاة. أكثر من هذا فإن رجالاً يتسمون بالحكمة ، رجالاً مدربين على أمور إلهية وإنسانية لم يؤمنوا به منذ البداية. أولئك الذين آمنوا به كانوا رجالاً قساة ومن التائهين فى الصحراء، يجهلون تماماً كل تعاليم إلهية، ويفعل أعدادهم أجبر محمد آخرين على أن يصبحوا أتباعاً له بعنف أسلحته." (٤٥)

وهكذا، وكما تدل ملاحظات توما، مثل محمد ودينه الذى تطور من حياته العملية تحدياً للمثل العليا والمعتقدات الأصلانية المسيحية. أولاً كان الوضع المميز للعزوبة فى التقليد المسيحى، الذى تلى عنه محمد. ثانياً، وحسب ما يقول توما، لم ترتبط أية معجزات بحياة محمد العملية على النقيض من حياة يسوع. مع ذلك فإن مفكرين مسيحيين كثيرين نظروا إلى الإسلام على أنه ظل للمسيحية. كلاهما تشكل فى الوطن الجغرافى ذاته، مع الجذور الهيلينية - العبرانية. كلاهما ديارتان موحدتان مبنيتان على النصوص؛ احتلا فى الأصل المناطق ذاتها أو المتاخمة لها. وكلاهما إنجيليتان تبشيريتان. (٤٦) غير أن الإسلام مثل تحديين حاسمين لصيغة المسيحية اللاتينية التى يسيطر عليها الكنسيون: ألوهية المسيح والعزوبة كمثال أعلى (٤٧). هذه الاختلافات، بالإضافة إلى الزعم بأنه "استخدام فى فرض الدخول فى العقيدة" وربط الإسلام بما يشير إليه توما بطريقة الذم على أنهم "التائهون فى الصحراء" قد أصبحت أساساً بحثياً لتحديد الخطوط الفاصلة بين أهل الداخل المتحضرين (المسيحيين) وأهل الخارج القساة (السراسنة أو المسلمين).

وعلى الرغم من هذه الشواغل اللاهوتية والسياسية بشأن الإسلام ، فإن تأثير الثقافة العربية على التطور الغربى - وإن كان قد تم تجاهله غالباً - كان مذهباً. ففي الحقيقة كانت التعاليم والثقافة الإسلامية واسعة الانتشار بين المثقفين المسيحيين الوسيطيين إلى حد أن باحثين كثيرين أقاموا الحجج المقنعة على نفوذ الفلسفة والأدب الإسلاميين على الكوميديا. وتبقى هناك - فى الواقع - قناعة ملحة بأن دانتي قد عرف كتاب المعراج وتأثر به، وهو الكتاب الذى يحكى رحلة محمد إلى العالم الآخر^(٤٨). وكتاب المعراج مؤلف عربى ترجم إلى اللغة القشتالية فى بلاط ألفونسو العاشر (الحكيم) وأعيدت ترجمته إلى اللاتينية من قبل بوناڤنتورا سينا، وهو صديق لبرونيتو لاتيني، ثم إلى الفرنسية فى وقت مبكر يرجع إلى عام ١٢٦٤^(٤٩). وله خطوط متوازية كثيرة مع الكوميديا. كلاهما كتباً بالعامية - ومن هنا شعبيتها - وكلاهما عملان أدبيان - دينيان حول رؤى الآخرة. وكتاب المعراج مسردة عن رحلة على لسان المتكلم تصف مباهاج السماء وعقوبات جهنم. وفيه لمحمد مرشد هو الملاك جبريل. وتؤكد الرواية على عجائب الجنة، بما فى ذلك أحجار الزمرد واللؤلؤ والذهب والفضة. بالإضافة إلى هذا فإن أوجه تماثل أخرى كثيرة يمكن ملاحظتها بين المؤلفين، بما فى ذلك المعالجة الرمزية للضوء والنبوءات من العالم الآخر، ومراتب الجنة وجهنم^(٥٠) - وهى سمات يشاطرانها مع الرؤى التوراتية مثل "سفر دانيال"^(٥١) و"سفر الرؤيا ليوحنا"^(٥٢). لكن ، هنا تنتهى خطوط التوازي، لأن عمل دانتي عمل شعري، مغموس فى شعر روماني قديم وفى لاهوت آباء الكنيسة ولاهوت العصور الوسطى. وعلى النقيض منه فإن كتاب المعراج عمل نثرى يفتقر إلى أداة لاهوتية - أدبية موسعة.

(ز) سفر دانيال، السفر السابع والعشرون من العهد القديم، ويعود بتاريخه إلى القرن السادس ق.م. كما يتضمن أحداثاً كثيرة عاصرها النبي دانيال ومجموعة من النبوءات عن المستقبل، تتعلق بالإمبراطوريات التى "لا بد أن تقوم" فى القرن التالية. وتنبأ أيضاً بمجىء المسيح المخلص. (المترجم).

(س) سفر "الرؤيا" ليوحنا يعود إلى القرن الأول الميلادى. (المترجم).

ولقد أمكن لدانتى - ليحصل على معلومات صحيحة عن الإسلام من مصدر آخر غير توما الأكوينى - أن يتجه إلى وليام صور وريكولدو دا مونتيكروتشه بشأن التاريخ، وإلى فينسان بوفيه وبرونيتو لاتينى كمرجعين جاهزين. واستطاع أن يستشير - كخبير - بيتر المبجل Peter the Venerable الذى درس الإسلام ونصوصه ونبيه وكلف بسلسلة ترجمات لبعض المؤلفات إلى العربية. وقد أفضت به دراساته إلى استنتاج بأن الإسلام كان هرطقة مسيحية نمت بينما كانت الإمبراطورية الرومانية تنحدر، واستطاع، كحركة سياسية-دينية - أن يحتل بالسلاح معظم آسيا، وكل أفريقيا وجزءاً من إسبانيا^(٥١). وعلى الرغم من أن بيتر لم يدعم على وجه التحديد حملة مسلحة ضد الإسلام، مفضلاً الحوار والتبشير على المواجهة العسكرية، فإنه ليس ثمة دليل على أنه عارض بنشاط الحملات الصليبية^(٥٢).

وشأن بيتر المبجل، وربما كمصدر أولى له، فإن فينسان بوفيه كان أقل معرفة بتاريخ محمد وتربيته وبتطور الإسلام والوضع السياسى فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما تبين مناقشاته لزعة استقرار "الطائفة" (فى الفصل بعنوان "De Instas-bilitate Sectorum Eius" يشير إلى مؤلف بيتر عن الإسلام وترجمته للقرآن -Alchora-nus)^(٥٣)، الذى يستنتج أنه لم يكن نبوة موحى بها. إنه يتفحص حياة محمد العملية وتربيته ليبرهن على أن القائد المسلم وقع تحت نفوذ التسلطة المسيحيين، ويدرج قائمة بتفصيلات قسوة محمد وشراسته، ويصف ما يعرفه بأنه عدم استقرار الإسلام كحركة^(٥٤). وينتهى إلى أن هذا كله يبرهن على أن "محمدًا ليس نبياً"^(٥٥).

أما برونيتو لاتينى - شأنه شأن فينسان بوفيه- فاتجه إلى التاريخ المسيحى المبكر لمنطقة شرق البحر المتوسط، مهد نمو الإسلام. وعن محمد يقول برونيتو أنه كان ناسكاً وقع فى خطأ، الأمر الذى يماثل التفسير المسيحى النسطورى الذى قال به فينسان^(٥٦). غير أن مواقف برونيتو الأقل قسوة تتعارض بصورة ملحوظة مع تلك التى نجدها فى كتاب ألكسندر دى بون Alexandre du Pont الصادر عام ١٢٥٨ رواية

محمد Le Roman de Mohamet ، التي تعرّف محمداً كشخصية شيطانية قام - بمساعدة تدريب تلقاه من راهب متعصب - ليدمر قانون يسوع لصالح قانونه الخاص الشرير. وحسب ألكسندر دي بون كان من شأن محمد - الممتلئ حقناً - أن يهاجم الزواج ويستنكر العذرية والعفة بظلمه، ويقود شعبه إلى الحماقة، ويعيد الختان، ويقوض المعتقدانية والقربان المقدس (٥٧). (ش)

وعلى الرغم من أن دانتى يتبع هذا التقليد بدرجة ما - على سبيل المثال شاجباً محمداً باعتباره "بأذر الشقاق" [الجحيم، ٣٥:٢٨] (٥٨) - فإنه لا يدعم حملة صليبية ضد الإسلام. إنه عوضاً عن ذلك يضع الإسلام على المعايير اللاهوتية-الأخلاقية ذاتها التي يطبقها على أولئك الذين هم داخل وسطه الخاص، ومن ثم يستخدم نسقاً أخلاقياً أوسطياً في الحكم على أولئك الذين عاشوا قبل المسيح ويعده، سواء كانوا وثنيين أو مسيحيين، عبريين أو مسلمين. وخلافاً لمعالجته لعالم الاندوس، أولئك الذين تضعهم المخيلة في موقع خارج الحدود المسيحية الرومانية، يتفحص دانتى الإسلام طبقاً للنسق اللاهوتي - الأخلاقي الذي يُبلغ عن الحكم المسيحي في الكوميديا. وبعبارة أخرى يحاسب محمداً وعلياً على نشرهما الانقسام.

عند دانتى - كما عند توما الأكويني - محمد وعلى منشقان، محمد وقد نزع دينه الجديد عن المسيحية، وعلى وقد سبب الصدع بين السنة والشيعية (الجحيم، ٣٠:٢٨-٤٥). لكن استنكار دانتى لمحمد لا يمثل "استشراقه" كما ذهب سعيد (٥٩). الأخرى، كما كتب سمير أمين، أن "أحكام المسيحيين في زمن الحملات الصليبية لم تعد أكثر "مركزية أوروبية" مما كانت أحكام العرب أكثر "مركزية إسلامية". لقد أنزل دانتى

(ش) الأفخرستيا Eucharist وتعرف أيضاً بالعشاء الرباني (الأخير). والقربان يكرر أفعال المسيح في العشاء الأخير حين أخذ الخبز وباركه قائلاً: "خذ، هذا جسدي"، وكرر في نهاية العشاء قائلاً: "هذا دمي...." فالعنى هو أن الموت للفداء لأن الجسد يبذل من أجلكم (لوقا: ١) (المترجم).

محمداً إلى الجحيم، لكن هذا لم يكن علامة على تصور مركزية أوروبية في العالم. إنما هو حالة نزعة رئيسية مبتدلة، هي شئ، مختلف تماماً لأنها متوازنة في أذهان طرفين متعارضين.^(٦٠)

تتضمن تصورات مواقف دانتي تجاه الإسلام وصفه لمدينة ديس كقلعة إسلامية (الجحيم، ٨: ٧٠-٧٣) كرمز للشاق الذي يميز المنفى الاختياري لكافة قاطني جهنم. مسيحيون اسميون ارتبطوا بالمذهب الرشدي، مثل مايكل سكوت (١١٧٥-١٢٢٥) وفريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) - وليس بابن رشد نفسه - أرسلوا إلى جهنم. وفي الحقيقة فإن دانتي يضع فريدريك الثاني، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ورجل تبنى الثقافة والعلوم الإسلامية في مملكته الصقلية^(٦١)، في دائرة الأبيقوريين^(ص) (الجحيم، ١٠: ١١٩)، وهي الدرجة الأولى من درجات الفساد الفكري داخل مدينة ديس. لقد أكسبت فريدريك قناعاته الأبيقورية - شأنها شأن اهتمامه بالثقافة والعلوم الإسلامية - مكاناً بين المهراطيين في نظام دانتي. وبالإضافة إلى ذلك، ومن وجهة نظر دانتي، فإن استعداد فريدريك لمواجهة مع الإسلام قد برهن على خطاياه الفكرية. فبينما كان القائد الاسمي للإمبراطورية الرومانية المقدسة، من عام ١٢١٥ إلى عام ١٢٥٠ مضى فريدريك في سعيه إلى اهتماماته البحثية، إلى تقويض مسؤولياته الإمبراطورية، ومن ثم - من منظور دانتي الديني - السياسي - فإن هذه الاهتمامات انتهاكات سياسية، وبالمثل أخلاقية. إن كاتب التسلسل الزمني للأحداث في القرن الثالث عشر، ساليمبيني دا بارما Salimbini da Parma (ولد ١٢٢١) يعرف

(ص) نسبة إلى أبيقور Epicurus (٣٤٠ ق.م. - ٢٧٠ ق.م.) الفيلسوف اليوناني الذي دافع بشدة عن التعويل على الحواس كمصدر للمعرفة، واعتبر أن من الضروري إزالة أو تخفيف قلق الإنسان - بما في ذلك من الموت - وعرف عنه دفاعه عن بدأ اللذة، بمعنى التحرر من الألم، باعتباره الخير الاسمي. وهكذا فإن القول بأن الأبيقورية تقول بتكريس الإنسان للذة الحسية تنطوي على سوء فهم لفلسفة أبيقور. (المترجم).

حكم فريديريك البابلي التوراتي، ويسجل صعوده إلى السلطة وسقوطه، وإدانتته بالهرطقة من قبل البابا غريغوري التاسع. ويكتب أنه كانت لفريديريك حماقات كثيرة وكان يملأه فضول عاجز، وكان طاغية، وكان أبيقورياً^(٦٢). ويقدم ساليمبيين نقداً مدعماً لفريديريك، متهماً إياه بأنه كان أبيقورياً يسعى إلى كافة ملذات الجسد، وأنه أقام سلاماً مع السراسنة على حساب المسيحيين وأنه أمر بإنشاد اسم محمد في هيكل الرب^(٦٣).

ويتفق وضع دانتي مايكل سكوت - وهو باحث رشدي كان مقيماً في بلاط فريديريك - بين مستحضري الأرواح (الجحيم، ١١٦:٢٠) - مع المعتقدات المسيحية التقليدية للشاعر بشأن التكهن عن المستقبل دون علم من واسطة إلهية. ولقد ترجم مايكل سكوت - الذي كان متخصصاً في الفلك والتاريخ الطبيعي - اثنين من الشروح العربية لكتاب أرسطو في السماء De Caelo et Mundo، أحدهما كتبه البيتراغوس^(ض) والآخر كتبه ابن رشد، وعلم الفلك في جامعة باريس مستخدماً كتاب ساكروبووسكو Saerobosco المجال Sphere وترجم ثلاثة من رسائل أرسطو في التاريخ الطبيعي (تاريخ الحيوان Historia Animalum) في أجزاء الحيوان De partibus Animalium، وتوالد الحيوان De Generatione Animalium^(٦٤). وكما أشرت بالفعل، كان دانتي واسع المعرفة بالتطورات العلمية إلى أحدث الأوقات. ومن هنا فإن نفوره من مايكل سكوت ينبغى أن يُعزى إلى عامل آخر غير بغضه للعالم التجريبي (الأمبريقي). إن اعتقاد مايكل سكوت الهرطقي بإمكان التنبؤ بالمستقبل بناء على دراسة علوية إنما يضعه يقيناً في صف الأفكار الشعبية الشائعة عن الفلك العربي. إن العقوبة التي

(ض) هو البطروجي نور الدين أبو أسحق (المتوفى عام ١١٨٥ م) وهو فلكي أندلسي تتلمذ على ابن طفيل، وتسمية البتراغوس Alpetragius هي الشائعة في العالم اللاتيني، ولا تنفي أنه كان عربياً شأنه شأن ابن رشد. (المترجم).

يوقعها دانتي على العرافين ، الذين يسكن معهم مايكل سكوت، توحى بأن الأجناس المتوحشة التي نجدها موصوفة في كافة أرجاء تقاليد العجائب البلينية. إنهم يظهرون - بوجوههم المشوهة الملوية للوراء ونظراتهم الموجهة لأسفل - إلى حد كبير مثل مخلوقات العالم المقابل المتخيلة، وهم لهذا رموز لنظرية العالم المقابل المهرطقة المرتبطة بتنظير علمي لا يهتدى بالتعاليم المسيحية.

إن لنا في معاملة دانتي لمايكل سكوت مثلاً محدداً على فكرة دانتي عن العمل الفكري- اختبار علمي قهرى للمستقبل غير القابل للتنبؤ الذي يربطه الشاعر بالتنظير بشأن مخلوقات العالم المقابل، وهما مسألتان علميتان كانت قد تمت مناقشتهما ترادفياً. كذلك فإن من المثير للاهتمام في هذا الصدد أن الأنشودات المتوازية في الجحيم الأنشودة ٢٠ والأنشودة ٢٠ في المطهر والأنشودة ٢٠ في الفردوس، تستكشف خلاص الوثنيين، لأنه في الأنشودة ٢٠ في المطهر يهتز الجبل حينما يصبح كل واحد "المجد للرب في الأعلى" - وهو ما نعرف فيما بعد أن سببه أن ستاتيوس^(ط) قد حرر لتوه من المطهر. وفي الأنشودة ٢٠ من الفردوس ، إذ يرى وثنيين (ريفيوس Ripheus وترايان Trajan) في السماء يدهش دانتي. هذا التوازي يعزز نظام دانتي الكلي. فإن هذه الأنشودات في الفردوس والمطهر تبين أن العالم بأسره يمكن أن يضمه نظام اللاهوت الخلاصي الذي يفضيه في القصيدة. إن فرضيات مايكل سكوت العلمية عن مخلوقات العوالم المقابلة للأرض، والتي عوقب عليها بأن فرض عليه أن يتخذ مظهر تلك المخلوقات المتخيلة، هي إشارة محددة إلى وضع الفرضيات عن المنطقة الرابعة. يدحض دانتي هذا الطرح الفرضي الفكري، كما فعل أوغسطين. لأنه كان من شأنه أن يتناقض مع الفكرة المسيحية عن الخلاص الكلي.

(ط) Publius Papinus Statius (٤٥ - ٩٦) شاعر لاتيني، مؤلف ملحمة طيبة وأخيل، ويظهر في المطهر حيث يتحدث إلى فيرجيل ودانتي. (المترجم).

يشجب دانتى فريدريك ومايكل سكوت بسبب انغماسهما - من منظوره - فى ثقافة إسلامية تمثل اهتماماتهما الأبيقورية واعتقادهما بأن التعلّم غاية فى ذاته لا حاجة به إلى إرشاد من المبادئ اللاهوتية. مع ذلك فإن دانتى - متجاهلاً المشكلات الزمنية للخلاص - لا يشجب ابن رشد أو ابن سينا أو صلاح الدين، الذين يضعهم بين فضلاء الوثنيين فى اليمبوس^(٦٥) (الجحيم، ١٤٣:٤-١٤٤، ١٢٩) جنباً إلى جنب مع سقراط وأفلاطون وأرسطو. وفى الحقيقة فإن ابن رشد "الذى كتب الشرح العظيم (١٤٤)^(٦٥)، يحظى بانتباه خاص لإنجازه الأكاديمى.

إن انعدام التماسك البادى هذا فى الكيفية التى يعالج بها دانتى بلاط فريدريك المؤسّم والمفكرين الإسلاميين المشاهير، الذين عاشوا جميعاً داخل الفضاء الجغرافى للإمبراطورية الرومانية - المسيحية فى السابق، ينبع من رغبة الشاعر فى تمييز النشاط الثقافى - وخاصة ذلك الذى أمدّ بالمعلومات العمل اللاهوتى لألبرت الأكبر وتوما الأكوينى^(٦٦)، من النشاط الفكرى ذى العواقب السياسية. يذهب إعجاز أحمد إلى أن فتوى دانتى تعكس ولائته المقسمة بين مسيحية "وسيطية" والثورة الفكرية الإنسانية البادئة^(٦٧) Aijaz Ahmad. بعيداً عن حقيقة إن هذه الحجة تعتمد على مزاعم صارمة تفرض طابعاً دورياً. فإنها لا تدرك أن هذا النوع من الانقسام شائع فى التقاليد الفكرية المسيحية. لقد كان كلا ألبرت وتوما منخرطين فكرياً مع المذهب الرشدى لأن ترجمات ابن رشد وشروحه على أعمال أرسطو، التى وصل كثير منها إليهما فى صيغها العربية. كذلك فإن دانتى - إذ يسمح بهذه الفتوى - يبدو أيضاً قد تبنى تمييز أوغسطين بين المفيد والممتع ("Uti" و "Frui" فى العقيدة المسيحية De Doc-trina Christiana) حينما يحكم على كافة "الأنوار" فى اليمبوس، لأن أعمالهم برهنت على أنها مفيدة؛ وكتاباتهم أسهمت فى التحول إلى المسيحية وفى اللاهوت المسيحى،

(ظ) Limbo عرفناه فى هامش سابق (المترجم).

حتى على الرغم من أنهم لم يكونوا - هم أنفسهم - متلقين لهذه النهاية المضيئة والمبهجة.

ومما يوحى أكثر من هذا بافتقار دانتي إلى الاهتمام بالحياة السياسية فى شرق البحر الأبيض المتوسط، وكذلك رفضه لمطامح الصليبيين فى المنطقة، إنه يضع صلاح الدين فى اليمبوس^(٦٨). وعلى النقيض من هذا يحكم على فريديريك بالذهاب إلى جهنم بسبب انغماسه الثقافى الأبيقورى والإسلامى وإخفاقه فى أداء واجبه كإمبراطور لتوحيد العالم اللاتينى. وحفاظاً على المعتقد اللاتينى الوسيطى فإن صلاح الدين هو عند دانتي نموذج للقائد الإسلامى. ومن ثم يتلقى المعاملة التفاضلية ذاتها التى يتلقاها من الشاعر النيرون القدامى الآخرون.

خلافًا لغزو صلاح الدين للقدس، فإن انشقاق محمد - حسب وجهة نظر دانتي - قد شق العالم المسيحى وإقليمه الجيوسياسى. لقد قدر على هذا الانشقاق أن يخلق انشقاقاً آخر، على النحو الذى فعلته كل التمزقات المدنية الأخرى التى يمثلها الشاعر فى الجحيم - الأنشودة - ٢٨، (سواء كانت مواضعها فى اليونان القديمة أو فى روما، سواء كانت دينية، وسواء كانت معاصرة أو إذا كانت قد حدثت فى إيطاليا أو فى مكان آخر فى أوروبا) . فحسب تمثل ساليمةبىنى، وخلافًا لتمثل ابن رشد وتوما الأكوينى وألبرت، فإن فريديريك ومايكل سكوت قد غاصا فى تجريب علمى مجانى للاستمتاع بفلسفة أبيقورية. وفى الحقيقة فإن الاحترام الاجتماعى الإسلامى داخل بلاط فريديريك كان جزءاً من هذا التنوع للمساعى الفكرية الأبيقورية.

وكما يمكننا أن نتوقع، حينما يواجه دانتي الإسلام أو الشرق فى العالم اللاتينى، يتبع موقفاً مسيحياً لاتينياً أصلاً (أورثوذكسياً). إنه يشجب محمداً وعلياً كمنشقين سياسيين عسكريين وثقافيين من ناحية، ولكنه يحترم العلم الإسلامى الذى يدعم اللاهوت المسيحى ويزدري ما يراه مغامرات مدرسية (سكولائية) مجانية فى التجريب الأبيقورى تحت تأثير العلم شبه الإسلامى من الناحية الأخرى. وحتى وهو يضع شهداء

بعض الحملات الصليبية فى السماء فإنه يحول التوجه الخطابى والجغرافى للمسرد الصليبي. وتتبنى قصيدته رسالة الحج المزعومة - بمعنى التوبة والتحول الفرديين والجماعيين - وهو يستخدم الصليبية كمجاز للحياة المسيحية. ومثل المسردات الصليبية، تفصل الكوميديا التعارضات التى تضع أهل الداخل ضد أهل الخارج، المخلص ضد الملعون، لكن - وكما فى أعمال أوغسطين- تختبر الكوميديا ما يشكل تحولا. وكما فى المسردات الصليبية، تُظهر أن كون المرء مسيحياً بصورة اسمية ليس معادلاً لأخلاق متفوقة. تحجم الكوميديا عن التعبير عن اهتمام بالفضاء التجريبي (الإمبريقي) للأراضى المقدسة واحتلال المسلمين لها. لكنها -شأن كثير من المسردات الصليبية، تصبح الوسيلة لدعوة موطن المؤلف الأصلي ليحاسب على خطاياها. إن دانتى ببناء فكرة "أوروبا" ضد شرق، كما يفعل مبدعو رولان وأليسكان، يشير إلى القانون باعتباره الحل للأزمة التى خلقها تنازع الغرب وخداعه. وهو - كذلك - يشير إلى الغرب باعتباره موقع التحول مستقبلاً، على نحو ما سناقش فى الفصل التالى. فعند دانتى، الاستشهاد - كما بين بوناغنتورا حين حالف بين النبوة أو النطق بالحقيقة والاستشهاد - هو أن نموت من أجل الحقيقة^(٦٩)، وأن الموت يمكن أن يحدث فى أى مكان^(٧٠).

هوامش الفصل الثاني

(١) Fideles Crucis, Schein, 73 .

(٢) في مناقشتي ضد هذا الرأي أعترض على الرأي العام السائد بين دارسي دانتي الذين افترضوا أن دانتي يؤيد الحج إلى الأراضي المقدسة والحجج المثارة بشأنه، انظر على سبيل المثال: The Demaray, Invention of Dante's, Commedia, 9-17, "La Crociata", Miccoli, .

(٣) في المسردات الصليبية المكتوبة بعد كارثة الحملة الصليبية الثانية، عزيت الإخفاقات العسكرية في الأراضي المقدسة بصفة مستمرة إلى جور المسيحيين، انظر على سبيل المثال: A, William of Tyre, History of Deeds, 2:506 وفيه يكتب، بينما الأراضي المقدسة على وشك أن يستولى عليها العرب مجدداً في عام ١١٨٧، لهذا، عقاباً على خطايانا أصبح العدو أقوى منا، ونحن الذين اعتدنا على الانتصار على خصومنا وحملنا بصورة معتادة أكايل النصر المجيدة، أصبحنا الآن محرومين من الأفضلية الإلهية، ننكفئ في الميدان في هزيمة مطبقة الجهل بعد كل صدام تقريباً (نصها اللاتيني موجود في كتابه التسلسل الزمني Chronicon, 2:1061).

(٤) انظر Dante and the book of the Cos- " Patterns of Earthly Pilgrimage", Damaray, The Invention of Dante's Commedia, 82, mos, و .

(٥) إلى جانب مسردات وإليام صور فإن المسردات الصليبية التي تقول أن دانتي كان - على الأرجح - يعرف Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum، وهي أول مسردة صليبية ومصدر كل الروايات التالية عن الحملات الصليبية: Odo de Deuil, De Profectione, هي المسردة الوحيدة عن الحملة الصليبية الثانية الكارثية. Historia Hierosolimitana; Raymond, Foucher of Chartres, Vie de, Historia Francorum Qui Ceperunt Iheusalem; Jean de Joinville, d'Aguiers Saint Louis.

(٦) يكرر تاريخ بيد Bede الوصف الذي قدمه أركولف Arculf مطران غول Gaul، انظر: Bede's Eccle- The Pilgrimage of Arculfus, Arculfus, siastical History of the English people

(٧) انظر: Fideles Crucis, Schein, 121-24 .

(٨) لطبعة من نص فيدينيو Fedenzio، انظر Biblioteca bio-bibliografica (XIII-XIV SEC)، 9-60:

(٩) يذهب غابريلى إلى أن دانتي كان يعرف ريكولو دا مونتيكروتشى، ولكنه على سبيل التصحيح، فيما اعتقد، يرفض القائلة بأن دانتي كان منغمساً في دراسات عربية. وعلى الرغم من أن ريكولو درس اللغة العربية وعرفها جيداً بدرجة تكفى للتبشير بالمسيحية في شوارع بغداد، ولكنه عندما عاد إلى فلورنسا لم يعد على اتصال بها. وكذلك يعطى Schein في كتابه Fideles Crucis، 124 تاريخ ريكولو.

(١٠) (ص ٦٢) - هامش ١٠

(١١) (ص ٦٢) - هامش ١١

(١٢) Sanudo، "Liber Secretorum Fidelium Crucis" بشأن مناقشات لهذه الخرائط وبشأن سانويو Sanudo انظر The Crusades، 47-127، Hugh of Saint-Victor، "Descriptio mappe mundi"، 126.

(١٣) (ص ٦٢) - هامش ١٣

(١٤) يذكر جيروم قيمة زيارة الاراضى المقدسة في الرسائل Letters الأرقام ٢٢، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٨، ٦٨، ١٠٨، ١٢٢، ١٤٥

(١٥) (ص ٦٢) - هامش ١٥

(١٦) كتاب مارافال Maraval بعنوان Lieux saints et pélerinages d'Orient هو المناقشة الأفضل - بفارق كبير- لهذا التطور وعواقبه. انظر أيضاً (ص ٦٢ - هامش ١٦) وتناقش هذه المصادر التغيرات في التوجه المكانى التى جلبها تحول قسطنطين إلى المسيحية كحركة اجتماعية وسياسية.

(١٧) بشأن مناقشة شاملة للاستخدام التوراتى وفى القرن الأول لجاز " الغريب" انظر: Elliot، Home for the Homeless

(١٨) Augustinus، Cité De Dieu، 1، praef.

(١٩) بشأن مناقشة لهذه العناصر من الحج، انظر: Brundage، Medieval Canon law، 3-12، ويقدم ديبون Dupon فى كتاب Du sacré، 369-73، إيضاحات عن المعانى الكثيرة لـ الحج.

(٢٠) بشأن العبور بين رحلات الحج الرمزي إلى الاراضى المقدسة والحج الحقيقى كما يتضح فى الكوميديا لدانتي، انظر: (ص ٦٣ - هامش ٢٠)

(٢١) Cronica، Villani، 1.4.19، وتحاول دراسة صدرت مؤخراً عن حياة روبرت جيسكار العملية أن تستكشف التوتر بين محاولاته للتوحيد فى إيطاليا وللنزعة الإقليمية. انظر: Roberto il Lamattina، Guiscarda

(٢٢) (ص ٦٣- هامش ٢٢)

(٢٣) (ص ٦٣- هامش ٢٣)

(٢٤) A History of Deeds, William of Tyre, 1:41 وانظر ص٤٣ بشأن التأثير المرجح على الكوميديا. وبشأن مناقشة لهذا التقليد المخطوطي وصيغة المخطوط٨٢٨ (ص ٦٣- هامش ٢٤) وقد وصلت على أيدي آل ميديتشى مخطوطة فلورنسية (نسخت فى عكا، حوالى ١٢٩٠).

(٢٥) (ص ٦٣- هامش ٢٥)

(٢٦) (ص ٦٣- هامش ٢٦)

(٢٧) (ص ٦٣- هامش ٢٧)

(٢٨) (ص ٦٣- هامش ٢٨)

(٢٩) (ص ٦٣- هامش ٢٩)

(٣٠) (ص ٦٣- هامش ٣٠)

(٣١) بشأن أكثر المناقشات الأخيرة إثارة لـ"أغنية رولان" Song of Roland, انظر Haidu, The Subject of Violence

(٣٢) (ص ٦٣- هامش ٣٢)

(٣٣) (ص ٦٣- هامش ٣٣)

(٣٤) (ص ٦٣- هامش ٣٤)

(٣٥) (ص ٦٣- هامش ٣٥)

(٣٦) (ص ٦٣- هامش ٣٦)

(٣٧) (ص ٦٣- هامش ٣٧)

(٣٨) انظر Bernabei, "Pellegrino" مسالة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت فى عبارات رحلة حج كانت مسالة مركزية فى "الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص ٦٣- هامش ٢٩) Fergusson, Dante's Drama of the Mind; Singleton, Dante's Commedia; Salva- (٢٩, The Ladder of vision; Freccero, "Linguaggio reale"; Battaglia, "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga-, Dante the Pilgrim, Armour, 29-54; and Badassaro, Dante tory 169-85, يذهب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٣٠٠ يؤكد على الحج فى الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٣٩) انظر Bernabei, "Pellegrino" مسألة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت في عبارات رحلة حج كانت مسألة مركزية في الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص -٦٣ هامش Fergusson, Dante's Drama of the Mind; Singleton, Dante's Commedia; Salva- (٣٩, The Ladder of vision; Freccero, tore Battaglia, "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga- .Dante the Pilgrim, Armour, 29-54; and Badassaro, Dante tory, 169-85 يذهب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٣٠٠ يؤكد على الحج في الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٤٠) حول العدد ٩ انظر Gorni, Lettera, nome, numero, 73-85 وهو يذهب أبعد من هذا إلى أن العدد، حسب دانتي، هو محيط خارجي، نوعي وليس كمياً فحسب، في معرفة الأشياء. [إنه] عادة ذهنية، فرضية أولية في تفسير الواقع. ليس فقط شيئاً مبتدلاً في الواقع الفيزيقي إنما أيضاً- وفوق كل شيء - في [الواقع] الفكري. [87]

(٤١) (ص -٦٤ هامش ٤١)

(٤٢) (ص -٦٤ هامش ٤٢)

(٤٣) بشأن استخدام دانتي لكتاب بونافيننتوري Bonaventure, Itinerarium Mentis in Deum انظر: (ص -٦٣ هامش ٤٣)

(٤٤) طورت هذه الفكرة عن فضاء النص من سيرتو Certeux, "Montaigne's Of Cannibals", 68

(٤٥) (ص -٦٤ هامش ٤٥)

(٤٦) (ص -٦٤ هامش ٤٦)

(٤٧) La Studio dell'Islam, 65 Monneret de Villard يذكر حسيّة محمد التي اشتهر بها كسمة ثابتة في حجج مسيحية العصور الوسطى.

(٤٨) الصيغتان اللاتينية والفرنسية من The Book of The Ladder مطبوعتان في Cerulli, II, "Libro della Scala", 24-247 وثمة طبعة صدرت مؤخراً هي Le Livre de l'échelle de Mahomet ولترجمة إنكليزية للنصين اللاتيني والفرنسي انظر: The Prophet of Islam in Old French ويتناول Blochet في Les sources orientales de la Divine comédie أوجه التوازي بين The Book of the Ladder والذي يرجع إلى أصول فارسية، والكوميديا. أنظر أيضاً (ص -٦٤ هامش ٤٨).

(٤٩) (ص -٦٤ هامش ٤٩).

(٥٠) (ص -٦٤ هامش ٥٠)

(٥١) (ص -٦٤ هامش ٥١)

(٥٢) انظر Bernabei, "Pellegrino" مسألة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت في عبارات رحلة حج كانت مسألة مركزية في الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص -٦٣ هامش ٣٩) Fergusson, Dante's Drama of the Mind; Singleton, Dante's Commedia; Salva- (٣٩, The Ladder of vision; Freccero, tore Battaglia, "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga- ,Dante the Pilgrim, Armour, 29-54; and Badassaro, Dante tory 169-85, يذمب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٣٠٠ يؤكد على الحج في الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٥٣) (ص -٦٤ هامش ٥٣)

(٥٤) (ص -٦٤ هامش ٥٣)

(٥٥) بشأن نفوذ النساطرة المسيحيين انظر: Ibid, 23.51, وبشأن قسوة محمد وشهوته انظر ٤٤, ٢٣, ٤٣, ٢٣; وبشأن عدم استقرار الإسلام كحركة, انظر: ٤٨: ٢٣

(٥٦) (ص -٦٤ هامش ٥٥)

(٥٧) (ص -٦٤ هامش ٥٦)

(٥٨) انظر Alexander du Pont, Le Roman de Mahomet, II, 165-84, بشأن نص لاتيني من القرن الرابع عشر لخرافة عن محمد تحاول أن تبرهن على أن "الهرطقة" كانت لها جذورها في روما, ومن هنا جاء التاسك الساخط الذي علم محمدًا انظر: (ص -٦٤ هامش ٥٧)

(٥٩) بشأن مناقشات لمعاملة محمد في الجحيم انظر: (ص -٦٤ هامش ٥٨) وتناقش الصبّاح في الجحيم, الأنشودة ٢٨, الصلة بين الانشقاق والصور المشوهة في تمثيل محمد في نصوص العصور الوسطى مثل (ص -٦٤ هامش ٥٨)

(٦٠) (ص -٦٤ هامش ٥٩)

(٦١) (ص -٦٤ هامش ٦٠)

(٦٢) يمس مينوكال Menocal في The Arab Role, 61-70 موضوع بلاط فريدريك الثاني. انظر أيضًا Frederick the second, Kantorowicz

(٦٣) (ص -٦٥ هامش ٦٢)

(٦٤) (ص ٦٥- هامش ٦٢) يكتب ساليمني عن إدانة الإمبراطور بوصفه مهرطقاً قائلاً: "إن فريديك قد استحق تماماً وعدلاً هذا الفعل، فعل العزل من العرش والطرود من الكنيسة بسبب نكرانه الجميل. ذلك أنه تعمد القسوة ورفع صوته ضد الكنيسة، التي كانت قد رعتة ودافعت عنه ضد أعدائه ورفعتة إلى عرش الإمبراطور. مع ذلك فقد أظهر نكرانه التام للجميل باضطهاد الكنيسة والقتال ضدهما بكل قلبه." [182]

(٦٥) يشير ساليمني أيضاً إلى مايكل سكوت بوصفه "فلكى فريديك الثاني" (ص ٦٥- هامش ٦٣) وفي The Arabic Role, 57-58, 62-64 يلخص مينوكال حياة مايكل سكوت العظيمة بوصفه تابع فريديك ومترجمه، على وجه التحديد للكتاب أرسطو ما وراء الطبيعة Metaphysics وشروحه العربية وكتاب أرسطو عن الحيوان De Animalibus. وبشأن مناقشة لمقالة مايكل سكوت "Tianchi è cosi", انظر Kay, "The Spare Ribs of Dante's Michael Scot".

(٦٦) كان ابن رشد معروفاً في العصور الوسطى بـ "الشارح" لأنه كتب شروحاً وملخصات لأعمال أرسطو الرئيسية. انظر: (ص ٦٥- هامش ٦٥)

(٦٧) انظر - مثلاً - ألبرت الأكبر: Albert the Great, De Anima و De Natura Loci وفيها يشير إلى الفروق بين نظريات بطليموس ونظريات ابن رشد في الجغرافيا الكونية. وبشأن الاختلافات اللاموتية المسيحية مع أعمال ابن رشد وابن سينا، انظر: Contra gentiles, Aquinas (ص ٦٥- هامش ٦٧)

(٦٨) انظر Castro, "The presence of the Sultan Saladin"

(٧٠) الاستشهاد هو شهادة للحقيقة - انظر أيضاً: (ص ٦٥- هامش ٦٩)

(٧١) كما كتب جيروم " ليس الوجود في القدس هو ما يهم، إنما العيش جيداً هو الذي يستحق الثناء - Let- and psalm 95, Commentarioli in Psalmos, Jerome tres no 58.2 (my translation) 153, Lieux saints, Marval

الفصل الثالث

دانتى والحملة الصليبية فى الأراضى المقدسة

من الخير - إذن - أن التسلح بالتبصر حتى إذا ما انتزعت بعيداً عن أعز مكان
عندى لا تُفقدنى أغنياى كل أماكنى الأخرى.

- الفريوس، ١٠٩: ١٧-١١١

يحول دانتى مسردات الحرب الصليبية العسكرية والحج إلى شعر، فيما يصبح
فضاء قصيدته حجه وحملة الصليبية. وخلال الدراما الشعرية والتأمل واللاهوت يناقش
على نطاق واسع إخفاقات التاريخ الأخلاقية والمعنوية، وبصورة محددة ظهور
القوميات الأوروبية والإمبريالية البابوية والفساد الكنسى. إن الكوميديا، وقد تحولت من
خلال لاهوت شعري^(١)، تكشف بتقاليد المسردات الصليبية أزمات العالم اللاتينى
الذى ينتمى إليه المؤلف نفسه. ويوصى دانتى بإصلاح هيكل، خاصة فى القانون،
الذى يتوجب أن يحافظ على المستويات الأخلاقية ويدعم ممارسة الحب (Caritas)
باعتبار ذلك الحل للفوضى السياسية والدينية، السائدة فى زمانه. إذ ينبغى
تأسيس القانون على مفهوم للعدالة الكونية يضمن الحرية للجميع. إن عدالة الرب
مؤسسة على المحبة، وبالمثل حقا ينبغى أن تكون العدالة الإنسانية (الملكية، ١١: ٢-٣).
يصبح الشعر وسيلة لتخييل بديل طوباوى للبنى السياسية والاقتصادية
للخطة التاريخية.

ويستطلع هذا الفصل الكيفية التي يُبرز بها توجه دانتي الجغرافي روايته الصليبية - الحجية. وعلى النقيض من المسردات الصليبية - الحجية (أو مكتسبات الأرض الإمبريالية الرومانية، التي وعدت بها ذرية أنياس في الإنيادة)^(٢)، يتوجه دانتي إلى لاهوت أوغسطين المكانى الشعري وإلى رحلة لبونافنتورا (iter). فعنده أن المعارك ينبغي أن تخاض ضد الروح الخاطئة الإنسانية والبنى الداعمة لتلك الإرادة المتمردة. تحل الأخلاق والحب محل المطامح الإقليمية والإمبريالية^(٣). وإذا يتخيل دانتي أوروبا موحدة سياسياً، يتخذ ثلاث مسائل كمحور لرحلته الصليبية - الحجية: إصلاح القانون فى ظل بناء رومانى مجدد، إمبريالى، جغرافى محدود بالقارة الأوروبية (الفردوس، الأنشودة ٦)؛ وإصلاح الكنيسة، التى أدى انغماسها فى الشؤون الزمنية إلى فسادها (الجحيم، الأنشودة ١٩؛ المطهر، ١٦؛ الفردوس، ٢٧: ٤٠-٦٦، ٣٠: ١٣٣-١٤٨). وعلى النحو الذى فصله ماركو لومباردو (Marco Lombardo) فى المطهر، الأنشودة ١٦، تحويل الأفراد عن حياة خروج على القانون وخطيئة^(٤).

ويُظهر الجحيم بالصور هذا الخروج على القانون والعواقب التى يجرها انحراف الإرادة الإنسانية. إن الخاتمة التنبؤية والشريرة للموكب فى المطهر، وكذلك الهم الصادر فى الفردوس من أفواه أكثر الشخصيات تبجيلاً^(٥) - جستينيان ضد المتصارعين الغيلف والغيبيليين (الفردوس، الأنشودة)، من القديس توما ضد طبقته الكنسية ذاتها، الدومينكان، بسبب الفساد (الفردوس، ١١: ١٢٤-١٣٩)، القديس بونافنتورا ضد طبقته الكنسية (الفردوس، ١٢: ١١٢-١٢٦)، القديس بطرس داميان ضد رجال الكنيسة الذين أخفقوا فى اتباع مبادئهم (الفردوس، ٢١: ١١٨-١٣٥). كاشياغويدا ضد فلورنسا المعاصرة له (الفردوس، الأنشودة ١٦)، النسر ضد كل الملكيات المسيحية الفاسدة (الفردوس، ١٩: ١١٠-١٤٨)، بياتريس ضد بونيفاتشى الثامن وكليمنت الخامس (الفردوس، ٣٠: ١٣٩-١٤٨) والقديس بطرس فى شجبه

العميق لاغتصاب "مكاني" (الفردوس، ٢٧:٢٢) - هي رؤيا مشبوبة بالعاطفة لحرب دانتي الصليبية الخاصة. وفي الحقيقة فإن ذم القديس بطرس ضد البابوية التي كانت آنذاك حبيسة أفنيون^(١)، معبر عنه كمجاز مكاني:

ذلك الذي جرؤ على الأرض أن يغتصب ذلك المكان، مكاني، مكاني

الذي يقف الآن أمام وجه ابن الرب خالياً

قد جعل من قبري مصرفاً للدم والوسخ،

ليصبح هناك في الأسفل راحة لذلك المرتد الذي سقط من هنا" (الفردوس، ٢٧:٢٢-٢٧)

يضاعف دانتي قوة إدانته ثلاث مرات بأن يعطى منظوراً كونياً من ثلاثة أضعاف لاغتصاب البابوية، جاذباً الممالك الثلاث - الأعلى، الأرض، والأسفل - إلى أهمية الأحداث. إن مكان القديس [بطرس] الذي وقع فيه المقدمة الشهادة قد أصبح مصرفاً لمجاري البابوية المعاصرة، مع الإيقاع الصادر من الحنجرة للكلمات "Vacca" و"cloa" و"ca" و"Placa" والتكرار المشدد لحروف البداية) ملفوظاً من الشفة في الكلمات "Puzza" و"perversa" و"placa"، مؤكداً حدة نبرة القديس بطرس.

إن رد فعل دانتي إزاء السياسات البابوية في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر - التي أدت إلى نقل المقر البابوي إلى أفنيون، ينعكس في تعريف الشاعر الفساد، والانقسام الكنسي بمصرف المجاري في جهنم. لقد كتب الكوميديا حينما كانت القوميات الأوروبية (بخاصة الفرنسية والانكليزية) تظهر في مواجهة كل

(١) Avignon إشارة إلى الفترة من تاريخ الكنيسة المسيحية (١٣٠٩-١٣٧٨) التي نقل خلالها كرسى البابوية من روما إلى أفنيون (فرنسا) وقد أطلق عليها وصف فترة "الأسر البابوي". وقد تعاقب على الكرسي الرسولي خلال تلك الفترة سبعة بابوات كان أولهم كليمنت الخامس وآخرهم غريغوري الحادي عشر. (المترجم).

منها الأخرى، وبينما كان البابوات، وبخاصة بونيفاتشى الثامن، إنما أيضاً يقولون الرابع، يحاولون إعادة إرساء وحدة أوروبية تحت العباءة البابوية (على نحو ما كان البابا إينوسنت الثالث قد حاول قبل ذلك فى القرن الثالث عشر. وكتاب الملكية موجه على نحو خاص إلى هذين التطورين: فهنا يقدم دانتي الحجج ضد السلطات الدنيوية البابوية وضد قيادات الأمة - المفردة^(٦) إن هوس الشاعر بحملته الصليبية ضد التورط البابوى فى المجال الزمنى قد شغله تماماً حتى الأنشودة الختامية من الكوميديا، التى تلحن فيها بياتريس فى كلماتها الأخيرة فى الفردوس، الأنشودة ٣٠ (١٣١-١٤٨) التورط السياسى البابوى مرة واحدة أخيرة.

وعلى الرغم من أن دانتي يخص بالذكر شخصيات تاريخية أو توراتية عديدة لها ارتباطها بالحملات الصليبية فى الأراضى المقدسة، فإن غرضه ليس دعم الرحلات إلى الأراضى المقدسة. فعلى السطح تبدو سماء المريخ تستخدم الخطابية الصليبية الحجية وتشجع الحملات الصليبية، ولكن دانتي فى هذا المضمار يترجم فعلاً الحملة الصليبية العسكرية المسيحية والأدب الذى يدعمها إلى شعر "صليبي"^(٧). هنا، فى الأنشودات المركزية من الفردوس، تصبح مهمة دانتي كشاعر "قضاء النص"، وسيط الرحلة الصليبية الشعرية لدانتي، نتيجة استشهاده أو منفاه. إن الصليب فى أفق سماء المريخ، الذى يربط دانتي بينه وبين كلمات يسوع (إنجيل متى، ٢٨: ١٠، ٢٤: ٢٤): "لكن من يحمل صليبه ويتبع المسيح" [الفردوس، ١٠٦: ١٤] تشير فى الذهن انتصار قسطنطين عند جسر ميلفيان، وكذلك خطابية صليبية كان الصليب فيها رمزاً لـ "جيش المسيح"، والطقوس الدينية الكثيرة للصليب. والأكثر دلالة من هذا أن دانتي يضع موطنه الجغرافى المباشر، فلورنسا، والإمبراطورية فى الواجهة. إن "علامة الصليب" مرئية بكل وضوح، ولكى يصف دانتي العلامة السماوية فإنه يدخل الإيقاع السجعى - كريستو (المسيح):^(٨)

"لقد أرسل على هذا الصليب المسيح

ضياءه الذى لا أعرف كيف أجد له نظير

أما ذلك الذى يحمل صليبه ويتبع المسيح

فسيففر لى ما أدعه بلا تعبير

حينما يرى ضياء المسيح

يتوهج فى ذلك الفجر [الفردوس، ١٤: ١٠٤-١٠٨].

فى المناسبات الأربع حينما يستخدم دانتي هذه القافية الواحدة، يلتفت الانتباه إلى المعارضات الثنائية، إلى أهل الداخل وأهل الخارج. وعلى سبيل المثال فإن القديس دومينيك فى الفردوس، ٧١: ١٢-٧٣-٧٥، بوصفه مزارع المسيح، [الفردوس، ٧١: ١٢]، تولى أمر القتال ضد الهرطقة [الفردوس، ١٢: ١٠٠]، وفى الفردوس، الأنشودة ١٩، يثير الإيقاع السجى Cristo (المسيح) أولئك الذين "يصيحون على نحو زائف المسيح، المسيح" (١٩: ١٠٦) ضد العاديين الذين لم يسمعو قط بالمسيحية، وفى الأنشودة ٣٢ يناقش القديس برنار على وجه التحديد الفرق بين زمن ما قبل وزمن ما بعد "معمدانية المسيح التامة" (٨٣: ١٩) ووجه مريم، الذى يماثل تماماً وجه المسيح (٨٣: ١٩). إن الإيقاع السجى بكلمة المسيح كما يتردد فى سماء المريح، وقد ربط بينه وبين أولئك الذين قاتلوا فى قضية دينية، يذكّر بالجدليات التى ترتبط بالسياسات والحروب المسيحية. أن لاهوت "المسيح" الأصيل (الأورثوذكسى) كإنسان كامل - إله متقمص هو قلب الدين المسيحى. والخلافات التى تدور حول هذا قد سببت أخطر الانقسامات بين المسيحيين وفيما بينهم، وبين اليهود والمسيحيين والمسلمين. ولكن التقاء دانتي بكاشياغويدا، بدلاً من أن يدعم دعوة سياسية صليبية، يقدم بديلاً للسياسات والخطابات الصليبية. ولا ريب أن أكثر جوانب أنشودات كاشياغويدا إثارة للفضول أن

وراء الإشارات القليلة التى يومئ بها إلى استشهاده [الفردوس، ١٥: ١٣٩-١٤٨] ينفق كاشياغويدا معظم وقته متحدثاً عن تاريخ الأسرة وفلورنسا ومستقبل دانتي^(٩).

وفى الفردوس، الأنشودة ١٥، فى حل مؤجل للعقدة، يخص دانتي كاشياغويدا بواحد وأربعين بيتاً ليصف فيها كيف كانت فلورنسا يوماً، ويختتم بأسرته هو واسمه وفى النهاية موته. ويواصل دانتي جمعه بين تاريخ فلورنسا وإدانتها فى الأنشودة التالية، وكما سيحدث فى أنشودات القديس برنار، يبدو هناك قمع لسياسات صليبية لصالح مسائل أخرى. وعلى الرغم من أن وصف كاشياغويدا لماضى فلورنسا هو إلى حد ما وصف مفرط فى الاحتشام، فإنه يربط بين "أفضل" أسرها وأفضل أسر روما ويرسم لها صورة الرعاية "تعيش أمنة، رصينة، عفيفة" [الفردوس، ١٥: ٩٩] ويتم إيضاح وصفى "الرصانة" و"العفة" على وجه التحديد: "فلا عقد ولا إكليل ولا ثياب مطرزة ولا زنار يمكن النظر إليها أكثر من النساء "أنفسهن" [الفردوس، ١٥: ١٠٠-١٠٢].

بالنسبة لكاشياغويدا كان الماضى الفلورنسى عصرًا ذهبيًا من البساطة والتواضع (الفردوس، ١٦: ٣٣-١٥٤)، قبل أن يجعل كافة المهاجرين والممتزجين من فلورنسا مدينة الخطيئة التى يصفها فى حاضرها. وهناك تلميح ممكن واحد إلى الحملات الصليبية، حينما يصفها - وقد حدد عائلات الماضى النموذجية - بأن "كل واحدة منها تعرف يقيناً موقع قبورها، ولا واحدة قد هجرت بعد فى فراشها، بسبب فرنسا [الفردوس، ١٥: ١١٨-١٢٠]. هذه الإشارة إلى الحروب التى صنعها الفرنسيون - التى أوضحها هيو كابيه^(ب) ملك الفرنجة (٩٨٧-٩٩٦) فى المطهر، الأنشودة ٢٠ - لا تستثنى الحروب الصليبية، سواء داخل أوروبا وفى الشرق الأوسط، كفرع واحد من

(ب) Hugh Capet (الصغير) ملك فرنسا (٩٨٧-٩٩٦)، وكان أبوه بالاسم ذاته - الدوق الأعظم لفرنسا دبورغوندى وأكوييتى وكاونت باريس وأورلينز (وقد توفى عام ٩٦٥) (المترجم).

الحروب التي تبناها الفرنسيون، فمن الحملة الصليبية الأولى كان الفرنسيون هم رعاة حملات الأراضي المقدسة الأوائل، التي قادت الناس إلى القبور بعيداً عن موطنهم^(١٠). وتتكرر إدانة كاشياغويدا لفلورنسا على لسان دانتى طوال القصيدة، وإن يكن بعبارات الشاعر نفسه الأكثر معاصرة. وعلى سبيل المثال قوله "أبتهجى يا فلورنسا، فأنت عظيمة إلى حد أنك تضربين فوق البحر واليابسة جناحيك واسمك منتشر في أنحاء جهنم!" [الجحيم، ٢٦: ١-٣].

يشاطر دانتى بالتأكيد قلق كاشياغويدا بشأن انحدار فلورنسا. إن فقرة في المطهر، يلتقى فيها دانتى بصديقة فوريزى دوناتى توحى بأن الشاعر وافق على أن كثيراً من نساء زمانه كن غير محتشمت. يتحدث فوريزى عن زوجته الفاضلة نيلا فيشير إلى "نساء فلورنسا سافرات الوجوه.... [اللاتى] يمضين يعرضن صدورهن مع حلمتهن" [المطهر، ٢٣: ١٠١-١٠٢] ويقارنهن بالسراسنة، البرابرة، هل تصلن إلى هذا الحد أبداً، وهن اللاتى لا تطالبهن بأن تتسرن عقيدة روحية أو غيرها؟ [المطهر، ١٠٣-١٠٥] هنا، يُرفع احتشام النساء السراسنة كنموذج لنساء فلورنسا، في نقد يوازى نقد كاشياغويدا وغيره في المسردات الصليبية. وتتفق هذه الملاحظة مع المسردة الصليبية التي تقارن محبذة أهل الخارج مع الصليبيين المسيحيين لكى تكشف عن فساد المسيحية اللاتينية. مع ذلك فإن من المثير للسخرية أن كاشياغويدا يفترض أنه مات فى حملة صليبية كانت موجهة ضد الشعب ذاته الذى يعتبر نساءه متفوقات فى الاحتشام على نساء فلورنسا اللاتى يؤنبهن.

وحيث إن معظم انتباه كاشياغويدا موجه إلى فلورنسا، فإنه فى الأسطر الأخيرة القليلة فقط يتحدث عن الصليبيين والشهداء الذين يملأون سماء المريخ، وهكذا يذكرنا بالحروب الدينية (الفردوس، ١٨: ٢٨-٣٦). "الصليب" ("La Croce") حافز قوى لتصور صليب قسطنطين فى الأفق؛ والكلمة تتكرر ثلاث مرات، وتتكرر كلمة عن الأبصار ست مرات ("منظر" mira) [الفردوس، ٣٤]، "حملق" [vidi ٢٧، ٤١]؛ "جذب نظرى المشتاق

نوران من بينهم/ كما تلاحق العين زوجي الطير" (٤٤-٤٥)؛ "اجتذب ناظري" (٤٧). والتأكيد على الإبصار المادى يشير إلى اهتمام دانتي كشاعر بجعل قارئه يعتقد أن هذه ليست مشاهدة رمزية، حتى وإن كان ما يشهده رمزياً. الخيارات اللغوية هنا تذكر على وجه التأكيد بالعلامة البصرية فى السماء التى كان من شأنها أن تحول الممارسات المكانية السياسية المسيحية. لكن، على الرغم من أن الصليب فى الأفق يذكر بتحول قسطنطين (إلى المسيحية) فإن له إشارات رمزية أخرى أكثر معاصرة. وعلى سبيل المثال فإن بونايفنتورا يذكر فى مقدمة كتابه *Itenerarium Mentis in Deum* أنه حينما تلقى القديس فرانسيس "خاتم المسيح" رؤيته للملاك الحارس (الساروفيم)^(٥٦) كان فى صورة المصلوب^(٥٧). إن التمثيل البصرى لـ "الخاتم" - مثل الصليب فى جناح القديس كليمنت فى روما أو بصورة أخص فى القبة الوسطى لساحة القصر أو سان أبوللينارى *Classe in Ravenna* - كانت صوراً عرفها دانتي^(٥٨). ليست هذه رموزاً لمسيحية عسكرية - سياسية، كما هو صليب قسطنطين فى الأفق. طبقاً للاهوت المسيحى الخلاصى، إنها علامات تضحية الرب القصوى من أجل خلاص البشر.

يبدو أن قائمة دانتي بالأبطال الذين حاربوا لاستعادة الأراضى المسيحية من أحدث غزاتها تدعم وحدة مسيحية تحت الراية الإمبريالية من النموذج الذى وضعه الكارولينيين. إن عدم التسامح تجاه الإسلام يوحى بـ أغنية رولان كنص فرعى مهم، بدعمها السياسات الإمبريالية الكارولينية وكشفها القتال الضروس بين النبلاء المسيحيين. مع ذلك، فإننى سأذهب إلى أن تلك الأنشودات التى تمتدح العمل العسكرى الدينى لم تكن عن حروب مع السراسنة، كما هو الاعتقاد السائد^(٥٩). إنما هى - بالأحرى - تشير إلى صراعات ألهمتها الرغبة فى وحدة سياسية ودينية. وعلى الرغم من أنه لا شك فى أن هذه الرغبة تترجم غالباً إلى عمل عسكرى ضد الإسلام،

(٥٦) فى المعتقدات اليهودية - وفقاً للتوراة - مى طبقة أولى من الملائكة حراس عرش الرب (المترجم) .

كما فى أغنية رولان، فليس هذا هو اهتمام دانتي الأولى. إن أولئك المنخرطين فى "حملات صليبية" وأولئك الذين يفردهم بالذكر كههدف للخلاص طوال الفردوس يوحون بأن اهتماماته تتركز بصفة أولية على الجبهة المسيحية اللاتينية: الصليبيون ضد الألبيجينسيين (فوكيه مارسيليا [الفردوس، ٩] والقديس دومنيك [الفردوس، ١٢]، وشارلمان ورولان ورينووار ووليا) وروبير جيسكار، جميعهم شخصيات ترتبط بأعمال عسكرية فى الأقاليم اللاتينية الغربية. ويمكن ربط غودفري بويون، بطل الحملة الصليبية الأولى بالوحدة المسيحية لأنها كما أطلقها (البابا) أوربان كان لا هدف أولى هو أن تخلص المسيحيون فى الأراضى المقدسة من الاضطهاد^(١٤). والمعارك التى يخصها دانتي بالذكر لتمثل الشهداء - الصليبيين تعطى معان ضمنية استفزازية بشأن سياسات دانتي واهتمامه بـ"فكرة أوروبا" كما طرحها مبدئياً فى كتابه الملكية. وهو يربط رولان وشارلمان ووليام ورينووار باستعادة التراب الفرنسى من الغزاة المسلمين. وعلاوة على هذا فقد عُرف روبر جيسكار النورماندى (الفردوس، ١٨: ٤٧-٤٨) بتوحيد جنوب إيطاليا وثقافات وسكان صقلية المتنوعين. أما غودفري بويون فكان قائداً للحملة الصليبية الأولى "المجيدة" (أى الناجحة) على القدس - وهى الحملة التى عجلت بها ظاهرياً حروب المسيحيين فى الشرق الأوسط - وأصبح أول حاكم مسيحي للقدس. ومن منظور دانتي، انخرط كل هؤلاء الرجال فى صراعات ضد نزعة الانقسام الداخلية، وخاصة نوعها الذى دمر رولان وكاد أن يقضى على رينووار.

بالإضافة إلى هذا فإن القائمة التى تضمها الأنشودة ١٨ فى الفردوس عن أولئك الذين حاربوا دفاعاً عن الوحدة المسيحية تأتى متعارضة مع الأنشودتين ١٩ و ٢٠ فى الفردوس اللتين تتناولان مسألة خلاص الأشخاص الفضلاء الذين لم يكونوا مسيحيين فى حين تقدمان أيضاً قائمة بالملوك المسيحيين الفاسدين. أحد هؤلاء هو شارل الثانى ملك نابلس، حامل لقب ملك القدس، الذى كان أبوه قد اشترى القدس فى عام ١٢٧٢ والذى كان هو نفسه متحالفاً مع البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢)^(١٥)، وأحد أشد

المؤيدين عناداً للحملات الصليبية على الأراضى المقدسة فى حياة دانتى نفسه^(١٦) . كذلك فيليب العادل، وهو مؤيد آخر للحملات الصليبية، يُدعى (الفردوس، ١١٩:١٩) ليحاسب عن تزييف العملة فى قلب أوروبا اللاتينية تحديداً. هذا التعارض بين قادة بطوليين وغاسدين يقيم تضاداً بين المسيحيين الذين يخوضون حرباً صليبية باسم وحدة مسيحية مقابل حملات صليبية تشن ضد أهل الخارج، وهذا التعارض يؤكد على إخفاق القيادات العسكرية والسياسية فى الأراضى المقدسة. إن الأبطال يمثلون هنا المسرح المسيحى اللاتينى - إذا جاز التعبير - يمثلون توجهها إمبريالياً رومانياً يقتصر على القارة الأوروبية، مع ارتباط غامض للأراضى المقدسة - الفضاء الوحيد فى آسيا الذى هو جزء من هذا التوجه - مع مسائل الوحدة اللاتينية.

أمير الفرنسيين الجدد، وقد أعلن حرباً بالقرب من لاتيرانو

لا على السراسنة ولا على اليهود،

ذلك أن كل عدو له كان مسيحياً

ولم يقدر لأى منهم أن ينفرد بمكان،

ولم يمارس التجارة فى بلاد السلطان". [الجسيم، ٨٥:٢٧-٩٠]

ويستخدم غيدو جداليات التحريض البابوية على حملات صليبية على النحو الذى وجد لدى أوربان الثانى وغريغورى السابع، فى انتقاد البابا لشنه حرباً ضد زويه أنفسهم بدلاً من أن يذهب الى عكا (التي سقطت بأيدي العرب فى عام ١٢٩١). ويسميتها "أرض السلطان". وقد أخذت هذه الملاحظة على أنها نواح مشحون بالعاطفة ضد الدعوة البابوية للحرب بين الممالك المسيحية - والتي تبررها البابوية كحملات صليبية - لأنها حوّلت الاهتمام عن الأراضى المقدسة. والحقيقة أن البابا بونيفاتشى شاور غيدو بشأن شن حرب فى إيطاليا. وبين عام ١٢٥٤ وعام ١٣٤٣ كانت البابوية منخرطة بصفة منتظمة فى شن حروب إيطالية - كانت بمثابة حملات تزامنت مع

أزمات في الشرق اللاتيني - ضد الحكام المسيحيين^(١٧) . وعلاوة على هذا كانت الحملات الصليبية الإيطالية تشن ضد الغيليين من توسكانيا ولومبارديا وداخل الدولة البابوية. والواقع أن مانفرد (Manfred)، نجل فريديك الثاني، وكان غبيلينيا اعتبره دانتي مستحقاً الخلاص (المطهر، ١٠٦:٣-١٢٥)، قد حارب بالفعل ضد الدولة البابوية^(١٨) .

مع ذلك كان بابوات القرنين الثالث عشر والرابع عشر مؤيدين وداعمين للحملات الصليبية في الأراضي المقدسة^(١٩) . وتحدد تسمية مثير الحرب - وكانت إثارة الحرب موضوعاً مركزياً في الجحيم- هوية غيدو الذي يقول هو نفسه "كنت رجل سلاح" [الجحيم، ٢٧:٦٧]. ويقول فيلاني أيضاً أنه كان "أكثر ذكاء ودهاء في عبقريته بشأن الحرب مما كان غيره في زمانه"^(٢٠) .

كذلك يسأل غيدو دانتي إذا كانت رومانيا - منطقته الخاصة - في حالة سلام أم في حالة حرب. ويوضح دانتي إلى أي حد حالة رومانيا آه، أيتها الروح المختبئة هناك في أسفل، ليست وطنك رومانيا، ولا هي كانت أبداً دون حرب في قلوب طغاتها" [الجحيم، ٢٧:٣٦-٢٨]. إن ملاحظات غيدو تدين بونيفاتشي الرابع مرة أخرى، وإن كانت تشير ثانية في سخرية إلى تبديد قدرته الراسخة على الشجار بين الإيطاليين، الأمر الذي كان الراعى له هو اللاتيني نفسه في أغلب الأحوال. مع ذلك فالأهم من هذا هو أن تعقيبات غيدو هي ذريعة لإخفاقه الشخصي^(٢١) . إذ أنه لا يمكن أن يكون ثمة شك في أن دانتي يشجب الإثارة البابوية للحرب في إيطاليا، أما إذا كان يؤيد أيضاً الحجج الصليبية فهذا أمر آخر. إن الإشارة إلى عكا تشعل حربين معاصرتين ضد كل منهما الأخرى: الحروب البابوية - مبررة كحملات صليبية - مقابل الصراعات المستمرة في الأراضي المقدسة.

في سياق الأنشودات العديدة التي تسجل فظائع الحرب تأتي خطبة غيدو بعد الأنشودة ٢٦ في الجحيم، التي فيها لا يستطيع صوت أوليس المنساب برق أن يغلب

تذكر فيرجيل "كمين الحصان" [الجحيم، ٥٩:٢٦] الذي يذكر، في مخيلة القارئ، بوصف فيرجيل احتراق طروادة. يستمر دانتي في أن يفض بصرياً كابوس الحرب بالوصف الذي يفتتح به الأنشودة ٢٨، التي تنافس الكتاب الثاني من الإنيادة لفيرجيل كشعر مناهض للحرب بعمق. وترسم الأنشودات من ٢٦ إلى ٢٢ صورة "غيرنيكية"^(٥) للخيانة والخداع والتخلي والخلاف، تصف خصائص الحرب وأولئك الذين يأججونها. مع ذلك يستدعي دانتي رؤيا أخرى لفضيحة الحرب، حينما تذكره الأرواح التي أصابها الهزال - في دائرة الشرهين في المطهر - بالحصار الروماني للقدس. والرؤيا نفسها تتذكر ماري، المرأة التي أجبرها الجوع على أن تأكل طفلها [المطهر، ٢٢:٢٨-٣٠]؛ وتتعارض هذه الفضيحة مع تذكر ستاسيوس للحدث نفسه باعتباره انتقام الرب العادل لجريمة يهوذا [المطهر، ٨٢:٢١-٨٤].

إن سمعة غيدو السابقة كرجل حرب تتفق مع دعمه للحروب الصليبية، لكن هذا أيضاً يستحق النظر في سياق دفاعه المبرر عن أفعاله، والذي يسعى فيه ببراعة إلى إلقاء اللوم على فساد البابا لما ارتكبه من أخطاء أخلاقية. وعلاوة على هذا يقدم دانتي هذه الحكاية مع إشارات إضافية إلى الماضي الروماني مترجماً إلى سياسات صليبية: بخطوة تحد منطقية يعادل غيدو غوايته على يد بونيفاتشي مع سعى قسطنطين بحثاً عن سيلفستر^(٤)، الذي أدى في النهاية إلى تحوله وإعلان مسيحية الإمبراطورية.

(ث) Guernica نسبة إلى لوحة بهذا الاسم رسمها بابلو بيكاسو عام ١٩٣٧ إبان الحرب الأهلية الإسبانية واعتبرت من أكثر اللوحات المعاصرة تعبيراً عن فظائع الحرب والشعور الوشيك بحلول النهاية. دون تفاؤل مباشر لمظاهر الحرب. وكانت "غيرنيكا" بداية لسلسلة لوحات تعبيرية لبيكاسو رسمها طوال عقد الأربعينات من القرن العشرين. (المترجم).

(ج) Sylvester قديس، واحد من أوائل اتباع القديس فرنسيس. (المترجم).

فماذا نحن فاعلون بملاحظة غيدو، التي تمثل بدقة نقدًا للسياسات الصليبية البابوية؟ تكمن الإجابة فيما إذا كان يمكن البرهنة على أن دانتي يدعم حملة صليبية في الشرق الأوسط كحل للقتال الضارى الدائر فى إيطاليا، أو إذا كان ثمة ساحة أخرى مقترحة. فى الحقيقة فإن هذا الأنشودة تشير ضمناً إلى حملة دانتي الصليبية، ذلك أن حالة غيدو هى مثال على الكيفية التى كان بها المنصب البابوى زمن دانتي يستخدم فى الصراعات السياسية المحلية، كنتيجة مباشرة لالتباس السلطتين الزمنية والروحية. كذلك فإن الإشارة إلى قسطنطين، على الرغم مما فيها من سخرية، إنما تشير إلى موضوع دانتي المستمر عن خطأ قسطنطين الذائع فى منح سلطة زمنية للحبر الأعظم فى روما- وهو خطأ أدى إلى خلق الدولة البابوية. ولأن وجود الدولة البابوية أقام سلطات زمنية بابوية، طور البابوات سياسات تدعو لحملات صليبية عسكرية ضد الممالك الغربية. وفى تحالف مع الأنجفين خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر الى منتصف القرن الرابع عشر، جعل طابور من البابوات المتعاقبين إيطاليا موقعاً لحملات صليبية عسكرية^(٢٢). وفى القلب من حملة دانتي الصليبية الخاصة^(٢٣) تكرر موضوع التدخل البابوى فى الشؤون الزمنية. وهو الموضوع المركزى للكتاب الثالث من الملكية. فيه يذهب دانتي إلى أن الطول لمشكلات رومانيا وإيطاليا والإمبراطورية كلها تكمن فى إصلاح مؤسسى وهيكلى ذى بناء قانونى، للكنيسة والدولة. أما أن يقترح دانتي عندئذ مغامرة عسكرية شرق أوسطية كحل للأزمات المؤسسية لأزمته فهو عبث. لأنه لا يلمح مرة واحدة فى الملكية إلى اقتراح كهذا؛ وإذا كان هناك شىء يقال فهو أن كلمات غيدو تحدد بدقة مدى الافلاس الأخلاقى للسياسة البابوية السياسية وممارساتها.

حينما يدين هيو كابيه كل المتحدرين من سلالة " لقد كنت أنا النبتة الشريرة التى تغطى بظلالها كافة الأراضى المسيحية حتى أن الثمار الطيبة لم تطرح منها إلا نادرًا [المظهر، ٢٠: ٤٣-٤٥] فإنه يقترح موقف دانتي بشأن الحملات الصليبية المعاصرة. إنه

يلوم السلالة الكابيه، الذين حملوا اسم فيليبس أولويس [المطهر، ٢٠: ٥٠-٥١] لإساعتهم حكم فرنسا وشنهم الحروب فى أنحاء البلاد المسيحية.

ويشمل تشهيره بكل الملوك الذين حملوا اسم لويس وفيليب، الملك لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، الذى شنت بدعم منه الحملة الصليبية الثانية، ولويس التاسع (ج) (١٢٢٦-١٢٧٠) الذى مات فى الأراضى المقدسة فى الحملة الصليبية الخامسة وطوب قديساً فى حياة دانتى. على الرغم من أنه لا يذكر أياً منهم باسمه على وجه التحديد. وحينما يحكى مجدداً حياة القديس لويس، يعترف جان دو جوانفيل (Jean de Joinville) صديق الملك وأحد المعجبين به - بأنه أيضاً فقد الاهتمام بالحملات الصليبية التى كان لويس التاسع يدعمها بكل عناء^(٢٤).

يكشف هيو كاييه سلسلة بأكملها من المكائد السياسية والهجمات العسكرية الفرنسية ضد انكلترا وهولندا وإيطاليا، ما أفضى بالنهاية إلى نقل البابا إلى أفنيون، ومن ثم يهاجم كاييه بضراوة الجشع باعتباره سبب هذه "الفوضى السياسية" الأوروبية:

"أه أيها الجشع، ماذا يمكنك أن تفعل أكثر مما فعلت بنا

بعد أن أغويت سلالتى حتى لم تعد

تعباً بقلذات أكبادها" [المطهر، ٢٠: ٨٢-٨٤]

إن هذه الفقرة، كواحدة من أشد الخطب السياسية والأخلاقية اللاذعة قسوة فى الملكية^(٢٥). لا تستهدف المسلمين أو غيرهم من أهل الخارج. على النقيض، إنها تتوجه

(ج) Louis IX ملك فرنسا الذى وقع فى الأسر فى مدينة المنصورة فى منطقة الدلتا المصرية عام ١٢٥٠ وكان ذلك بقرار منه تنادياً لإبادة رجاله الذين غزا بهم المدينة قبل أسابيع قليلة. وقد توفى بالقرب من مدينة تونس فى عام ١٢٧٠ خلال حملة غزو فاشلة قام بها. (المترجم).

إلى قلب السلطة المسيحية اللاتينية باعتبارها أساس الإخفاق الأخلاقي والسياسي الغربي. وتذهب حتى إلى حد إدانة أولئك الذين ذاع صيت قداستهم ممن تبنا الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة.

وثمة إشارة مهمة أخرى إلى الصراع العسكري من أجل الاستيلاء على الأراضي المقدسة، يحدث في الأنشودة التاسعة من الفردوس . وشأن كل تاسوعات الأنشودات، فإن الأنشودة التاسعة من الفردوس هي بمثابة عتبة. يدخل دانتى هنا سماء الشمس، حيث يواجه - بين آخرين - فولكو أو فولكيه المارسيلى. فيحكى قصة البغى راحاب - التى تظهر إلى جواره فى السماء، والتى ساعدت يشوع فى الاستيلاء على أريحا، ذلك الحدث ذاته الذى يسمح لدانتى بأن يسكن يشوع بين الشهداء: "لأنها أيدت أول مجد ليشوع فى الأراضي المقدسة، التى قلّ أن تطوف ذكرها بخاطر البابا". [الفردوس ٩: ١٢٤-١٢٦] ويذكر إريك أورباخ (Erich Auerbach) هذا النص بنوع خاص كواحد من الأمثلة على الكيفية التى يعمل بها نسق دانتى الجازى -التصويرى. إنه يذهب إلى أن يشوع كنوع من "المسيح" وراحاب باعتبارها "الكنيسة" قد فتحت الطريق أمام المسيح للاستيلاء المجازى على "القدس الخالدة"، ويؤكد أورباخ "أن كلا الأدبى والمجازى ينطبقان فى هذه الحالة. وفى الحقيقة فإن "سفر يشوع"^(٤٨) وقد أكسب طابعاً مجازياً بهذه الطريقة تحديداً فى القرن الثالث عشر يدعم حجة أورباخ^(٤٩). وعلى سبيل المثال فإن بوناڤنتورا يستخدم مثل دخول يشوع إلى أرض الميعاد وتقديم القانون وتلقيه كعلامات (أو معجزات) - ويتعبّر آخر كبراهمين على يقين الإيمان^(٥٠). وتتسق هذه القراءة غير الأدبية للرحلة إلى إسرائيل، بصورة تامة، مع الممارسات التوراتية التى وطدها بولس، الذى يكتب قائلاً (١) فأنى لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة أن أباعنا

(خ) هو السفر السادس بين أسفار العهد القديم. ويشوع هو الذى عزى زمام قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وهو السفر الذى تظهر فيه قصة البغى راحاب. (المترجم).

كلهم كانوا تحت الغمام وكلهم جازوا فى البحر (٢) وكلهم اصطبغوا على يد موسى فى الغمام وفى البحر. (٣)، وكلهم أكلوا طعاماً روحياً واحداً. (٤) وكلهم شربوا شراباً روحياً واحداً فإنهم كانوا يشربون من الصخرة الروحية التى كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح. (٥) ولكن أكثرهم لم يرض الله عنهم فإنهم صدعوا فى البرية. (٦) وهذه حدثت رمزاً لنا لئلا ننتهى الشرور كما انتهت أولئك. [رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتس ، الفصل ١٠: ١-٦] (د) .

فى مثل هذه القراءة الرمزية تصبح راحاب^(٢٨) كبغى وسيط قضية الحق (أو الكنيسة) على النقيض من الكنيسة الحاضرة (فى ظل البابا كليمنت الخامس). الكنيسة الآن ، شأن البغى فى الموكب فى الأنشودة ٣٢ من الفردوس (١٤٧-١٦٠)، وتذكراً لرؤيا يوحنا (١٨: ٢-١٠)، قد تخلت عن القانون كى تنطلق فى شراة مع سلطات الحكم العثمانية (فيليب العادل ملك فرنسا)، ومن ثم تدمر ذاتها. هذا هو - بالطبع - تفسير دانتى المجازى لسلسلة بأكملها من الاتصالات البابوية مع الفرنسيين، وشجارات بونيفاتشى الثامن، وفى ظل حكم البابا كليمنت الخامس، نقل الكرسي البابوى إلى أفينيون فى عام ١٣٠٥ . وإذ يربط فولكو (Folco) فعل راحاب الطيب بذاكرة البابا المخففة يشير إلى الأحداث التاريخية المعاصرة التى قد لا يكون لها كبير صلة بالسياسات الصليبية، لكنها ترتبط فى جوانب كثيرة منها بسياسات فى عالم المسيحية اللاتينية الغربى. وبدلاً من أن يسهل على المؤمنين رحلتهم إلى أرض الميعاد، فإن "بغى بابل" (أو البابوية التى امتلكت الكنيسة) تباع لحمها أو جسدها وتخونه وتلهو مع العمالة (الفرنسيين)^(٢٩) . وكما تشير تيودولندا بارولينى (Teodolinda Barolini) فى كتاب شعراء دانتى Dante's Poets فإن اللغة التى يستخدمها فولكو لوصف

(د) أثرت نقل الاقتباس من رسالة القديس بولس كاملاً من العهد القديم، وليس مجتزأً متقطعاً كما أوردته المؤلفة فى الأصل، حفاظاً على سياق النص المقدس وتكامله، وزيادة فى فائدة القارئ من إدراك المقصود بالاستشهاد المذكور. (المترجم).

راحاب - مقرونة بشجبه للبلاط الرومانى^{٣٠} هى لغة فظة تليق بصليبيى^(٣٠). مع ذلك، فبينما يضع الشاعر تركيز فولكو على مثال عسكرى محدد لعمل مسيحى فإن دانتي لا يتبنى هنا حملة صليبية فى الأراضى المقدسة. إنه بالأحرى يدين الكنيسة المعاصرة لتخليها عن واجبها باعتبارها عروس المسيح، عن طريق تواطؤ سياسى غير مشروع مع الفرنسيين واستعمال زائف لحملة صليبية لتبرير أفعال ضد المسيحيين فى إيطاليا وبلدان أوروبية أخرى^(٣١). تخنق البابوية - كحارس "للزورق الصغير" [المطهر، ١٢٩:٣٢] - أى الكنيسة، فى تذكر مسؤولياتها عن توجيه دفتها.

والحقيقة أنه فى حكاية فولكو فإن الأشعار التى تلى قصة راحاب تلقى ضوءاً على الكيفية التى بها تهجر الكنيسة الحاضرة واجبها أن ترعى قطيعها، حيث انحدار منزلة فلورنسا كمثل أولى على اهمالها. وعن البابا والكرادلة يلاحظ فولكو "أن أفكارهم لا تذهب نحو الناصرة حيث ينشر جبريل جناحيه [المطهر، ١٢٧:٩-١٢٨]. وهنا مرة أخرى لا يذكر دانتي بالاسم مدينة الناصرة باعتبارها موقع سياسات صليبية، إنما باعتبارها المكان الذى وقع فيه التجسيد، حيث أتاح تواضع مريم وبساطتها وطاعتها للكلمة بأن يتحول لحما، وباعتبار الناصرة الاسم الذى يذكّر بمعنى ذلك الحدث ويواصل فولكو- مستذكراً هذا الزنا الخائن ومذكراً إيانا بدم الشهداء الذى يقدس الأرض الرومانية - إدانة الكنيسة المعاصرة، فيلاحظ أن

الفاتيكان وسائر أنحاء روما الأخرى المختارة

التي أصبحت قبوراً للجند الذين اتبعوا خطى بطرس

سرعان ما ستتحرر من هذا الزنا. [الفريوس، ١٢٩:٩-١٤٢]

إن لاختيار فولكو تقديم هذه الأرض المقدسة المجازية عرضها رمزياً إضافياً. فإن فولكو، المولود نحو عام ١١٦٠، فى عائلة من تجار جنوه الأثرياء، كان شاعراً تروبادورياً (غنائياً) أصبح - بعد أن أمضى حياته فى المتعة فى بلاطات ريتشارد قلب

الأسد وألفونسو الثامن ملك قشتالة Castille وريمون الخامس (كونت تولوز) وباريل دوبو - محارباً عنيداً ضد الهرطقة الألبيجينية^(٣٢) . وفولكو هو - إلى جانب دانتي وسان فرانسيس - الشاعر العامي الوحيد في السماء. والأهم من هذا أنه كشاعر صليبي ضد هرطقة الألبيجينيين هو أيضاً شاعر فريد لأن التروبادور والتروفيير ومنشدي المينى Minnesingers الذين كانوا أساساً نقاداً للحملات الصليبية الألبيجية وندبوا باستخدام الصليبية البابوية ضد الهرطقة في الغرب^(٣٣) . وعلى النقيض من زملائه الشعراء، إنما شأن القديس دومينيك، حمل فولكو الصليب وقاتل ضد الخطر المتصور على حق المسيحية في قلب العالم المسيحي اللاتيني. إن أمثلة غيدو دا مونتفيلترو وفولكو ودومينيك تشير معاً إلى موقف دانتي بشأن شن الحملات الصليبية الغربية: إنه يجزى دومينيك وفولكو على صليبيتها العادلة ضد الهرطقة، لكنه يندد بالبابوات لدعوتهم إلى حملات صليبية للدفاع عن مصالحهم الزمنية والإقليمية. إن فولكو- شأنه شأن راحاب ويشوع - وعلى النقيض من الأرواح النازلة في الجحيم، وخاصة ميديوسا، في الأنشودة التاسعة من الجحيم، التي حاولت أن توقف رحلة دانتي - أعدوا طريق الرب (أشعيا، ٣:٤٠، مرقس، ١: ٢-٣) وهو موضوع ملانم لاستهلال ، خاصة وأن حياة دومينيك تتكشف في الأنشودة التالية.

وعلى الرغم من أنه من الواضح ان دانتي يؤيد الحملة الصليبية المجازية والحملة الصليبية الحقيقية - على السواء - ضد الألبيجيين، في سماء الشهداء، يبدو أيضاً أنه يتبنى خطابة صليبية تماثل تماماً الحروب ضد العالم العربي. فهو هنا يصف أولئك الذين قاتلهم كاشياغويدا باعتبارهم العامة الحمقى [الفردوس، ١٥: ١٤٥] و"القانون" الذي يتبعونه باعتباره الظلم [الفردوس، ١٥: ١٤٢] وهو يستذكر أيضاً لغة "الحرب العادلة"، "حرب" (١٤٤) حينما يشرح كاشياغويدا - جد دانتي الأكبر - أنه مات كشهيد مناضل. وأريد أن أفحص هذه السطور بعناية لأنني سأقترح قراءة بديلة للقراءة السائدة في الوقت الحاضر:

بعد ذلك تبعت الإمبراطور كونراد، لقد طوقنى بفروسيته

وقد فزت بالكثير من رضاه بما أديت من عمل طيب

وفى أعقابه ذهب ضد ظلم ذلك القانون الذى يغتصب

من يتبعوه حقكم بخطيئة رعيانكم.

وهناك خلصنى القوم الحمقى من عالم الخداع

الذى تتحدر كثير من الأرواح بمحبتها له

ولقد جئت من الاستشهاد إلى هذا السلام [الفريوس، ١٥: ١٣٩-١٤٨]

إن رأى الشائع هو أن كاشياغويدا قد اتبع كونراد الثالث (١٠٩٢-١١٥٢) فى الحملة الصليبية الثانية وأنه مات وهو يقاتل "الكفار"^(٢٤) فى عام ١١٤٧. وثمة التباس بشأن ما إذا كان بإمكان كونراد الثالث أن ينصبه فارساً: ولا يوجد سجل لأى فلورنسى نصب فارساً على يد كونراد الثالث، على الرغم من أنه توج فى ميلانو فى عام ١١٢٨. وأود أن أقترح أنه، وإن كانت هذه الفقرة يمكن أن تشير إلى الحملة الصليبية الثانية، فإن نوع اللغة المستعملة هنا يميز أكثر هجمات دانتي القادة الموجهة ضد فساد البابوية والممالك الغربية. ومن الأمور ذات الدلالة أن كتاب التسلسل التاريخى للأحداث وغيرهم من الكتاب الذين تناولوا الحملات الصليبية كانوا يستخدمون مثل هذا القدح ضد المسيحيين الذين كان اللوم على فشلهم يلقى نواقصهم الأخلاقية. وعلى سبيل المثال فإن جون سولزبورى John of Salisbury (الذى يميل لأن يكون مؤيداً للفرنسيين أكثر منه مدافعاً عن كونراد الثالث) يكتب - مع ذلك - عن الحملة الصليبية الثانية قائلاً إلى جانب سوء الطالع الذى ألم بالمسيحيين بفعل خداع الإمبراطورية البيزنطية وقوات الأتراك، فإن جيشهم قد أضعفته غير الأمراء وشجارات القساوسة. والجرمانيون رفضوا أن تكون لهم أية صلة بالفرنجة... قائلين إن الفرنجة

لا يعنون شيئاً لهم^(٢٤) . وبالمثل، يجد برنار فى كتابه De Consideration^(٢٦) أن المسيحيين اللاتينيين مسؤولون عن إخفاق الحملة الصليبية الثانية.

وخلافاً لكونراد الثالث فإن كونراد الثانى كانت له حملة فى إيطاليا، واتبع هناك سياسة صارمة، شبه وحشية. والحقيقة أنه تبنى خطأ سياسياً يعكس أشواق دانتي القانونية – السياسية الخاصة. وعلى الرغم من أنه سعى للحصول على دعم بابوى لمركزه الإمبريالى وتوج فى روما فى عام ١٠٢٨، فإنه – أى كونراد الثانى – شرع فى خفض السلطة الزمنية البابوية؛ وحينما أصدر دستوراً فى عام ١٠٢٧ أنهى العمل بقانون لومبارد اعتبر ذلك انتصاراً لطبقة النبلاء الرومان وحكومتهم لأن هذا الدستور أعاد إقرار شرعية روما الإمبراطورية. وعلاوة على هذا فإنه انخرط فى معركة ضد المسلمين فى إيطاليا حيث كان هؤلاء قد استقروا هناك لمدة مائتى سنة. والمهم أنه حينما أقام كونراد الثانى – وهو جرمانى – فى رافينا وفى روما أفضت مشاعر حادة معادية للجرمانيين هناك إلى وقوع اضطرابات خطيرة^(٢٧) . ويكتب جون سولزبورى عن كونراد الثالث أن جيشه دمر أولاً بفعل طيش الجرمانيين، فى حين تعرض الفرنجة للخطر بفعل اندفاع وإهمال جوفرى رانسون^(٢٨) (Geoffrey of Rancon). وإننى، إذ أقترح هنا أن دانتي قد بالغ فى قيمة الكونرايين ، فإننى أذهب إلى أن ما هو مهم فى دور كاشياغويدا فى القصيدة هو تركيز دانتي على الاخفاقات اللاتينية الغربية. لقد واجه كلا الكونرايين مقاومة شديدة لقيادتها الإمبريالية من النبلاء ورجال الدين المسيحيين اللاتينيين الآخرين.

يبدو أن كاشياغويدا يعتبر "الناس الرعاع" مسؤولين عن موته – لكن هؤلاء "الناس الرعاع" يمكن أن يكونوا هم أولئك الذين أحبطوا كونراد الثالث، وحينما يصف دانتي موت كاشياغويدا بأنه "شهادة" فإنما يجعل من حملته الصليبية الخاصة الشعرية والسياسية والشهادية الممكنة موازية لجده الأكبر. ومثل هذا التفسير يجعل حياة كاشياغويدا صيغة من تعريف بونافنتورا لـ "الشهادة". أى أنه – مصداقاً لخدمته

للإمبراطور الألماني - لم يغوه حب العالم، والنضال ضد "الناس الرعاع" (أولئك الذين تمردوا على حكم كونراد)، فكوفى كاشياغويدا على عمله الطيب وأتى إلى "هذا السلام" كواحد مات من أجل الحقيقة. وكما كتب بوناڤنتورا في مناقشته للشهادة "أى نبى لم يُضطهد فى موطنه؟ لقد كان هذا برهاناً على الحقيقة" (٢٩). كذلك فإن هذه القراءة تقرب قصة حياة كاشياغويدا إلى قصة حياة دانتي نفسه، وهى التى يخصص دانتي - من أجل كشفها - لكاشياغويدا المركز الوسط فى ظهوره الذى يشغل ثلاث أنشودات، يربط الشاعر فيها منفاه الشخصى باستشهاد سلفه.

فى الحقيقة، إن كتمان دانتي حملات الأراضى المقدسة الصليبية و تأكيده على حركة الغرب لرؤية الأيقونة الحقيقية (الفردوس، ١٠٤:٢١) يشير إلى الغرب باعتباره موقع التحول إلى المسيحية، وهو هدف الحج - الحملات الصليبية. ويجذب انغماس كاشياغويدا فى شواغل دولة فلورنسا الانتباه بالمثل إلى الحملات الصليبية التى اعتبرها دانتي جوهرية لإيطاليا المعاصرة. وبحلول نهاية القرن الثالث عشر، وبلا شك نتيجة سقوط عكا، كانت الحماسة العلمانية للحروب الدينية قد خبت. وعلى الرغم من أن بعض المؤيدين - بيير ديبوا وتاديو نابولى وفيدينزيو بادوا - على سبيل المثال - ظلوا على تأييدهم فإن مشاعر مناهضة للصليبيين نمت، ليس فقط بسبب إخفاقات الحملات العسكرية ضد الإسلام، إنما أيضاً لأن المواطنين كانوا قد سجلوا مظاهر فساد رجال الدين الغربيين وأصبحوا ينظرون إلى الحملات الصليبية كوسيلة لفرض الضرائب^(٤٠).

بين أصلب المؤيدين فى القرن الرابع عشر تتداخل الحياة العملية لاثنتين من الإيطاليين مع حياة دانتي: حياة تاديو نابولى (Thaddeo of Naples) وحياة فيدينزيو بادوا (Fidenzio Padua). آخرون مثل المحامى الفرنسى بيير ديبوا ومارينو سانودو - مثلهم مثل دانتي - كانوا يسعون إلى فضح فساد البابوية والتقاتل العشوائى بين المسيحيين^(٤١). فى كتاب De Recuperation Terre saucta الذى كتب فيما بين عام

١٣٠٥ و١٣٠٧ (بعد انتخاب كليمنت الخامس ونفى مقر البابوية إلى أفنيون) يذهب بيبير ديبوا إلى أن الحملات الصليبية والإجراءات الكنسية الأخرى (مثل الحرمان من الكنيسة) التي استخدمت ضد المسيحيين لأسباب سياسية كانت أمثلة على انتهاك سلطة الحبر الأعظم. وتظهر في مؤلف ديبوا - الذى يبرهن على مفهومه المتخيل عن غرب لاتينى موحد - سمات مشتركة مع كتاب دانتي الملكية. ذلك أنه يقترح سلاماً بين الملوك الأوروبيين كافة. وإصلاحاً وتعليماً كنسياً، وقمعاً لسلطة البابا الزمنية^(٤٢).

وعلى الرغم من أن ديبوا ودانتي يواجهان الأزمة السياسية والأخلاقية ويشتركان فى المعتقدات السياسية، إلا أنهما يعرضان حلولاً مختلفة للمشكلات التى يتناولانها^(٤٣). كتاب الملكية يلتزم الصمت بشأن الحملات الصليبية إلى الأراضى المقدسة. فى حين - على النقيض من ذلك - يشكل اجتياح الأراضى المقدسة الدافع الأولى المزعوم لكتاب ديبوا. فكتاب فى الاسترداد (De Recuperation) يقترح أن تكون الحملات الصليبية والوحدة الأوروبية تحت تصرف ملك فرنسا بينما يبقى البابا فى أفنيون. ويميز هذا بصورة جذرية سياسات ديبوا عن سياسات دانتي^(٤٤). وفى الأنشودة الختامية من المطهر يصف العلاقات الفرنسية - اللاترانية بأنها دعارة - إشارة إلى أنه يختلف جذرياً عن نظريات ديبوا التى يراها الفرنسيون ويؤيدونها سياسياً. كذلك فإن إدانة هيو كاييه للملوك الفرنسيين والموكب الذى يختم المطهر يدل بصورة مقنعة على إن دانتي لن يؤيد أياً من الزعامة الفرنسية لأوروبا متحدة ولا الحجج الصليبية التى كانت تدعمها. مع ذلك، فإننا نرى فى اثنين من أهم المناشير السياسية لفترة أوائل القرن الرابع عشر - منشورى دانتي وديبوا - مفهوماً أن لم يكن ممارسة لجماعة أوروبية متحدة.

وثمة برهان آخر على أن دانتي يرفض السياسات الصليبية وحججها التى كانت موضع مناقشة فى عهده هو جمعه فى الفردوس ، الأنشودة ١٩ . بين مسألة خلاص الوثنيين والحجج ضد فساد الملوك المسيحيين . بين هؤلاء الزعماء ملوك غربيون كثيرون

نشطوا بعد سقوط عكا، وتشير الانقسامات الحادة بينهم بصورة جازمة إلى إخفاقات غربية. تتضمن القائمة شارل الثانى ملك نابولى (١٢٧) الذى كانت له مزاعم فى مملكة القدس، وجيمس، ابن جيمس الأول الأراغونى (١٣٧) الذى حارب ضد بيدرو الثالث الأراغونى وخسر مملكته - بما فيها جزر الباليار وفالينسيا، التى كان أبوه قد انتزعها من العرب. ويشجب دانتى أيضاً بقوة فيليب العادل (١١٩) وألبرت الأول (١١٧) وإدوارد الأول وإدوارد الثانى ملكى إنكلترا (١٢١-١٢٢) وفريديناند الخامس ملك قشتالة (١٢٥) ودينيز ملك البرتغال (١٣٩) وكانوا جميعاً قد حملوا السلاح ضد ملوك مسيحيين آخرين. وأهم دلالة من هذا كله أن الشاعر يضيف هنرى الثانى من لوزنيان (Lusignan) ملك قبرص وملك القدس الاسمى (١٤٥-١٤٨). الذى أعيد خلال فترة حكمه الاستيلاء على عكا والذى كان داعية قوياً للحملات الصليبية؛ وقد أدى هنرى دور المخبر لصالح المجلس البابوى ومارس الضغط لدى كليمنت الخامس لإقناعه بدعم الحملات الصليبية^(٤٥).

إما أن يتبنى دانتى خطابات الحملات الصليبية على الأراضى المقدسة وسياساتها فى الأنشودة عن كاشياغويدا ليناكش تاريخ فلورنسا وتراثها الرومانى- وليناكش بالمثل مستقبلة الشخصى - فأمر يوحى بأنه لا ينظر إلى الحملات الصليبية كشاغل سياسى ملء، على الرغم من أنه يضع الأبطال الصليبيين، من مسيحي الغرب والتوراتيين على السواء - فى السماء ويشيد بشجاعتهم. والحقيقة أنه طوال القصيدة نلمس أن الانشقاق، سواء الفكرى أو السياسى أو الدينى، هو هدف مجادلاته. فبان اختيار دانتى للشخصيات التى تمثل الصوابية العسكرية - رولاند وشارلمان ووليام ورينوار، على سبيل المثال- يظهر تركيزه على أوروبا وهجومه على النزعة الانقسامية والتفتت داخل السياق اللاتينى الغربى. مع ذلك فإن قصص يهوشع ويهوذا التى كتبها ماكابوس تشير بطريقة مجازية إلى الصراعات والصدمات التى لا بد تسبق الدخول المظفر إلى أرض الميعاد الرمزية وتحقيق رؤيا السلام.

إن الأشعار المركزية فى أنشودات كاشياغويدا تأتى حينما يبلغ الجد الأكبر لجد دانتي بالصراع الذى سيخوضه فى المستقبل ، " هذه تفسيرات ما قيل لك " [الفردوس، ١٧: ٩٤-٩٥]؛ كان الشاعر قد أبلغ فعلاً بهذا الأمر فى مناسبات عدة خلال القصيدة، ولكنه فيما يبدو لم يصدق تماماً (فى الجحيم ١٠، ١٥، ٢٤ على سبيل المثال). يتبنى دانتي فى هذه الأنشودات - باثر رجعى - مشروع قصيدته، على نحو ما يصف كاشياغويدا بطريقة لازعة المعاناة الآتية، متحدثاً عن حفيده "سوف تترك كل شئ كنت مشغولاً به" [الفردوس، ١٧: ٥٥-٥٦]. وحينما يستمع دانتي إلى هذه الكلمات المريرة عن مستقبله، يستجيب بخطبته الشهيرة بالدرجة نفسها، والتى يضطلع فيها بمهمته كشاعر - وهى مهنة يربطها بخلاصه الشخصى: "من ثم فمن الخير أن أتسلح بالبصيرة، حتى إذا ما أخذ منى أعز مكان لدى لا أفقد كل ما عدا ذلك بسبب أغنياتى [الفردوس، ١٧: ١٠٩-١١١]. إن كاشياغويدا إذا يلقى على سليله مسؤولية إزالة كل زيف، وإبراز ما قد رأيت [الفردوس، ١٧: ١٢٧-١٢٨] إنما يجعل دانتي مسؤولاً عن حملة صليبية: إنها دعوة مناسبة حيث أولئك الذين ماتوا من أجل الحقيقة مباركون إلى الأبد. لا بد لدانتي - وقد دعى ليكون نبي الإصلاح - وهو إصلاح يتركز، بصورة لها دلالتها، على أوروبا - أن يصور. كل الأرواح ذات الشهرة" [الفردوس، ١٧: ١٢٨] فى حملته الصليبية. يتعين عليه أن يكشف فساد الكنيسة وفساد مدن إيطاليا، وفساد الملوك المسيحيين الذين رأهم فى "رؤاه" على النحو الذى يكشف النقاب عنه فى القصيدة. قبل ذلك كانت بياتريس قد حذرتة كى يتذكر ما رآه حينما كان الموكب يتكشف أمام عينيه "وما تراه فلتعتمد إلى كتابته حينما تكون قد عدت بعيداً [المطهر، ٣٢: ١٠٤-١٠٥]. يقبل دانتي هذه التحديات، ذلك أن رده على المنفى الوشيك هو أن يتولى دور الصليبي، ذلك الذى رؤاه لـ "المشاهد" ستنشر. أصبح شعره - على حد تعبير جيان روبرتو ساروللى "فن حرب أدبى": إنه كما الشهداء سوف "ينهض" و"ينتصر" [الفردوس، ١٤: ١٢٥] (٤٦).

يعود دانتي إلى مستقبه كشاعر منفى فى المقاطع ذات العلاقة فى الأنشودة الخامسة والعشرين من الفردوس- والأمر الذى له دلالة أنها أنشودة استفهامية عن الأمل، التى تصف دوره الشعري مع الأمل المسيحى. فهو هنا يقوم بدوره كاملاً، دور النبی الشعري، مشيراً الى قصيدته باعتبارها "القصيدة المقدسة" (الفردوس، ١:٢٥) ويعبر عن رغبته فى العودة إلى فلورنسا كشاعر (الفردوس، ٨:٢٥). وتهيمن لغة الحملات الصليبية والحج على هذا المقطع، حيث تبلغ بياتريس القديس جيمس أن "أمل" دانتي معبر عنه فى نضاليته الكنسية:

ليس للكنيسة المناضلة ابن يملكه الأمل أكثر منه، كما هو مكتوب فى الشمس التى تشع علينا بكل صفوفنا. لهذا أتيح له أن يأتى من مصر إلى القدس حتى يمكنه أن يراها قبل أن تكتمل الفترة التى يقضيها فى الحرب. [الفردوس، ٥٢:٢٥-٥٧]

تؤكد بياتريس أن روح النضال والأمل مكتنا دانتي - مثل يهوشع - من أن يأتى إلى القدس الرمزية (رؤيا السلام) من مصر الرمزية، إلى السماء قادماً من الأرض، وإلى الفردوس من الغابة السوداء. تلك كلها رحلات روحية أو مجازية يشكل شعره الطريق إليها. وفى الحقيقة، فإن القصيدة نفسها هى هذه الرحلة. إنها تمثل فضاء النص يتغلب على الحدود التى تفصل دانتي عن النظام الرؤيوى والتنظيم الذى يحكم عالمها الشعري، الذى هو أيضاً انعكاس للنظام الإلهي.

ليس دانتي وحده فى تولى هذا النوع من الحملات الصليبية. إنه يفرد - فى الفردوس - شخصيات كأمثلة على من شنوا هذه الحملات - القديس فرانسيس والقديس برنارد على سبيل المثال. فقد كان القديس فرانسيس - كالشمس التى تطلع فى الشرق- معروفاً بأنه سافر شرقاً فى محاولة لإقناع السلطان بالتحول إلى المسيحية^(٤٧).

فى حضرة السلطان المعظم بشر بالمسيح وبأولئك الذين ساروا على دربه، ولما وجد الناس غير مهينين للتحويل، وحتى لا يبقى بلا جدوى، عاد ليجنى حصاد حقول إيطاليا. [الفردوس، ١٠١: ١١-١٠٥]. تتوازى مقارنة القديس فرانسيس للحملات الصليبية مع مقارنة دانتى، ذلك أنه حينما وجد الناس غير مرحبين بمفاتحاته عاد إلى إيطاليا. وكصليبي حمل "علامة المسيح الأخيرة" [الفردوس، ١٠٧: ١١] فى أوروبا. ربما يكون القديس فرانسيس هو النموذج الذى يقترحه الشاعر للعلاقة مع الإسلام: محاولة حوار وتحويل فى العقيدة بطريقة سلمية، لكن إذا فشل هذان، يرفع الصليب فى إيطاليا. والواقع أنه على الرغم من عدم وجود دليل تاريخى على أن القديس فرانسيس عارض استخدام القوة ضد الإسلام، فإنه مع ذلك استنكر أفعال الجيش المسيحى، وأعتقد أنها ستؤدى إلى هزيمته.

وفى حين أن نظامى الرهبنة الجديدين - الدومينكان والفرانسييسكان - لم يعارضا بالتحديد الحركة الصليبية، فإنهما دافعا بالفعل عن تحويل العقيدة سلمياً. وهما فى هذا حذيا حذو مقارنة بطرس المبجل قبل قرن من الزمان. كان بطرس المبجل - وهو أول من أقر بضرورة حوار فكرى مع الإسلام - يعتقد أن الإسلام هو "عدو صليب المسيح". مع ذلك فقد أوصى بالقيام بجهود سلمية لتحويل العقيدة بدلاً من مواجهة حربية. وهو - فى الحقيقة - نازع برنارد كليرفو حول كيفية مقارنة الخطر المتصور على المسيحية الذى يشكله الإسلام. قال بأن الغرض من حملة صليبية هو تحويل العقيدة وأن سلوك الصليبيين قد قوض معظم الاهداف المركزية^(٤٨).

أما الرد الفرانسييسكاني على الحملات الصليبية التى رعاها الكرسي البابوى فى القرن الثالث عشر فقد كان متعدد الأوجه. وحينما كان بونايفنتورا يكتب مؤلفه عن حياة القديس فرانسيس، فإنه زار كل الأماكن الإيطالية التى عاش فيها هذا القديس، لكنه كرئيس للنظام الرهبانى كان يستنكر المشاهدة المادية كوسيلة للرؤية الروحية. وهو لم يزر أبداً ما كان يدعوهُ أرض الميعاد. وحينما يلاحظ فى بعض المواضع من كتابه

التعليق على لوقا يشبه بونا فنتورا الجغرافية- كما كانت ممارسته في التفسير التوراتي - فهو، على سبيل المثال، يجعل بيت لحم موقع تحقق وعد الرب بأن يوفر حاكماً تكون له السيطرة على إسرائيل ويدمر أعداءها ويقيم حكماً أبدياً (إنجيل لوقا-٢) (٤٩). وعلى الرغم من أنه يعترف بتاريخية أماكن معينة - فيلاحظ، على سبيل المثال، أن هيرودس حكم الجليل، ولكن القدس، حينما كان يحكمها بيلاطس البنطى، كانت هي مقر السلطة الرومانية (٥٠). فإن بونا فنتورا يتحدث عن "الأرض الموعودة" بوصفها مكاناً روحياً. كانت طريق العقل إلى الرب (٣) (Interarium Mentio in Deum) فكرته عن الحج، رحلة أوغسطينية (داخل أنفسنا)؛ فالأرض الموعودة كانت مكاناً للروح (٥١). مع ذلك فإن بونا فنتورا - بعد مجلس ليون، الذي كان قد اختتم ببرنامج للإصلاح الغربى للسلوك الكنسى والرهبانى، وبوحدة المسيحيين، والدفاع عن الأرض المقدسة - أوصى رسمياً بأن يصلى الأخوة للحملة الصليبية وييسروا بها (٥٢). ويطول عقد الستينيات من القرن الثالث عشر، كان نقاد فرانسيسكانيون، مثل روجر بيكون (٥٣)، يدلون بحججهم للتدليل على أن الحملة الصليبية عرقلت مشروعات التحول العقائدى وأن التبشير والتعليم يمكن أن يكونا أكثر نجاحاً (٥٤).

أما القديس برنار - آخر مرشد لدانتى فى القصيدة - فيصور فى واحد من أبرز مواضعها (الفردوس، ٣١: ٣٢-٣٣). إن القديس برنار - رمز أكثر أشكال الارتقاء التأملى جلالاً- فريد فى بابه لأنه حتى بياتريس تخضع له (٥٤). وإن يرتبط بصورة

(ذ) هذا عنوان أهم كتاب ألفه بونا فنتورا (المترجم).

(ر) Roger Bacon (١٢١٤-١٢٩٤) فيلسوف وعلم إنكليزى، أطلق عليه فى عصره لقب دكتور ميرابيليس (أى الجدير بالإعجاب). كان أهم مؤلفاته الموسوعة الكبرى Opus Majus التى دعا فيها إلى توسيع الدراسات المسيحية لتشمل العلوم والرياضيات إذا أريد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن تبقى قائدة للحضارة الإنسانية. فى عام ١٢٧٨ أعلن النظام الرهبانى الفرنسيسكانى الذى كان قد انخرط فيه قبل سنوات أن يكون مهترق وألقى به فى السجن فى عام ١٢٩٢ حيث مات. (المترجم).

تخيلية وتاريخية بالحملات الصليبية وتقديس مريم، فإنه يمثل صورة مصغرة الصلة الداخلية بين الإيديولوجية الجيوسياسية والاعتقادات الثقافية - الدينية. فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٦ كان برنار بيشر، داعياً إلى الحملة الصليبية الثانية تأييداً للملك الفرنسى لويس السابع، أحد الملوك حاملى اسم لويس الذين أدانهم هيو كاييه، والحملة الصليبية ذاتها التى يفترض أن كاشياغويدا لقي حتفه فيها . لقد أصبح برنار "المبشر الأساسى والروح الهادية للحملة الصليبية الثانية"،^(٥٥) يبلور الدعم العسكرى والسياسى لها. مع ذلك، فإنه كان يحظر على الرهبان حمل السلاح، وكان يأمر بمنع دخولهم البيوت البندكتانية إذا هم فعلوا . بالإضافة إلى هذا فإن كتاب *De Consideratione ad Eugenium Papam* - وهو الكتاب الوحيد لبرنار الذى يشار إليه على وجه التحديد فى أعمال دانتي - على الرغم من أنه يظهر أيضاً فى رسالة إلى كان غراندى ديلا سكال (Letter to can Grande della Scala) - وهى بحث من خمسة أجزاء عن العلاقة بين الكنيسة والدولة. ويعالج الفصل الثانى نتائج الحملة الصليبية الثانية، أما بقية الفصول فيحض البابا (يوجينيوس الثالث، الذى يوجه البحث إليه) على أنه يتعد عن الأمور الزمنية وعن خطط السلطة.

وقد ألف كتاب *De Consideratione* فى لحظة كان يُحتفى فيها بنظرية سياسية قوية عن "الإمبراطورية البابوية" تصل رجوعاً إلى الأفكار القسطنطينية التى تحولت آنذاك إلى ملكية بابوية. لقد تحول تومه إلى النصوص التوراتية (مفاتيح ملكوت المسيح [إنجيل متى، ١٦: ١٩]، لأنه جلب سيفاً وليس سلاماً [إنجيل متى، ١٠: ٣٤-٣٥]؛ وأمره بأن "أعط ما لقيصر" [إنجيل متى، ٢٢: ٢١] وإنجيل مرقس، ١٢: ١٧، وإنجيل لوقا، ٢٠: ٢٥]، يستنكر برنار النظرية التى تضع سلطة البابا على الدولة باعتبارها سقطة خطيرة ويدعو متشدداً إلى فصل السلطات. وحينما يركز برنار على الغرب اللاتينى يحمل تبريره لمعارضة هذه السياسات البابوية كثيراً من ملامح التماثل مع الفصل الثالث فى كتاب الملكية، الذى فيه يطور دانتي أسبابه لدعم فصل السلطتين الكنسية

والزمنية - من ناحية مبدئية على أساس قول لوقا عن "سيفين"^(٥٦)(ز) . ويقرب بونا فنتورا شواغل برنار إلى زمن دانتي، فنجد أن كتاب بونيفاتشي الثامن الواحد المقدس Unam Sanctam (١٣٠٢)، الذي يعنفه دانتي في الفصل الثالث من الملكية، كان إحياء للنظرية الإمبراطورية ذاتها التي ساق برنار حججه ضدها. في هذه الوثيقة يؤكد بونيفاتشي أن الكنيسة مفوضة من الرب كحاكم في الملكوت الزمني وأن السلطة الزمنية ينبغي أن تخضع للسلطة الروحية^(٥٧) . إن كتاب برنار De Consideratione وبالمثل بعض رسائله ومقالاته الأخرى تبين أنه كان مضطرباً أشد الاضطراب بسبب تورط الكنيسة في شؤون دنيوية وأنه كان يعتبر هذا السبب والنتيجة على السواء للثروة والسلطة السياسية.

ولا يبدو أن ثمة شيئاً مشتركاً بين برنار الذي نراه في الكوميديا و برنار الذي كان يشر بالحملة الصليبية الثانية. مع ذلك فإن الأنشودات التي يظهر فيها وهو يلح من طرف خفي إلى الصليبيين وإلى الأزمة التي لم تحل، أزمة فصل السلطات - التي تشير إليها بياتريس غاضبة، في آخر كلماتها قبيل تولى برنار مباشرة دوره كمرشد: وعلى ذلك الكرسي العظيم.

سيجلس الروح الذي سيصبح في هذا العالم إمبراطوراً

روح هذا المعظم الذي سيأتي ليقوم إيطاليا

قبل أن تكون مهياة لذلك [الفردوس، ١٣٣:٣٠-١٣٣٨]

ومثل ماركو لومباردو، الذي يشير إلى "الإرشاد السيء" [المطهر، ١٠٣:١٦] وهيو كابيه، الذي يختار "الجشع" [المطهر، ٨٢:٢٠] باعتباره المجرم، تلقى بياتريس اللوم على "الطمع الأعمى" [المطهر، ١٣٩:٢٠] بشأن الأزمة الراهنة:

(ز) في إنجيل لوقا (٢٨:٢٢) "فقالوا يا رب إن ههنا سيفين، فقال لهم يكفي" (المترجم).

وعلى هذا سيصبح عندئذٍ حاكماً فى المنصة الإلهية
من لن يسير معه علناً أو سراً فى الطريق ذاته
إنما ليس لوقت طويل، فالرب لن يدعه
فى هذا المنصب المقدس، بل سيرديه الى أسفل

حيث سمعان المجوسى يكفر عن خطاياہ [الفردوس، ١٤٢:٣٠-١٤٧]

وتسجل كلمات بياتريس الختامية، بينما يتم الانتقال إلى أنشودات برنار التأملية،
تسجياً يبقى إلى الأبد التدخل السياسى من جانب البابا فى مغامرة هنرى السابع
الإمبراطورية. كذلك فإن تلك الكلمات تستذكر الإصلاح البنىوى الذى اقترحه دانتي فى
كتابه الملكية باعتباره قلب دعواه السياسية: الفصل بين السلطتين الكنسية والزمنية.
وهذه هى ذاتها الشواغل البنىوية التى يثيرها برنار فى De Consideratione. وفى كلا
هذين الكتابين فإن محور التركيز الجغرافى هو الغرب اللاتينى.

تحدث ذكريات إضافية عن تاريخ برنار السياسى فى الأنشودة ٣١ من الفردوس.
هاتان الإشارتان إلى الحجاج هما تشبيهان يشبه دانتي فيهما نفسه بحاج. وبالنظر
إلى النماذج بين المحارب الصليبي والحاج فى الخطاب الصليبي، لا يمكن أن يكون
هذان التشبيهان عارضين. فى أولهما يستذكر دانتي سلوك الحجاج والعهود التى
يقطعونها على أنفسهم، وهم الذين تجددهم رحلاتهم، وهو يجعل من أسفاره الشعرية
رحلة أوغسطينية موازية لرحلات أولئك الحجاج (الفردوس، ٤٣:٢١-٤٨). أما الإشارة
الثانية فى الأنشودة إلى رحلات الحج فإنها ذات علاقة خاصة ببرنار لأنها تشير إلى
"فيرونكا":

وشأن من كان ربما، يأتى من كرواتيا

لكى يلقى نظرة على تحفتنا فيرونكا

دون أن يشبع بها جوعه القديم إليها
إننا يقول متفكراً في ذاته طالما كانت معروضة
"يا يسوع المسيح إلهي، الرب الحق، : أكانت صورة وجهك هكذا إذن؟"
هكذا كنت بينما أبعد النظر إلى المحبة الحية
لمن ذاق بفعل التأمل في هذا العالم
طعم ذلك السلام (الفريوس، ١٠٣:٣١-١١١)

إن عدداً من السمات في هذه الإشارة الثانية يبدو موجهها نحو أدبيات الحملات
الصليبية - الحج. أولاً التركيز الشديد على البصر، حيث فيرونیکا شيء ينبغى أن
يرى. وبينما كلمات "نظر" (Veder) و"عرض" (mastra) و"منظر" (sembianza)
و"مشهد" (Mirando)^(٥٨) توحى جميعاً بالرؤية المادية، فإن البصر المادى يخفق في
إشباع الحاج. والتأكيد على البصر الأدبي هو السمة الأكثر تماسكاً من سمات
مسردات الحملات الصليبية - الحج، إبتداءً من إيجيريا (س) وجيروم (ش). وفي الحقيقة ،
فإن داعى الذهاب إلى الأماكن المقدسة هو رؤيتها. ولكن دانتى يتجاوز هذا البعد في
الحملات الصليبية. فهو - بصورة غير تقليدية - يمثل حاجاً صليبيّاً يسافر باتجاه
الغرب، وليس باتجاه الشرق، ليرى الأيقونة الحقيقية. فدانتى - مثله مثل القديس
فرانسيس الذى عاد من حيث يحكم السلطان، ومثل القديس بطرس والقديس بولس

(س) Egeria في الأسطورة الرومانية هي الأنثى الشقيقة التي أملت تعاليمها على نوما بوبيليوس Numa
Pompilius (٧١٥-٦٧٢ ق.م.) ثانى ملوك روما في تشريعاته المتسمة بالحكمة. وقد أصبحت التسمية
إيجيريا صفة كل امرأة تمارس نفوذاً على سياسى. (المترجم).

(ش) Jerome (٣٤٠-٤٢٠) أحد آباء الكنيسة الغربية الأوائل، وهو الذى ترجم الصيغة اللاتينية من الإنجيل
تحت إشراف البابا داماسوس، استناداً إلى مصادر عبرية يونانية. وهى تعد ترجمة أدبية حرة لكنها لا
تزال الصيغة اللاتينية المعتمدة، رسيما من الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

الذين أتيا إلى روما، وأيضاً مثل أنياس - يتحرك في اتجاه مناقض للسياسات الصليبية. بالإضافة إلى هذا فإن "كرواتيا" و"فيرونيكا" تشيران إلى الشرق الأورثوذكسى، تومنان إلى الحملة الصليبية الثانية السيئة الطالع. وطبقاً لرواية أودو دويل (Odo of Deuil) عن هذه الحملة - التى استغلت المشاعر العنيفة المعادية لليونانيين- كان المسيحيون اليونانيون الأورثوذكسيون يجدون أنفسهم غالباً متحالفين مع المسلمين الأتراك ضد الصليبيين الفرنسيين، الذين كانوا يبذون - بلا شك - مثل جيش غزاة. إن تشبيه دانتى الثانى يغير مظهر الحملة الصليبية - الحج، فالشاعر يمعن النظر الآن. لا فى برنار إنما فيما يرمز إليه، "الحيوى".

"La vivace/ carita di colui che'n questo mondo, / contemplando, gusto di quella pace."

هكذا، يركب برنار الحب الذى ذاق عن طريق التأمل (وليس عن طريق المشاهدة المادية، إنما الإبصار الرمزي الفيكتوري - البونافنتورا) طعم السلام الأبدى.

يلمح دانتى بطريقة خفية - باستخدامه هذين التشبيهين هنا - إلى تاريخ برنار عن الحج - الصليبي، وطريق الاستنباط فحسب، إلى حملته الصليبية الخاصة من أجل إصلاح السياسات البابوية. لكنه يؤكد اكتشاف برنار بصرًا حقيقياً فى التأمل. إنه يربط برنار بمريم - وبالتحديد مريم بوصفها الوسيط إلى الرؤية النهائية - وليس بدوره الصليبي. إنه يحول تاريخ برنار طبقاً لنظام برنار الخاص للتأمل، الذى يشير إلى سلم التأمل باعتباره الرحلة إلى "السلام الأبدى". مع ذلك فإن برنار هو تجسيد قوى على نحو رمزي لمركب اللاهوت والنظرية الكهنوتية والسياسية الزمنية. والشعر والتأمل، ذلك المركب الذى يطوره دانتى طوال القصيدة^(٥٩) وفى الحقيقة فإنه من بين جميع مرشدى دانتى طوال الكوميديا، يختار برنار ليكون معه أكثر السمات المشتركة، ذلك أن برنار جمع بين حياة نسك نموذجية (حياة فقر شاركه فيها دانتى أيضاً بسبب المنفى) ولاهوت سياسى وشعر دينى وصوفية. وصلاة برنار للعدراء مريم فى الأنشودة

٣٢ من الفردوس، وإن تكن انعكاساً دقيقاً للاهوت برنار الخاص، هي -فوق كل شيء- -
شعر دانتي (ص).

يشيد دانتي - فى الكوميديا - بفولكو والقديس دومينيك، اللذين يذكرهما
لدوريهما فى الحملات الصليبية الأليجينية. وهو يلاحظ شارلمان وكثيرا ممن كانوا معه
فى سماء الشهداء لدورهم فى النضالات اللاتينية الغربية . وهو يعنف أولئك الذين
يدعمون حملات صليبية زائفة، أى أولئك الذين دعاهم البابوات ليكونوا بمثابة ستار
دخان تختفى وراءه معاركهم الخاصة المادية والسياسية. أما عن الحملات الصليبية
للأراضى المقدسة فإن دانتي - وإن كان يضع الملك المسيحى الأول للقدس المستعادة
مع الشهداء الآخرين - يتجاهل ذكرى دور برنار فى الحملة الصليبية الثانية ويتجاهل
كذلك تبشير يواكيم فيورى (ض) ضد الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب عنه ساليمبيني
(Salimbene) فى كتابه الأسفار (Cronica) (٦٠).

(ص) تعد صلاة القديس برنار - كما صيغت فى الأنشودة الأخيرة من الفردوس- من أروع أشعار دانتي
ذات الطابع الدينى، ولعل من المناسب أن نسرد منها جزءً يدل على المعنى الذى أراده المؤلف فى هذه
الفقرة:

آيتها الأم العذراء، يا ابنة ابلك

يا صاحبة المكانة الأوضح والأرفع بين المخلوقات

يا غاية ثابتة تتجه نحوها غايتنا الأبدية

أنت التى أكسبت طبيعتنا البشرية رفعتها

حتى أن الخالق ليخلق ذاته جعلك خالقه

فى جنينك أوت شعلة المحبة

التي أنبتت بدقنها فى السلام الأبدى

هذه الزمرة الخالدة... [الفردوس، ١:٣٣-٧] (المترجم).

(ض) Joachim of Fiora (١١٣٠-١٢٠٢) دير رهبان كالايريا. (المترجم).

حينما يواجه دانتي كاشياغويدا وطابور الشهداء يتولى الدور الصليبي ذاته، يستخدم لغة المسردات الصليبية ذاتها، ويسمح لنفسه بالتمتع بلذة اللعان في أضواء مجد أسلافه المشاهير، تلك اللذة المريبة، ولكن قصيدته وبوره كشاعر يحيل الحملة الصليبية العسكرية إلى رسالة هدفها إصلاح الغرب، وحين يركز حقيقة على أوروبا سياسية مفهومية، فإنه يشير إلى رجال الكنيسة الفاسدين والبابوية الفاسدة، والملوك، المواطنين الغربيين الفاسدين، ويشير أيضاً إلى النظام القانوني الذي انحطت قيمته، يشير إلى كل هذا الذي كان مزدهراً في أوروبا السياسية المفهومية هذه. يعطيه القديس بطرس - باعتباره البابا الأول والصوت الأكثر معرفة في السماء، المسؤولية عن هذا الإصلاح. وبعد أن يلقي بطرس خطبته الهجومية الحامية المؤلفة من ٢٣ سطرًا ضد الكنيسة بسبب الجشع وشراء المناصب والانقسام والنزوع إلى الحرب ضد المسيحيين (وهو ما يمكن أن ينطبق بالدرجة نفسها على حملات صليبية زائفة يرعاها بابوات، وعلى التقاتل بين الأوروبيين) والتكريس للمصالح الزمنية [الفريوس، ٢٧: ٤٠-٦٣]. ويقول بطرس لدانتي: "أفتح فمك ولا تخف ما لا أخفيه" [الفريوس، ٢٧: ٦٥-٦٦]. لقد تولى كثير من أدبيات الحملات الصليبية والحج - التي تستمد معلوماتها من تفسير أدبي للتوراة - رسالة دينية سياسية تسعى لإقامة السلام في بلاد التوراة وعززت الكراهية للشعب الذي يعيش هناك. وعلى الرغم من أن دانتي يستعمل لغة الحملات الصليبية، فإنه يتبنى دور نبي، فيحيل أهدافها المادية والعسكرية إلى رسالة شعرية، أخلاقية - سياسية تهاجم الفساد الغربي البنيوي والفردى، وتتيح له رحلته الفرصة لرؤية أشياء العالم التي يحمل مسؤوليتها كنبى صاحب رؤية، وهو ما يقدمه إلى قارئه في حجته الصليبية من خلال النص.

هوامش الفصل الثالث

نشرت صيغة سابقة من هذا الفصل في فصلية دراسات عن دانتى (١٩٩٨) ١٢٥:٩٥

(١) فكرة القصيدة كلاهوت شعري ودانتى ككاتب إلهى طورها عدد لا يحصى من الباحثين لكن انظر بشكل خاص: (ص ٨٨- هامش ١)

(٢) ها هو ذا قيصر، وكل خط سلالة يوليوس.

جميع الذين سيمرون يوما ما تحت قبة

السماء العظمى: هذا هو الرجل، إنه هذا الواحد

الذى فى الأغلب سمعتم عن الوعد به.

قيصر أوغسطس، ابن المؤله

الذى سيجلب مجددا عصرا ذهبيا

إلى لاتيوم، إلى البلاد التى حكمها ساتورن

فى الأزمنة القديمة. لسوف يمد سلطانه

إلى ما وراء الفارامانات والهنود

فوق أقاليم بعيدة فى شمال وجنوب

نجوم الأبراج، فى الدرب الشمسى.

حيث أطلس حامل السماء على كتفه

يحول الكرة السماوية الليلية المرصعة بالنجوم الملتهبة

[الإنبيادة ٦ ، ٧٨٩-٧٩٧]

(٣) بشأن إحساس دانتى برسالته كشاعر، انظر: (ص ٨٨- هامش ٢).

(٤) إننى أتفق فى هذا مع الحجة التى قدمها مؤخراً سكوت Dante's Political Purgatory; فى Limentani فى The Mind of Dante وأنتريف Entreves فى الفصل الثانى من Dante as Political Thinker ، والذي يذهب فيه إلى أنه بالنسبة لدانتى فإن إصلاحاً بنيوياً من شأنه أن يقيم من جديد القانون الرومانى- تحت حكم إمبراطور، على النحو الذى طوره فى الفردوس، الأنشودة ٦، يرفع عن كاهل إيطاليا أزماتها السياسية-الدينية. إن شاغل دانتى الأول هو مزج توأمة السلطة أى الكنيسة والدولة، التى يلقى اللوم بشأنها على منحة قسطنطين والتى أدت إلى تفتت القانون الرومانى وإلى ضعف الإمبراطورية السياسية، وإلى انحلال الكنيسة الأخلاقى.

(٥) بشأن مناقشة لهذه الفقرات اللمية، انظر (ص ٨٩- هامش ٥) وبشأن مناقشة لنواحى التوازى بين دانييل والأنشودات الثلاث الأخيرة من المطهر، انظر: Pézard, "Daniel et Dante", 1-96.

(٦) (ص ٨٩- هامش ٦).

(٧) هذا واحد من الموضوعات الأساسية التى طورها شتاب Schnapp فى Transfiguration.

(٨) للاطلاع على مقالة مثيرة حول هذا الموضوع انظر: Hardt, "The Christo- Rhymes, The Greek Cross and Cruciform Geometry", وبشأن مناقشة موسعة وبرهان على الآثار الضمنية للتراثى المسيحية، انظر: Hardt, "The Christo-Rhymes and Polyvalence", Die, 39-87, Zahl.

(٩) لن أقدم تحليلاً كاملاً لهذه الأنشودات، إننى أحيل إلى شتاب Schnapp, (ص ٨٩- هامش ٩) (بشأن الموضوعات الموازية بين الأنشودات، وخاصة المنفى وفلورنسا والبعث) (ص ٨٩- هامش ٩).

(١٠) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٠) .

(١١) (ص ٨٩- هامش ١١) .

(١٢) تأثير النقوش فى رافينا مركزى فى أدلة شتاب Schnapp فى كتاب Transfiguration, 170-238.

(١٣) على سبيل المثال فإن ملاحظات سنغلتون Singleton على الأنشودة ١٨ من الفردوس هى مثال على قناعته (انظر ص ٢٠٦).

(١٤) يظهر كثير من الصيغ المختلفة لهذه الخطبة فى عديد من تواريخ الحملات الصليبية. لكن لأن كتاب وليام صور William of Tyre أصبح منتشرًا على نطاق واسع بفضل الترجمة وإعادة التحرير، فإننى أحيل إلى روايته فى هذه المناقشة، انظر: (ص ٨٩- هامش ١٤) وبشأن جذور الحملات الصليبية وتبريراتها انظر أردمان Erdman, The Origin, 6-66.

(١٥) (ص ٨٩- هامش ١٥).

(١٦) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٦) ٧٤-١١١ ، ٧٣-٥١، Fideles Grusis .Shein الذى يغطى دعم نيكولاس الرابع لحملات الأراضي المقدسة.

(١٧) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٧).

(١٨) حينما توفي كونراد شقيق مانفريد تولى مانفريد الوصاية على صقلية عن ابن أخيه كونرادين، ولكنه ولى العرش فى عام ١٢٥٨، فطرده البابا أوربان الرابع من الكنيسة وعرض العرش على لويس التاسع عشر ملك فرنسا لكن الأخير رفضه، ولهذا أعطى العرش لشارل أنجو شقيق لويس، جدد البابا كليمنت الرابع عرش سلفه ودخل شارل إيطاليا. وهذه حالة محددة للتصادم بين البابوية والفرنسيين.

(١٩) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٩) الذى يناقش فيه نيكولاس الرابع والبابا بونيفاتشى الثامن ودعمهما لحملات الأراضي المقدسة الصليبية.

(٢٠) انظر : (ص ٨٩- هامش ٢٠).

(٢١) انظر : (ص ٨٩- هامش ٢١).

(٢٢) (ص ٨٩- هامش ٢٢).

(٢٣) (ص ٨٩- هامش ٢٣).

(٢٤) (ص ٨٩- هامش ٢٤).

(٢٥) (ص ٨٩- هامش ٢٥).

(٢٦) (ص ٨٩- هامش ٢٦).

(٢٧) (ص ٨٩- هامش ٢٧).

(٢٨) انظر أرمور Dante's Griffin, Armour 215-83، أما أن "عامرة" المطهر، الأنشودتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين، تمثل البابوية الفاسدة، فتؤيدها أدلة R.E. Kaske القائلة بأن الموكب فى الأنشودة ٣٢ يصور المراتب الكنسية السبع. انظر: The Seven Status Ecclesiae.

(٢٩) (ص ٨٩- هامش ٢٩).

(٣٠) انظر: (ص ٨٩- هامش ٣٠).

(٣١) انظر: (ص ٩٠- هامش ٣١).

(٣٢) انظر: (ص ٩٠- هامش ٣٢).

(٣٣) (ص ٩٠- هامش ٣٣).

(٢٤) تعبير سنغلتون Singleton، الفريوس ص ٢٥٩ وحسب Forti في Cacciaguida وفيه يستعرض التناقضات التاريخية في رؤية دانتى لحياته الأخرى، أن كاشياغويدا موثق باعتباره عاش في القرن الثاني عشر، فلا بد أن يكون كونراد الثالث قد جنده ليقا تل في الاراضى المقدسة، حيث استشهد في سبيل العقيدة.

(٢٥) (ص ٩٠- هامش ٢٥).

(٢٦) (ص ٩٠- هامش ٣٦).

(٢٧) (ص ٩٠- هامش ٣٧).

(٢٨) (ص ٩٠- هامش ٣٨).

(٢٩) (ص ٩٠- هامش ٣٩).

(٤٠) (ص ٩٠- هامش ٤٠).

(٤١) للاطلاع على نص ٢١١-١٥، De Recuperatione Terre sancte, Dubois، انظر: (ص ٩٠- هامش ٤١) وللإطلاع على نص يبشر بالحملات الصليبية في فرنسا في العقد الثاني من القرن الرابع عشر، انظر: (ص ٩٠- هامش ٤١).

(٤٢) بشأن السلام، انظر ديوبوا Dubois (ص ٩٠- هامش ٤٢) وبشأن نزاع السلطة الزمنية عن البابا، انظره ٤٢٦، ١.

(٤٣) انظر: (ص ٩٠- هامش ٤٣) ويربط هاوسلى Housely بين ديوبوا ودانتى كناقدين للبابوية، تحديداً بسبب انتهاك المفاتيح والاستخدام البابوي للحملات الصليبية لمزايا سياسية أوروبية. انظر: The Ital-ian Crusades, 37.

(٤٤) انظر: (ص ٩٠- هامش ٤٤) بشأن الاختلافات حول الحكم الفرنسي/ قيادة العالم اللاتيني، انظر Di-otti, 61-62, "Dubois e Il De Recuperatione,".

(٤٥) (ص ٩٠- هامش ٤٥).

(٤٦) انظر: (ص ٩١- هامش ٤٦) وفيه يذهب إلى أن دانتى مفوض كشاعر وكنبي في هذه الأنشودة: لقد استثمر الصليبي العجوز سليله بمهمة صليبية جديدة. Transfiguration, Schnapp, 48, 103.

(٤٧) يبنى دانتى هذا على سيرة بوناڤنتورا عن القديس فرانسيس. انظر، ٢٦-٢٢٣ Leg-, Bonaventure, ende di S. Francisci، وبشأن مراجع أولية لا حصر لها عن زيارة القديس فرانسيس لـ"الشرق" Orient - بما فيها، بين مراجع أخرى كتابات Jacques De Vitry، Thomas of Cela، Bonaventure، no، (١٢٠٠-١٢١٥) Biblioteca bio-bibliografica.

(٤٨) انظر: (ص ٩١- هامش ٤٨).

- (٤٩) (ص ٩١- هامش ٤٩).
- (٥٠) (ص ٩١- هامش ٥٠) .
- (٥١) (ص ٩١- هامش ٥١).
- (٥٢) انظر : (ص ٩١- هامش ٥٢).
- (٥٣) انظر : (ص ٩١- هامش ٥٣).
- (٥٤) Dante et Saint Bernard, Masseron, ٤٠ من الدراسات التي صدرت مؤخراً عن دانتي وبرانار (ص ٩١- هامش ٥٤) وانظر أيضاً Aversano, _ "San Bernardo e Dante" ويشأن خلفية كاملة عن وثبت مراجع لمناقشة أوجه تماثل واختلاف دانتي وبرانار فيما يتصل بالعلاقة بين الكنيسة والدولة - السيفين- انظر Botterill, "Not of this world".
- (٥٥) انظر (ص ٩١- هامش ٥٥) .
- (٥٦) بشأن مناقشة لأوجه التماثل بين انتقادات دانتي للكنيسة والسلطة الزمنية ونقد برنار, انظر: Masse-ron, Dante et Saint Bernard, ٥٢-٢٢٣ .
- (٥٧) انظر: (ص ٩١- هامش ٥٧).
- (٥٨) (ص ٩١- هامش ٥٨).
- (٥٩) يذهب أفيرسانو Aversano إلى أن تأثير برنار واضح في الأنشودة الأولى من الجحيم, التي تكشف عن تحول (في العقيدة) على النمط البرناردي. انظر (ص ٩١- هامش ٥٩).
- (٦٠) (ص ٩١- هامش ٦٠).

الفصل الرابع

دانتي والإندوس: خلاص الوثنيين

لقد ولد رجل على ضفاف السند^(أ)

حيث لا وجود لأحد يحكى عن المسيح

أو يقرأ أو يكتب عنه

[الفريوس، ١٩: ٧٠-٧٢]

قدم الفصلان السابقان الدليل على أن دانتي يتخيل الإسلام والشرق باعتبارهما "الآخر" الذى يحدد على خلفيته أوروبا اللاتينية، مع ذلك فإن الشاعر لا يسعى للتغلب على ذلك الاختلاف أو إغفاله. على النقيض من ذلك فإنه يشرع فى إظهار أنه فى حين أن العالم الإسلامى ليس شاغله المباشر، فإن أوروبا اللاتينية - التى تمرقها الأزمات والانحلال - هى محل همومه. يصور دانتي الإندوس على أنه يمثل تناقضاً دينياً لا يسهل حله سواء فى قصيدته أو بواسطة المسيحية. فهو عوضاً عن استخدام الإندوس حصرياً ليشير إلى اعتقادات شعبية ومعاصرة، سياسية واجتماعية ودينية أو كتحيزات بشأن أماكن وراء الفضاء الثقافى المسيحى - الرومانى، يستخدم دانتي

(أ) من المهم أن يلاحظ القارئ أن السند هو الاسم العربى لنهر "الإندوس"، وأن هذه التسمية الأصلية للنهر هى أيضاً تسمية الريانة والحضارة والثقافة التى يجرى الحديث عنها من جانب دانتي، ذلك فى هذا الكتاب. (المترجم).

الإندوس كآلية شعرية لكى يطرح تساؤلات عن قضية مركزية تتعلق بالمشروع الثقافى - الدينى الذى يشرع فى إنجازه فى الكوميديا. ومما يدعو للسخرية أن الشاعر نفسه الذى يضع الصرح الضخم الاستثنائى للديانة التى تحتضنها قصيدته ضد التناقض الذى يُفرض عليها فى البلاد الواقعة فيما وراء خريطته الجغرافية - الثقافية. من ناحية هناك الهوة المجهولة التى تكمن فيما وراء مضايق هرقل فى فضاء دانتي الدينى - الجغرافى، حيث تدفق المياه يغلق حول أوليس ويضمن لعنته الأبدية (الجحيم، ٢٦). ومن الناحية الأخرى، يستخدم الشاعر الإندوس - وهى جزء من العالم المعروف - ليطرح قضية الكيفية التى بها يستطيع رب عادل أن يلعن الفاضل الذى لم يسمع بالمسيحية. "الإندوس" - التى يعرفها إى. آر. كورتيس E. R. Curtius بأنها موضوع ادبى للطرف الشرقى للأرض^(١) - احتفظت بهذا الدور الأدبى على الرغم من رحلات ماركو بولو إلى الصين. لقد ظلت تظهر فى أعمال أخرى فى القرن الرابع عشر كتبها بترارك وتشوسر على سبيل المثال، ككناية عن أطراف الأرض.

يصبح "الشرق" Orient - "الإندوس" فى هذه الحالة - وسيلة دانتي للنظر فيما إذا كان الخلاص يوجد خارج المسيحية. إن ظهور ريفيوس (Ripheus)، وهو وثنى من زمن ما قبل المسيحية (الفردوس، ٢٠: ٦٨) من إنيادة^(٢) فيرجيل، وترايان وهذا وثنى من زمن ما بعد المسيحية (الفردوس، ٢٠: ٤٤-٤٥)، وكاتو الجمهورى الوثنى (المطهر، ٢١) يقدم تساؤلات عن الخلاص خارج زمن المسيحية وعن سماء يهودية - مسيحية استثنائية. فإذا كانت الأنشودة ٢٠ فى الجحيم - بأجسامها المشوهة، أجسام العرافين والمنظرين العلميين الوسيطيين- إنما يشير إلى نظرية العالم المقابل للكرة الأرضية. وإذا كان المطهر فى الأنشودة العشرين يعطينا حدثاً محدداً عن شخص ما تم خلاصه خارج تبرير الثقافة المسيحية، والأنشودة التاسعة عشرة فى الفردوس، حيث مسألة الإنسان العادل على ضفاف نهر الإندوس (Indus) تختبر ما إذا كان الخلاص ممكناً

فيما وراء الفضاء الذي انتشرت فيه المسيحية. يستخدم دانتى حدود البلاد المسيحية لإثارة التساؤلات عن عدالة الرب، لأن التساؤل عن الخلاص خارج المسيحية هو - في حقيقة الأمر - تحد إنساني عقلانى للعقائد التى تلقيناها.

هذه المحنة ليست فريدة لدانتى. فى الحقيقة، هى محنة مركزية بالنسبة للمسيحية. فى رسالة القديس بولس إلى الروم يذكر آراء عن الخلاص النهائى، مدافعاً بالحجج عن عدم شمولية عدالة الرب: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه، ما أبعد أحكامه عن الإدراك وطرقه عن الإدراك". (العهد الجديد، رسالة القديس بولس إلى أهل رومية، ١١: ٣٣). على هذا الأساس يُخضع بولس الحكمة الفلسفية للحكمة الصوفية. ولقد نوقش الموضوع من زمن أوغسطين حتى القرن الرابع عشر، حيث قدم اللاهوتيون باستمرار الحجج على أن رحمة الرب النابعة من العناية الإلهية والنية الطيبة لغير المسيحيين والخلاص ينبغي أن تكون متاحة لأولئك الذين عاشوا قبل المسيح وأولئك الذين لم يسمعوا بالمسيح أبداً. وعلى سبيل المثال فإن أوغسطين يقول فى *De Vera Religione*:

إن المسيحية فى زمنه كانت الدين الحق الأوحى؛ ولكنه فى كتابه التراجعات *Retractionum* - حيث يشير إلى أن المسيحية لم تكن موجودة فى الزمن القديم - يتفق مع القول بأن خلاص المسيح ينبغي أن يكون متاحاً لكل فرد من بداية الزمان لأن غاية الرب من خلق العالم كانت هى خلاص الإنسانية^(٣). ويذهب هيو سانت فكتور إلى أنه حيث لا توجد إمكانية لتلقى التعميد يمكن للمرء أن يتلقى نعمتها دون تلقى القربان المقدس الحقيقى. لأن سلطة الرب ليست مقيدة بالسلاسل إلى القرايين المقدسة^(٤). ويعلم البرت الأكبر أن كل مزايا الرب مقدرة بالتساوى لكل أولئك الذين لديهم الاستعداد لتلقيها^(٥). ويصر توما الأكوينى على أن الرب لم يختَر فئات معينة من الأفراد باعتبارهم أرجح للخلاص من غيرهم، لأنه أيا كان من يؤمن بعناية الرب يمكن

أن يربح حياة أبدية^(٦) . وعلى أساس رسالة بولس إلى الروم، يذهب بيبير أبيلار^(ب) إلى أن الخلاص لابد أن يكون متاحاً لكل من هو عادل بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه^(٧) . إن عناية الرب هي الأرحم^(٨) . وباختصار فإن كافة اللاهوتيين الكبار في تلك الفترة يعتقدون أنه في غياب معرفة بالوسيط. تجعل الثقة بالعناية الإلهية الخلاص ممكناً ، لا يمكن أن يحصر الخلاص زمنياً أو مكانياً بالمسيحيين المعمدين^(٩) . ومن الواضح أن العقيدة لم ترغم دانتى على أن يستثنى الوثنيين من السماء أو من المطهر، وهو في الحقيقة - وكما بينا - يضم عددا من الوثنيين من حقبة ما قبل المسيحية وما بعدها. من ثم فإن تساؤلاته بشأن غير المسيحيين فيما وراء الأقاليم الرومانية في سياق هذه القصيدة الثالوثية بدرجة عالية هي تساؤلات استفزازية.

يحثو دانتى في استخدامه للموضوع الإندوسى حنو فكرة أوغسطين عن الهنود التأمليين والفلسفيين، التي كان أوغسطين يشارك فيها أوريوس^(١٠) . وليست هذه الفكرة انعكاساً لقوالب نمطية عنصرية أو عرقية، طبقاً لها كان الهنود - باعتبارهم - آريين أخيراً، بينما العرب - باعتبارهم لا آريين - أشراراً. يقر دانتى - على غرار أوغسطين - بوجود ممارسات أخلاقية ودينية في الهند، مثل الزهد والتأمل، مماثلة للشعائر المسيحية. مع ذلك فإن الشاعر كان يتصور أن هذا العالم إنما يقع فيما وراء الأمانى الثقافية - السياسية لمجاله الخاص. وسأقدم الحجج على أنه بإدخاله الإندوسية في قصيدته إنما يدخل صعوبة مع الخريطة الإمبراطورية - الدينية التي طورها في كتابه الملكية ويدعمها في الكوميديا، ذلك أن البلاد والشعوب الواقعة فيما

(ب) Pierre Abélard (١٠٧٩-١١٤٢) فيلسوف سكولائي (مدرسى) ولاهوتي فرنسى اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً في النزاع اللاهوتي في زمانه بين النزعة المفاهيمية والنزعة الاسمية. فأخذ بالقول بأن الأشياء المحددة والمفاهيم الكلية كلاهما حقيقيان. لكن أبيلار أغضب رجال الكنيسة الذين كانوا يؤكّدون على الإيمان لا على الجدل والبرهان، بأخذه بالمقاربة العقلانية. عززت كتاباته التيار الأرسطى في المنطق على النظرية الأفلاطونية. (المترجم).

وراء حدود الإندوس تتحدى يقينيّاتها الإيديولوجية. إنه عوضاً عن تخيل وجود قارة رابعة، حيث يعيش الناس الذين لا يتحدرون من سلالة آدم وحواء، يسير في طريق ألبرت. يقدم الهند والحبشة في منطقة قفراء، ولكن هذه المنطقة يمكن الوصول إليها من المناطق الحارة، كما كان يقول ألبرت. مع ذلك فإن الشاعر يعرف هذه المناطق بصورة محددة بأنها وراء خبرة المسيحية اللاتينية، على الرغم من حقيقة أن الهند - في حياته وفي تقاليده الأدبية - كانت معروفة ومدمجة في المغامرات التجارية الغربية على السواء.

يشير دانتى إلى البيئة الإندوسية أو الشعب الإندوسى على وجه التحديد فى عدد من المناسبات فى الكوميديا (الجحيم، ٣١:١٤-٣٢؛ المطهر، ٥:٢، ٢١:٢٦، ٢٧:٢٤، ٤٠:٤٢؛ القديس، ٥١:١١؛ ٧٨-٧٠:١٩؛ ٩٧:٢٩-١٠٢). وهو يدخل أيضاً كلا من سميراميس^(٣) (الجحيم، ٥) والإسكندر (الجحيم، ١٤) فى هذه المناقشة حيث يتذكرهما كشخصيتين أسطوريّتين حاولتا غزو الهند، مع ذلك، وبسبب شكوك عامة بشأن ما إذا كان الإسكندر فى الجحيم، الأنشودة ١٢، هو المقدونى، فإنتى لا أضم هذه الأنشودة.

عبر أورويسوس وأوغسطين والموسوعيين، كان سميراميس والإسكندر كلاهما مرتبطين فى التخيل بالهند فى العصور الوسطى، ودانتى يتبرأ منهما كليهما. ففى أعقاب روايات عن الفيضان وعن انقسام العالم إلى ثلاثة أقسام، يلتفت أورويسوس والموسوعيون إلى سميراميس باعتبارها أول من حكم بعد زوجها نينوس مؤسس بابل القديمة، أول ممالك العالم. وعند أورويسوس، الذى يضع الأحداث حسب علاقتها

(٣) Semiramis ملكة آشورية كل ما يعرفه التاريخ عنها أنها كانت أم الملك نينوس، وأنها كانت امرأة ذات أهمية هائلة لحقبة طويلة من حكمها وما بعده. والمعتقد أنها كانت بابلية الأصل، وقد أدخلت عبادة إله بابلى فى المعبد الآشورى. وقد حاربت ببراعة ضد الكلدانيين. أما سميراميس الشخصية الأسطورية التى تحدث عنها كثيرون من مؤلفى الإغريق فكانت زوجة للملك نينو وينت بابل بعد موته. (المترجم).

بتأسيس روما، إن سميراميس خلفت نينوس عندما مات "قبل ألف وثلاثمائة عام من تأسيس المدينة"^(١١). استطاعت سميراميس، التي تقمصت روح رجل وارتدت ثياب ابنها - حسبما يقول أورو سيوس - أن تحافظ على شعبها في حالة انشغال شديد لمدة اثنين وأربعين عاماً بقتل شعب آخر. وبالمثل فإن إيزيدور ينسب لسميراميس الفضل في توسع بابل بعد موت زوجها^(١٢). ويردد فينسان بوفيه رواية إيزيدور ويربطها بصيغة أورو سيوس^(١٣). وفي كتابه Tresor يحذو برونيتو حذو هذا التقليد الراسخ. فهو يكتب أن نينوس حك أسيا كلها عدا الهند، وأن سميراميس - التي كانت أشرس وأحمى دما من أى رجل - كانت أقسى امرأة في العالم^(١٤).

وفي أنشودة الشهوانيين يُبدى دانتي اهتماماً بسميراميس - التي ربطها أورو سيوس وفينسان وبرونيتو أيضاً بمحاولة لغزو الهند - باعتبارها "إمبراطورة تحكم من يحكون لغات كثيرة" [الجحيم، ٥٤:٥] - أكبر من اهتمامه بأى شخصية ملكية أخرى هناك^(١٥). وإخلاصاً منه لمصدره أورو سيوس يستذكر دانتي أن سميراميس "كانت قد استسلمت للشهوة إلى حد أنها جعلت الشهوة مباحة في قوانينها" [الجحيم، ٥٥:٥-٥٦]. إمبراطورة البلاد التي يحكمها السلطان [الجحيم، ٦٠:٥]. لقد قادت سميراميس شهوتها إلى انتهاك القانون الذي سنته لإخفاء ارتكابها سفاح القربى، وفي مناقشته سميراميس في كتابه الملكية يعيد دانتي ما ذكره كتاب أورو سيوس التاريخ، ويذكر قراءه بأن سميراميس حاولت إخضاع أسيا بأسرها بقوة السلاح (الملكية، ٢-٨-٣-)، مع ذلك فإن دانتي في الكوميديا يسهب في شأن انتهاكاتها الجنسية والعواقب السياسية لتلك الانتهاكات، مبرزاً فساد البابليين الذين حاولوا - كما فعل المقدونيين - غزو الهند.

أما ظهور الإسكندر، في الكوميديا - كموضوع أدبي في قصيدة رومانية وكشخصية تاريخية - فيثير تلقائياً مسائل الإمبراطورية والتوسع العسكرى والانحلال والتوجه شرقاً وانهيار دول الامبراطورية. ولقد كان الإسكندر - تقليدياً - يمثل تضاداً

تاريخياً وتهديداً نفسياً للرومان على السواء، لأنه غزا الهند وهم لم يفعلوا. وقد سقطت إمبراطوريته، التي بناها على الحرب وعلى القمع القتالي للشعوب المسالمة، وبالمثل قد تسقط إمبراطوريتهم. وعند دانتى سميراميس والإسكندر، على السواء هما مثلان للتوسع الإمبراطورى الذى لا يسترشد بغاية إلهية. وهما - فى الحقيقة - يمثلان نزعة المغامرة العسكرية والاكتساب كغايات مجانية فى ذاتها.

إن أحد المصادر الرئيسية للمعلومات عن رحلة الإسكندر إلى الهند بالنسبة لكتاب العصور الوسطى هو بلىنى. فى الكتاب السادس من مؤلفه التاريخ الطبيعى Natural History يصف بلىنى بلاد الهند وشعبها وأنهارها وجبالها، ولكى يعطى فكرة ما عن الهند فإنه يتبع خطى الإسكندر إلى عبور نهر السند. فتلك كانت الغاية التى تنتهى إليها رحلته: وهى حقيقة أثارت خيال رومان القرن الأول الأدبى^(١٦). وحينما حاول الإسكندر أن يقود قواته إلى الداخل الهندى، شكا الجنود من أنهم كما لو كانوا يؤخذون إلى كآبة وظلمة وليل أبدى، حيث الطبيعة عديمة الحيلة أمام البحر العميق وحشود الوحوش المفترسة^(١٧). وقد أوقفت مسيرة الإسكندر شكواهم، التى أضيفت إلى تمرد سابق. هذه النهاية للعالم المعروف وطدت حدوداً متخيلة للعالم الغربى، محاولة لنهر الكانج، الذى كان قد أصبح موضوعاً رئيساً لكتاب الرومان فى القرن الأول. ولدانتى فى الكوميديا. وعند الرومان كان نهر الكانج أكثر من الجبهة الشرقية التى أخفق الإسكندر فى التغلب عليها: إنه نهاية الأرض^(١٨).

ويتبع دانتى أيضاً خطى أورويسيوس وأوغسطين والتقليد المشائى الرومانى فى التنديد بالإسكندر بسبب تعظيمه ذاته من خلال العنف العسكرى وتوسعه إلى داخل الهند. ويكتب أورويسيوس أن "الإسكندر كان لديه جوع لا يشبع إلى الدم البشرى. سواء كان دم الأعداء أو الخلفاء وكان يتعطش دائماً الى إهدار الدماء من جديد"^(١٩). وحسب أورويسيوس فإنه بعد حالة اهتياج إلى الغزو اجتاح الهند بهدف توسيع

إمبراطوريته من المحيط إلى الشرق^(٢٠) . وعلى النقيض من هذا، يصف أوغسطين - الإسكندر - رافضاً بأنه قرصان^(٢١) .

وفى أثناء فترة العصور الوسطى المتأخرة فإن القصص ذات الشعبية الكبيرة عن الإسكندر أوجدت دعماً خيالياً للهجمات العسكرية فى الشرق الأوسط، المنطقة التى كان الإسكندر قد اجتاحتها. كانت قصيدة الكساندرايدوس -Alexandreidos وهى قصيدة لاتينية لغوتيه دو شاتيون Gautier de Chatillon (١١٧٨-١١٨٢) كتبت على غرار ثابتيد Thebaid ملحمة ستاتيوس^(٥) والإنيادة ملحمة فيرجيل - ذات شعبية فى فرنسا القرن الثالث إلى حد أنها أصبحت كتاباً مدرسياً أساسياً يستخدم لتدريس الجغرافية والتاريخ وأصبح يعلّق عليه عوضاً عن الإنيادة. وبالإضافة إلى إضفاء طابع رومانسى على الإسكندر وغزواته العسكرية فإن قصيدة الكساندرايدوس مليئة بأعاجيب الشرق: أناس بريون ووحوش برية ورحلات الإسكندر، أولاً تحت الماء وبعد ذلك إلى السماوات فى عربة جياذ جامحة تجرها أربعة من حيوانات الغرفين^(٢٢) . لقد استغلت حكايات مغامرات الإسكندر استغلالاً كاملاً الشرق "الغرابى". وتكشف نظرة خاطفة إلى الإشراقات التى تدعم هذه القصص مواجهات الإسكندر مع مجموعة كاملة من الأجناس المتوحشة (الأحياء المائية، السيكلوبات، غانيات الماء اللاتى يفتك احتضانهن باحبائهن، والسينوسيفالى، والبشر بلا رؤوس وما إلى ذلك) وهو يهزمها جميعاً أو يروضها^(٢٣) .

ويبين كتاب فينسان التأمّل التاريخي Speculum Historiale تحولاً آخر فى مقاربة تاريخ الإسكندر، يبتعد جذرياً عن التقليد المشائى الذى عامل الإسكندر باعتباره مولعاً بالقتال ومنحل^(٢٤) . وعلى الرغم من أن فينسان لا يتغاضى عن نزوع الإسكندر الطبيعى

(٥) Staluis (٩٦-٤٤٥) شاعر لاتينى وملحمته شايبيد - المؤلف من ١٢ كتاباً كانت تتناول الشخصيات الأسطورية التى عرفت فى ملحمة السبعة شد طيبة للشاعر أسخيلوس والتى تتناول الحرب بين أبناء أوديب على عرش طيبة. (المترجم).

إلى الخطيئة - وهو ما فصله بعناية الكتاب الرومان القدامى - فإنه يجعل منه محرراً على نحو ما، ويسهب في استيلائه على القدس وتحريره اليهود من دفع الفدية للسامرة^(٢٥). كذلك فإن فينسان يضمن كتاباته وصفا للروائع التي رآها الإسكندر في غزوه للهند^(٢٦). وبهذه الإضافات إلى قصة الإسكندر يعزز فينسان جاذبية المقدوني الفكرية والسياسية، وهذه الأخيرة أكثر أهمية. وفي حين أن إبيزودور يعرف الإسكندر، ببساطة بأنه فاتح آسيا^(٢٧)، يقدمه فينسان باعتباره تلميذ أرسطو، حاكم محارب مثقف وشعار فكرة الحكم على نحو أكثر اتساقاً مع الطموحات الإمبراطورية للدولة - الأمة الفرنسية البازغة حيث عاش فينسان وكتب.

صيغة برونيتو للإسكندر في كتابه الثروة Trésor - الذي كتب هو الآخر في فرنسا - هي أقل قسوة من صيغة أوغسطين وأورورسيوس. إلا أنها - شأنها شأن هاتين - تقدم وصفاً سلبيّاً في أساسه. يسجل برونيتو أن الإسكندر كرس حياته للغزو، "وكان أرسطو وكالستين معلّميه، كان مظفراً على كل الشعوب، ولكنه كان تحت سيطرة الخمر والشهوة"^(٢٨).

كانت كل التمثيلات العامة الأوروبية لقصة الإسكندر متأثرة بصورة بارزة بتاريخ الإسكندر العظيم (تاريخ بريليس Historia de Preliis) الذي كان هو ذاته مؤسساً على كتاب بزيو - كالستين حياة الإسكندر. لقد تضمنت صيغة كالستين رسالة كتبها الإسكندر إلى "المبجل" أرسطو، وفيها يصف كالستين دخول الإسكندر إلى الهند وما حدث هناك وسماعه النبوءة القائلة بأنه سيموت في بابل^(٢٩). ويضم تاريخ بريليس هذه الرسالة، التي جرى تداولها على حدة أيضاً، وكلاهما (الكتاب والرسالة) كانا شهيرين في العصور الوسطى. وفي هذه الصيغة يظهر الإسكندر - على الرغم من قدرته على القسوة - نموذجاً للشجاعة البدنية والعاطفة والبراعة.

لكن دانتى يحذف مثل هذه التفاصيل المادحة عن الفاتح المقدوني، ذاهباً في كتاب الملكية إلى أنه بسبب محاولة الإسكندر للفوز بحكم العالم - أى، في الحقيقة، تحدى

هيمنة روما - فإن الرب قد أسكته (الملكية، ٢-٨-٨-١٠). وفي الكوميديا يستخدم دانتي نزوع الإسكندر إلى المغامرة في الهند لتطوير نظريته عن تاريخ فشل السياسات الإمبراطورية قبل الامبراطورية الرومانية. وعندما يعود إلى وجهة النظر المشائية في الإسكندر، التي وطدها المؤرخان ليفي Levy ولوكان Lucan وطورها أورورسيوس وأوغسطين، يتجاهل الروايات العارفة عن الإسكندر التي انتشرت في حكايات العصور الوسطى^(٢٠). في الجحيم - الأنشودة ١٤- يتناول دانتي موضوع الإسكندر في الهند، مشيراً بصفة خاصة إلى دخول الإسكندر إلى شبه القارة:

ومثل ألسنة اللهب، التي رآها الإسكندر في تلك المناطق الحارة من الهند

تصيب جيشه، وتسقطه أرضاً،

لذا فقد عني بأن تدوس فرقه التراب،

حتى ينطفئ ذلك البخار

بأسرع ما يمكن بعد أن أصبح معزولاً

هكذا كان اللهب الأبدى يسقط

وكما يفعل الحجر تحت الزناد

كان يحرق الرمل حتى يتضاعف الألم من جديد [الجحيم، ١٤: ٣١-٣٩]

يبدو أن هذه الإشارة المباشرة إلى المنطقة القائطة تدل على أن دانتي اتبع نظرية ألبرت القائلة بأنها كانت منطقة يمكن عبورها. مع ذلك فإن دانتي، بتحويله صورة وصول الإسكندر إلى الهند إلى تشبيه ملحى ممتد. إنما يقلص الرؤية المتسعة للفتح البطولى الذى يقوم به جيش غاز. إنه يقوض المشهد كما صورته حكايات مغامرات الإسكندر، جاعلاً منه وسيلة لتعريف العقاب النارى المحفوظ لأولئك الذين يجدفون على الرب. إن سكان الجحيم - الأنشودة ١٤- المعتدين على وسيط الرب، كلهم انتهكوا

الحدود الإنسانية، عبروا إلى الحدود التى تفصل بين الفرصة الإنسانية والقيود الإنسانية وبين الحدود الإلهية الجبرية والطبيعية. هنا- على سبيل المثال - لا يزال كابانوس^(ج) يزدري الرب (الجحيم، ٤٩: ٦٠). ويعادل دانتى بين العبور إلى الهند وأمر الإسكندر بإخماد النار بفعل المجدفين الذين حققت عليهم بالفعل لعنة الاحتراق الأبدى. وفى كلتا الحالتين فإن العبور المتعدى للحدود، سواء كانت إقليمية أو أخلاقية أو وجودية (أونطولوجية)، يخلق حتماً أحداثاً جديدة من المعاناة: كان تراقص الأيادى التعيسة لا ينقطع أبداً، وهى تنفض عن نفسها الاحتراق المتجدد هنا وهناك [الجحيم، ٤٠: ١٤-٤٢]. والمنطقة التى مثلت حدوداً معذبة فى إغرائها للتأمل التخيلى "الغرائبى" لبلينى وسترابو، أو تحدياً عسكرياً لفيرجيل، هنا تصبح متراساً أخلاقياً^(٣١). وعوضاً عن السير على خطى النظرة التى أكسبت طابعاً رومانسياً عن إسكندر ملهم يغامر فى أرض غرائبية لم تستكشف من قبل - كالتى يقدمها بزيديو - كالستين ومقلدوه - يتخلص دانتى من نزعة البطولة عن طريق الربط بين أفعال جيش الإسكندر ومحاولات الخطاة المتكررة لإبعاد ألسنة اللهب فى الجحيم عنهم. ويبين الشاعر أن المنطقة القائضة يمكن عبورها، إنما كما كان فعل أوليس فرار الحشود (folle volo) فيما وراء الطرف الغربى للعالم المعروف تعدياً على حدود الأرض أدى إلى كارثة، فإن تخطى الإسكندر الحدود الشرقية هو بالمثل تخطى ضد الرب.

مع ذلك فإن هذه الأنشودة التى تزأج بين المجدفين على الرب والطبيعة ووصف فيرجيل لرجل كريت العجوز، وهو مجاز عن التاريخ العالمى فى حالة انهيار وفساد مستمرين، هى أكثر أهمية من الإشارة الى مغامرات الإسكندر الإمبراطورية. فدانتى وكيف التاريخ الذى ندركه فى قصة عجوز كريت ليدعم فكرته عن تاريخ وثنى ضال^(٣٢). إنه يصف البيئة القائضة التى تمطر ناراً إلى جانب دخول الإسكندر بغطرسته إلى

(ج) Capanus واحد من "السبعة ضد طيبة" انظر هامش سابق.

الهند، يبرز تحدى كابانوس المزهو للأمر الإلهي، ويربط كلا الحدثين بتماثل عجوز كريت. ومعاً تشير هذه الصور إلى تمرد متعدي متواصل ضد السلطة الإلهية باعتباره سبب الإخفاقات التاريخية حين يعامل دانتى سلوك الإسكندر باعتباره سلوكاً مراوفاً أكثر مما هو بطولى، فإنه يعادل تحديه التاريخي للطبيعة والرب فى الإقليم القانظ الذى أراد أن يغزوه بالعجرفة الإنسانية كما صورها كابانوس، وانحطاط التاريخ، موضوع هذه الدائرة من دوائر جهنم. يستنكر دانتى محاولات سميراميس ومحاولات الإسكندر لـ"عولمة" universalize الحكم والقيم عن طريق الغزوات الإمبراطورية. فمن وجهة نظر دانتى فشلت جهودهما لأن دوافعهما كانت أنانية وطغيانية لا تكفيرية، كما هو الحال فى حالة نوى المطامح الإمبراطورية الرومان. لقد سبق كل من سميراميس والإسكندر ، بفعل رغبة الامتلاك والرغبة فى القيام بمغامرات فوضوية للحصول على المتعة وممارسة الخداع، فأقاما نظامى حكم يتعارضان تماماً مع الإمبراطورية الرومانية، وهى نموذج دانتى للتاريخ المنضبط.

وخلافا لهذين القائدين القديمين فإن الرومان لم يحاولوا غزو الهند. فان الإندوس فى الحقيقة يقع فيما وراء فضائهم الجيوسياسى، إن لم يكن وراء طموحاتهم، وقد احتفظ بهذه المكانة الهامشية طوال فترة الهيمنة الإمبراطورية الرومانية. وعلى الرغم من نبوءة أنثيس (ح) لاينياس بأن أوغسطس سيمد نطاق سلطته إلى بلاد الهند، فإن الرومان لم يحاولوا "تهدئة" الهند، وظلت المنطقة على الحافة الخارجية للهيمنة الثقافية والسياسية الرومانية.

كانت رؤية دانتى لإمبراطورية رومانية عالمية مقتصرة على منطقة إقليمية أضيق من مزاعمها المعلنة . وتشير إشارته إلى الإندوس (الفريوس، ٧٠: ١٩-٧٢) تساؤلات بشأن ما إذا كان الخلاص يوجد خارج المسيحية، لكنها أيضاً تفرض تحدياً للسياسات

(ح) Anchises والد إينياس (المترجم).

الإمبراطورية التي كان يربطها بفضاء العالم المعروف. يبين دانتي في الملكية الوليمة الكوميديا أنه يشارك في المعتقدات الدينية - السياسية التي طورها أوريوس في كتابه *Historarium*، الذي يحاول - دفاعاً عن الإمبراطورية الرومانية - أن يظهر عملاً إلهياً في التاريخ الروماني. وكان أوغسطين - خلافاً لأوريوس ودانتي - ينكر دعم الرب للإمبراطورية الرومانية، وبصفة خاصة في مدينة الرب، التي كتبها جزئياً للرد على نقاد أنحوا باللائمة على المسيحيين ورفضهم للآلهة الوثنية لسقوط روما على يد آلاريك. (غ) (٣٣) ويسهب دانتي - في كتاب الملكية (١-١٦) وكذلك أوريوس في الحديث عن تلاقى السلام الروماني Pax Romana مع ميلاد المسيح. وعلى النقيض منهما فإن أوغسطين يفسر فترة السلام بأنها نتيجة تعاقب بلا انقطاع للحروب الرومانية من أجل المكاسب والمطامع والقمع الذي يسبقها (٣٤). مع ذلك، فإن أقاليم ممتدة تقع فيما وراء مزامع السلام الروماني. وفي الحقيقة فإن دانتي - في الكوميديا - يحد جغرافية رغبته السياسية الطوباوية. وعلى الرغم من أنه في الملكية يتحدث عن حكومة عالمية ويشير إلى أن المسيحية هي ديانة عالمية، فإنه في الكوميديا يحد بصورة دقيقة مجاله هذا بإدخال التساؤل عن أهل الخارج - وخاصة الهنود والاحباش، الذين يسكنون أبعد أطراف العالم المعروف لناحية الشرق.

عند دانتي - على النقيض من المؤلفين الرومان - إن منطقة الإندوس هي "الشرق" (Orient)، حيث "طلعت شمس على العالم، حتى وهذه قد اعتادت على أن تطلع من الكانج" [الفردوس، ٥٠: ١١-٥١]. ويضفي دانتي على هذا النهر الهندي مكانة مقدسة إذ يربط ميلاد القديس فرانسيس بالمولد اليومي للشمس فوق الكانج. لقد دعا الكتاب المقدس نهر الكانج "فيزون" وأعلن أن هذا النهر يستمد منبعه من جنة عدن، التي يتذكرها دانتي في إشارته إلى الكانج في بداية الأنشودة ٢٧ من المطهر. وعند دانتي

Alaric (غ) (٢٧٠-٤١٠) ملك قوطى غربى غزا إيطاليا (٤٠٨) واستولى على روما ونهبها. (المترجم).

فإن الكانج ككناية على الطرف الشرقي للعالم ، هو مصدر النور. وقد قام أوليس "بهرويه الأحمق" [الجحيم، ١٢٥:٢٦] صوب الغرب حيث أقام هرقل علامات التي يتعين على الرجال أن لا يتجاوزوها [الجحيم، ١٠٨:٢٦-١٠٩]. وهكذا فإن دومينيك -الذي ولد في الغرب - في تلك المنطقة حيث تطلع زيفير^(٤) الجميلة لتفتح الأوراق الجديدة التي من خلالها ترى أوروبا نفسها مكسوة مرة أخرى [الفردوس، ١٢:٤٦-٤٨] - والقديس فرانسيس - الذي يطلع في الشرق (الفردوس، ١١:٥٠-٥١) يضمنان فيما بينهما جغرافية العالم في الخير، تماماً كما يفعل الإسكندر، وأوليس في الشر.

يقدم دانتي مرة أخرى رؤيته لتاريخ يمكن أن يكون قد استرد قيمته على نموذج الإمبراطورية الرومانية في الفردوس، في سياق قياس المفاهيم الإنسانية عن العدالة إزاء "العدالة" الإلهية. وهو هنا يدخل أيضاً المشكلة اللاهوتية التي يفرضها وجود الإندوس . يتحدث في شكل نسر بصوت واحد [الفردوس، ١٩:١٠١-١٠٢]، ويرد المخلص في سماء جوبيتر على دانتي الحاج شاغله المتواصل بشأن العدالة الإلهية: "تعلمن بأى عناية أتهياً، للإصغاء، وتعرفن ما هو هذا الشك، وهو عندي جوع موغل في القدم" [الفردوس، ١٩:٣١-٣٣]. في أعقاب ديباجة طويلة عن أعمال السلطة والمعرفة الإلهيتين [الفردوس، ١٩-٤٠-٦٦] وباستخدام كامل لرسالة بولس إلى الروم، يذكر النسر سؤال الحاج، الطويل الأجل:

ولد رجل على ضفة السند (الإندوس) وليس هناك من يتحدث ،

أو يقرأ أو يكتب عن المسيح. وكل رغباته وأفعاله خيرة بالقدر الذي

يتبينه العقل الإنساني، دون ما خطيئة في الحياة أو في الحديث. وهو يموت

(د) Zephire الريح الغربية. (المترجم).

دون أن يعمد، ودون عقيدة. فأين هي هذه العدالة التي تدينه؟ أين

هي خطيئته إذا كان لا يؤمن؟ [الفردوس، ١٩: ٧٠-٧٨].

إن الإجابة على هذا السؤال تختبر الأساس اللاهوتي كله الذي تركز عليه القصيدة، ذلك أنه يحدد لماذا يحكم على البشر بالذهاب إلى أليمبوس وجهنم والمطهر والجنة. إن عناية إلهية خيرة - هي التي خلقت العالم كفعل محبة والتي تجسدت لكي تحرر البشرية، قد استثنت بعضاً من بلوغ هذا الخلاص. كيف يمكن أن يكون هذا عدلاً؟^(٣٥) إن وجود الإندوس ذاته خارج الحدود الإقليمية للعالم المسيحي - الروماني يتحدى الإيديولوجية التي تقوم عليها القصيدة. يقدم دانتى هذه الأحجية في الأنشودات الختامية من القصيدة، وعلى وجه التحديد في الأنشودة التاسعة عشرة من الفردوس، وهي الأنشودة التي - شأنها شأن الأنشودتين الأخريين- تتناول موضوعات مركزية بالنسبة للكنيسة كمؤسسة. إن الشاعر يوجه الانتباه إلى هذه المعضلة، ويتحدى مزاعم المسيحية بشأن العوالم والثغافات التي تقع خارج متناولها إقليمياً.

يثار هذا التساؤل في سماء جوبيتر، الإله الرئيس عند الرومان، فيما يبدو أنه قد اكتسب طابعاً رومانياً. ويجيبه من انقذ في صورة نسر، العلامة التقليدية للرومان - العلامة التي جعلت الرومان مبجلين من العالم [الفردوس، ١٩: ١٠١-١٠٢] - لكنه هنا نسر متحول، فيه تبدو كل روح في صورتها مثل ياقوتة [الفردوس، ١٩: ٤]. ولما كان المعتقد أن الياقوت حجر كريم هندي من أندر الأنواع، يوحد دانتى رمزاً رومانياً ورمزاً هندياً، حكم روماني وأعجوبة هندية. وتضع أصداء رسالة بولس إلى الروم - مزيداً من الاختبار للعدالة الإلهية: "هل من غير العدل من جانب الرب... أن يجلب علينا جزاء...؟ فإذا كان الرب غير عادل، كيف يمكنه أن يصدر حكمه على العالم؟" [الفردوس، ٣: ٥-٦]. الإجابة التي تقدمها قصيدة دانتى تماثل إجابة بولس، وهي توضح لاهوتاً عالمياً منقولاً من بيئة رومانية خاصة. وفي الحقيقة ذهب كينيلم فوستر (Kenelm Foster) إلى أن دانتى في هذه الأنشودة يعبر إلى "ما وراء أمور السياسة".

وعلى خطى سيلفيو باسكوآزي Silvio (Pasquazi) يؤكد فوستر أن "النسر" ليس الإمبراطورية وإنما وحدة الجنس البشرى، كون "النسر" قد تشكل من حرف الميم كناية عن مريم، متلقية تجسيد "الكلمة" مع ذلك فعند جيان روبرتو ساروللى Gian Ro- berto Sarolli النسر كرمز لجوبيتر هو رمز يحاكي ما هو مسيحي^(٣٦).

ويبدو أن دانتي - وهو يستكشف مسائل العدالة الإنسانية والإلهية - يقيد معاً السياسات الإمبراطورية الرومانية وروما المسيحية لأن الإمبراطورية الإنسانية النموذجية بالنسبة إليه هي مصغر إمبراطورية الرب الإلهية. لكنه عوضاً عن ذلك يمكن أن يكون مقترباً من نقطة عندها خسوف سياساته الطوباوية. قبل الرومان حاول آخرون سحق الشعب المسالم الذى كان يعيش فى وادى الإندوس، ولكن الرومان لم يحاولوا ذلك. وقد وصف أروسيوس وأوغسطين الهنود بأنهم شعب محب للسلام. ويبدو أن الصورة التى يرسمها دانتي للإنسان العادل فى وادى الإندوس يسير فى خطى هذا التقليد. لقد كان دانتي قد ذهب فى الملكية إلى أن المسيح ولد أثناء حكم أوغسطس قيصر على وجه التحديد لأن تلك كانت لحظة تلاقى الإرادة الإلهية مع الفعل الإنسانى، وهو ما سيحدد الفضاء الجيوسياسى للمسيحية. ولكن الإندوس لم يكن جزءاً من المصغر السيسى للملكوت الإلهى. هكذا يبدو أن الإندوس قد استبعد من إمكانية الخلاص التى حددتها العناية الإلهية.

فى الديباجة الطويلة للسؤال يشير "النسر" إلى أنه ليس بمقدور مخلوق مفرد أن يمتلك سلطة الألوهية. وهى حقيقة شهد عليها سقوط المزهو الأول^(ذ) [الفريوس، ١٩: ٤٦]. إن الافتقار إلى السلطة والمعرفة لفهم الإرادة أو العدالة الإلهية، يجعل البشر قادرين فحسب على أن يروا:

(ذ) المقصود به إبليس. (الترجم).

كما العين في البحر، تستطيع - وإن تكن على الشاطئ - أن ترى القاع، إنها لا تراه في البحر المفتوح، ومع ذلك فهو موجود، ولكن العمق يخفيه [الفردوس، ١٩: ٦٠-٦٣]

هذا الرد يتجنب أى إجابة حقيقية على مشكلة الاستبعاد، ولكنه يتطلب مزيداً من الفحص بمعايير المزامع اللاهوتية الخلاصية الاستثنائية في القصيدة. ألا تعنى هذه الصورة ضمناً - تماماً كما أننا لا نستطيع أن نتغلغل في أعماق العناية الإلهية المعقدة - أننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان الهنود يمكن أن يشملهم الخلاص والتحرير خارج المجال المسيحي الروماني؟

إن الأنشودة تقدم - في الحقيقة - بعضاً من تلميحات محددة في هذا الشأن أيضاً. وفي مقال ممتاز عن هذه الأنشودة يشير إدواردو سانجوينيتي E. Sanguinet إلى "النسر" كنوع من "نقش بالغ الأناقة" يقفل باب المناقشة بشأن "خلاص الوثنيين" بوضع المعرفة الإنسانية "لكم" ضد عدالة الرب اللامحودة واللامتناهية^(٣٧). وشأن بولس حينما يفكر في رحمة الرب اللامتناهية والمطلقة (رسالة بولس إلى الروم ٩: ١٤-١٦) يشجب "نسر" دانتى بشدة البشر الذين يشكون ويحاجون (٨٢-٨٥) حتى وهم يرفضون قبول مطلقة "الإرادة الأولية" (٨٦) التي هي الخير الأسمى (٨٧). وشأن ملاحظات "النسر" التي لا تفهم كذلك "الحلم الأبدي" (٩٩) ليس مفهوماً (٩٧-٩٩) يقول النسر - مركزاً على الضرورة التحليلية المسيحية (الكريستولوجية) للخلاص:

"إلى هذا الملكوت لم يصعد أبداً من لم يؤمن بالمسيح،

سواء قبل أن سُمِّرَ على الشجرة أو بعده.

ولكن فلتنظر هناك كثيرون يصيحون يا مسيح، يا مسيح،

وهناك الذين سيصبحون يوم الحساب أقل قرباً بكثير إليه

من الذين لم يعرفوا المسيح [الفريوس، ١٩: ١٠٣-١٠٨]

يتخذ هذا البيان الخاص أهمية كبرى لأنه واحد من أربع مرات فقط يستخدم فيها دانتى الترنيم المسيحى. وبينما يتبنى "النسر" الموقف الأصيل (الأورثوذكسى) بشأن الخلاص، فإنه أيضاً يندد بمسيحيين علنيين كثيرين، أولئك الذين لم يبلغوا أبداً ملكوت المباركين. يردد النسر صدى الرسالة إلى الروم، التى يكتب فيها بولس:

"لأنه ليس السامعون للناموس هم أبرار عند الله بل العاملون

بالناموس هم ببررون. والأمم الذين ليس عندهم

الناموس إذا عملوا بالطبيعة بما هو فى الناموس فهؤلاء

وإن لم يكن عندهم الناموس فهم ناموس لأنفسهم [رسالة بولس إلى أهل رومية، ١٣: ٢-١٥].

وعلى الرغم من أن هذه الثلاثية المسيحية لا تدعى أن غير المسيحيين سيخلصون، فإنها تؤكد أن بعض الذين لا يعرفون المسيح سيكونون أقرب إليه يوم الحساب من كثيرين ممن يصيحون "يا مسيح! يا مسيح!" والحقيقة أن دانتى يؤكد على هذا فى الأبيات الأخيرة من الأنشودة (١١٥-١٤٨) التى تستنكر سلاسل من الملوك المسيحيين الفاسدين المنخرطين فى مقاتلة ملوك مسيحيين، والذين لم تقربهم معرفتهم بالمسيح إلى الخلاص. إنما هنا، فإن "النسر" - إذ يتخذ الفضاء الجغرافى الذى يقع على حدود البلاد المسيحية - يعلن أن الحبشيين حينما يفصلون عن المسيحيين، سيخلصون: " واحد إلى الأبد غنى والآخر فقير (١٩: ١١١). ويتبنى "النسر" موضوعاً من موضوعات أدب الرحلات الصليبية يستخدم "الآخر" كمرآة لكشف العيوب الأخلاقية للمسيحيين فيتساءل أيضاً ماذا سيقول الفرس - الذين يحتلون تقليدياً الفضاء الجغرافى

التقليدى للخطر والغرائبية، والذين يتهمون تقليدياً بارتكاب تجاوزات مؤسفة - حينما يرون أن هذه العيوب ذاتها هي أكثر تمييزاً لمن يوجهون هذا الاتهام إليهم (١١٢:١٩-١١٤).

عوضاً عن الإجابة عن سؤال الحاج وتقديم رد لا سبيل إلى تفنيده بشأن أولئك الذين لم يعرفوا بأمر المسيح، يضيف "النسر" غموضاً إلى اللغز بحاشية مطولة من إنجيل متى ٢٥. إن الفقرة الإنجيلية بذاتها سلسلة من حكايا رمزية تقسم البشر الذين يتلقون "ثروة أبدية" عن أولئك الذين يكسبون "فقراً أبدياً": وفي هذا النص تحدد الأفعال الخيرة- وليس نزعة التدين الإسمية- المصير الأبدى للفرد. ويشير "النسر" إلى أن العدالة والرحمة هما امتيازات إلهية تقع خارج حدود الفهم البشرى. وقد يمكن ممارستها نحو المسيحيين المعترف بهم وغير المسيحيين على السواء، ولكن إشارة "النسر" إلى حكاية رمزية للمسيح فى إنجيل متى تستذكر أيضاً الاعتقاد بأن حياة بر لا بد أن تسبق الخلاص. وفى الحقيقة أن النسر- إذ يلتفت نحو أوروبا، فضاء ما يشغل دانتى- يصوغ بصورة صريحة النهاية التى تقبع فى انتظار المسيحيين الفاسدين والمنقسمين، على الرغم من أن إجابته على سؤال الحاج المركزى بشأن أولئك الذين لم يعمدوا ويعيشون فيما وراء المجال المسيحى- الرومانى تبقى مراوغة.

وعلى الرغم من أن الشاعر يتأمل فى هذا الفضاء الجغرافى فيما وراء أفقه المكانى - الزمانى ، فإنه يواجه فهمه المحددات بأمور تذكره من الفضاء والزمان العالميين اللذين تستكشفهما القصيدة. إنه يحقق هذا الانقطاع بوضع الأهمية العالمية Global للعلامات الجغرافية الكونية المرتبطة بموت المسيح فى الواجهة. وتتضمن هذه العلامات إشارات إلى الزلازل (البحيم، ١٣١:٣ ، ٢٨:١٢ ، ٤٣-٢٨) - والأرض تزلزلت وتشققت (إنجيل متى، ٥١:٢٧) وإن قائد المئة الذين معه يحرسون يسوع لما رأوا الزلزلة وما حدث خافوا جداً وقالوا فى الحقيقة هذا ابن الله (إنجيل متى ٥٤:٢٧)

وإشارات إلى كسوفات للشمس (المطهر، ٢٧:٣٥، ٢٩:٩٨-١٠٢) وإذ يستكشف دانتي إمكان وقوع تجارب على اتساع العالم فلكية وجيولوجية، ويتذكر هذه العلامات يترك الاحتمال مفتوحاً للعالمية، على الأقل على صعيد دراسة الكون.

وعلى الرغم من أن الكوميديا تعلن عالمية المسيح ومطلقية التحليل اللاهوتي لشخصية المسيح (الكريستولوجيا) فإن الشاعر يعي بوضوح بعض التناقضات التي لا تقبل الحل في هذا الموقف، إنه يستخدم وجود الفضاء الجغرافي خارج الأقاليم السياسية الرومانية كواحدة من وسائل لإدخال هذه المشكلة وتقويض مشروعه المتسم بالمبالغة. وفي الجوهر فإنه يحرض لأوروسيانين التاريخ والجغرافية للعناية الإلهية ضد الجيوسياسية اللاهوتية الأوغسطينية، على الرغم من أنه كان يود لو يجعلهما منسجمين. وفي حين أنه لا ينبذ قناعاته الدينية - السياسية الخاصة فإنه يكشف بالفعل أوجه ضعفها الفكرية والمنطقية، خاصة في مواجهة ألوهية غير قابلة للتبدل وغير قابلة للوصف، غاياتها - على النحو الذي يوضحه التشبيه الخاص بأعماق البحر التي لا يمكن اختراقها - تتجاوز بصورة مطلقة الفهم الإنساني (١٩:٦٠-٦٣). إن فكرة الإندوس كهامش شرقي جيوسياسي وثقافي هي واحدة من أدوات الشعيرة لاستكشاف تعقيدات اللاهوت المسيحي. وبالمثل لاستكشاف المشكلات في سياساته الإمبراطورية، وهو مع ذلك يترك هذا كله بلا حل.

وعوضاً عن السير على خطى تقليد جعل الهند "شرقاً طيباً" يؤدي إدخال دانتي الإندوس على حافة الفضاء الإمبراطوري الروماني والتوسع الثقافي والإقليمي المسيحي إلى إثارة تساؤلات حول خريطته الخاصة الدينية - السياسية. أن هذا كان أمراً متعمداً يزداد وضوحاً بما يختار الشارع أن لا يذكره بشأن الإندوس، فهو - على سبيل المثال - يتجاهل المعرفة المكتسبة بشأن مغامرات توما الرسول التبشيرية في الهند، التي نجدها في أعمال الرسول توما^(٣٨). يذكر جيروم وإيزيدور هذا التقليد، كما يذكره

آخرون من آباء الكنيسة^(٣٩) . مع ذلك فإن أوغسطين قد استبعد أعمال الرسول توما كنص استخدمه المانيون وغيرهم من الغنوصيين^(د) . إنه يصفها بأنها "هرطقة"، وقد يكون هذا ما دفع دانتي أيضاً لتجنب ذكر الاعتقاد الشائع بأن توما كان قد زار الهند^(٤٠) . وثمة مثال آخر على مادة لم تذكر هو الرواية التي أملاها ماركو بولو - الذي تتلأم حياته (١٢٥٤-١٣٢٤) مع حياة دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) . فقد كتب مؤلفه المليون II milione في البندقية في وقت ما بعد عام ١٢٩٢ ، ربما في ١٢٩٨-١٢٩٩ ، حينما كان سجيناً مع روستيتشيللو بيزا Rustiche 110 of Pisa ، ولكن دانتي إما كان غير عارف بهذا العمل أو اختار تجاهله^{٤١} . وإذا كان دانتي قد زار البندقية أبداً فإن ذلك كان في عام ١٣٢١ ، العام الذي فيه توفي^(٤٢) . ويحتوي كتاب المليون على وصف كامل ليس فقط لأقسام من الهند، إنما أيضاً للضريح الذي ذاع أن الرسول توما قد دفن فيه، والذي يصفه ماركو بولو بأنه مكان يحج إليه المسيحيون والمسلمون^(٤٣) . ويذهب باولو بيكورارو Paolo Pecoraro إلى أن حذف دانتي المتعمد لأوصاف لآسيا معروفة جيداً - بينها أوصاف ماركو بولو وجون بلانو جارييني J.P. Carpini وأودوريك بوردينوني Odoric of Pordenone وجيوفاني مونتيكورفينو Giovanni of Montecor- vino - ينبع من قراره بفصل "الجغرافية الواقعية" عن "الجغرافيا الدانتية"^(٤٤) . إن دانتي أقل اهتماماً بالجغرافية الحقيقية للعالم منه بالمعاني الرمزية لجغرافية العالم. وسواء كان استبعاد دانتي هند توما وماركو بولو متعمداً أو عن جهل، فإنه يبرز وصفه الإندوس كفضاء يقع خارج الوسط الجيوسياسي والثقافي للعالم المسيحي-الروماني الذي يتبناه باعتباره جغرافيته السياسية.

(ر) الغنوصية من Gnosis اليونانية التي تعنى المعرفة - نزعة صوفية إغريقية سابقة على المسيحية، وكان لها تأثير كبير على المسيحية بعد ذلك، والمعتقد الأساسي فيها هو أن هناك طريقاً إلى الخلاص بواسطة المعرفة على غرار ما يضيء النور في الظلمة، (المترجم).

يضع دانتي الهند - التى يستنكر الاستيلاء عليها من قبل الإسكندر وسميراميس باعتبارها عملاً غير مشروع، ويوجه الانتباه إلى السلام المنضبط المسيحى - الرومانى - فى موقع وراء الخبرة الجغرافية المسيحية. وهو إذ يفعل هذا يتحدى المزاعم ذاتها التى كان هو نفسه قد ردها فى كتابه الملكية، حيث عادل فضاء العالم بأسره بالإمبراطورية الرومانية، كما هو الحال فى تقاليد الشعر الرومانى^(٤٥). إنه يجعل الإندوس "هامش" الممكن الأخلاقى والعادل خارج منطقته الجيوسياسية - إنما يحدد محيط معتقداته: إن لا محدودية الإمبراطورية المسيحية - الرومانية كممثل أعلى دينى وسياسى تحدها هوة سحيقة عند حافتها الغربية ومجال آخر سياسى وثقافى عند حدودها الشرقية ومن السماوات وما روعاها تقلق وجهة نظر الشاعر رؤيته الجيوسياسية وتقوض إيديولوجياته الأخلاقية الدينية والسياسية.

وعلى الرغم من أن دانتي يشرع فى استكشاف الكون ووصف الملوكوت الإلهى - فى النهاية - ليتبع صورته هو، فإنه لا يستطيع أن يأمل فى الغوص فى أعماق البحر الإلهى. ومع عظمة الكوميديا فى أهدافها، تبقى بالضرورة ناقصة حينما يتعلق الأمر بتحقيقها، ذلك أن الشاعر يرفع عظمة الرب الأسمى فوق أى فهم إنسانى أو مؤسسة إنسانية أو نظرية جيوسياسية. والإندوس كمنطقة جغرافية نائية فى المنطقة القائظة هو آلية شعرية واحدة بين كثرة تُدخل الهوة بين الفهم الإنسانى والإرادة الإلهية فى الكوميديا. هو كذلك يؤدى دور كشف معتقدات الشاعر الإنسانية الناقصة، التى يستعاض عنها "بالحب الذى يحرك الشمس والنجوم الأخرى" [الفريوس، ١٤٥:٣٣]. ويتسق هذا - بالطبع - مع التقاليد اليهودية - المسيحية المطورة فى التوراة وطورها أوغسطين. ومن هذا المنظور يكون الفضاء الجغرافى للإمبراطوريات والمؤسسات الجيوسياسية التى تدعمها - بغض النظر عن مدى انتشارها أو نجاحها فى قوتها العسكرية والإيديولوجية - محدوداً، وغالباً ما يكون محاكاة زائفة للوكوت الرب النهائى.

إن العدالة الإلهية، المفضة والتي لهذا تتجاوز الإدراك الإنسانى. تتغلب على الخلافات الإيدىولوجية الاستثنائية أو التشكيلات الثقافية لى تصدر أحكامها على كل منها فى إطار ملكوتها العالمى المفرد. وكما هو الحال فى خرائط العالم الموسوعية فى العصر الوسيط، فإن جغرافية دانتي للحدود الخارجية هى أداة شعرية مصممة بحيث تسلم القصيدة إلى سلطة عناية إلهية، وهذه تجمع الكل فى حضنها الجليل بلفتة تعلن " إن لى المسكونة بكل ما فيها". [المزامير، ١٢: ٥٠] (ز) .

(ز) تجب الإشارة هنا إلى أن المزمور ٥٠ المذكور هنا هو المزمور ٤٩ بحسب تقسيم العبرانيين، فهو يحمل هذا الرقم الأخير فى طبعة "الكتاب المقدس" (العهد العتيق والعهد الجديد) الصادرة عن "جميعيات الكتاب المقدس المتحدة" ساحة النجمة - بيروت. (المطبعة الكاثوليكية - ١٩٥١) (المترجم).

هوامش الفصل الرابع

قدمت صيغة مبكرة كثيراً من هذا الفصل للمرة الأولى في عام ١٩٩٤ في الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى Medieval Academy of America في جلسة نظمها Seth Lerer من جامعة ستانفورد، ونشرت بعد ذلك تحت عنوان "Dante and The Indus" في فصلية دراسات عن دانتي (١٩٩٢): ١٧٧-١٩٢

(١) بشأن موضوعات الهند انظر ١٦١-١٦٠، Curtius, European Literature,

(٢) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٢).

(٣) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٣).

(٤) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٤).

(٥) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٥).

(٦) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٦).

(٧) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٧).

(٨) النعمة الإلهية كانت متفوقة في كل الأشياء. انظر: (ص ١٠٧- هامش ٨).

(٩) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٩) يكتب caperan أن دانتي أدرك أنه كان هناك مسيحيون ملعونون كما أنه كان هناك غير مسيحيين لم يسمعوهم بالمسيحية ويمكن مع ذلك أن يخلصوا (٢٠٦-٢١٢). انظر أيضاً: (ص ١٠٧- هامش ٩).

(١٠) في مدينة الرب يناقش أوغسطين "الخنثويين"، الهنود الذين يتفلسفون وهم عراة (١٤-٢٧، ٢٠-٢٧)، وهو يصنفهم مع الأفلاطونيين والفيثاغوريين والليبيين الأطلسيين والفرس والكلدانيين والحيثيين والفوليين والإسبان باعتبارهم قد اكتشفوا وعلموا أن هناك إلهاً واحداً فحسب، هو خالق كل الكائنات المخلوقة، وقد أصر أوغسطين على أنهم -بسبب معتقداتهم الشبيهة- "مثلاً" [٨-٩]. انظر Orosius, Histoires, ١.٤.٦.٣.١٩

(١١) (ص ١٠٧- هامش ١١).

(١٢) (ص ١٠٧ - هامش ١٢).

(١٣) (ص ١٠٧ - هامش ١٣).

(١٤) تولت سميراميس - أمه - العرش والحكم طوال حياتها: ذلك أنها كانت أشد قسوة وأكثر ضراوة من أى رجل، وبعد ان كانت أقسى نساء الدنيا Brunetto, Li livres dou tresor.

(١٥) بشأن مناقشة أكمل لنور سميراميس فى قصيدة دانتى انظر: (ص ١٠٧ - هامش ١٥).

(١٦) Pliny, Natural History, ٦, ٢١, ٦١ يلقي الإسكندر وإمبراطوريته ظلاً طويلاً من الشك على خيال الإمبراطورية الرومانية. فإن غزواته تجعل منه موضوعاً أثيراً للأدب الرومانى القديم. على سبيل المثال انظر: (ص ١٠٧ - هامش ١٦) كذلك فإن المقارنة الممتدة للتناقضات بين الاسكندر ويوليوس قيصر شائعة. فإلى جانب كتاب لوكان Lucan بعنوان (١٠ book) Pharsalia تظهر هذه التناقضات عند Plutarch, Livy. انظر على سبيل المثال - ٦٠٩-٤٤٢؛ ٤٣٩-٧, ٢٢٤ Plutarch's Lives, واستطرد ليفى عن ما إذا كان الإسكندر قد استطاع أن يغزو روما فى ٤١-٢٢٧, ٩, ١٧ Livy in Fourteen volumes ويبين كوينت Quint كيف يضع لوكان أحوجه توازن بين الإسكندر ويوليوس قيصر إذ يجعلهما كليهما يزوران طروادة ويأخذ يوليوس قيصر إلى قبر الإسكندر فى الإسكندرية انظر ٦-٨ Epic and Empire - وبشأن مصائر الإسكندر فى الرسائل الرومانية انظر. (ص ١٠٧ - هامش ١٦).

(١٧) (ص ١٠٨ - هامش ١٧).

(١٨) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ١٨).

(١٩) (ص ١٠٨ - هامش ١٩).

(٢٠) (ص ١٠٨ - هامش ٢٠).

(٢١) (ص ١٠٨ - هامش ٢١).

(٢٢) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٢).

(٢٣) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٣).

(٢٤) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٤).

(٢٥) بشأن الإسكندر والخطيئة انظر ٤٠٤٢, ٤٠٣٢ Beauvais, Speculum Historiale وبشأن استيلاء الإسكندر على القدس, انظر ٤٠٣٢.

(٢٦) انظر رسالة الإسكندر إلى أرسطو فى المصدر السابق, ٤. ٥٣-٥٨ والمراسلات مع الملك دينديموس على الصفحات ٧٠-٦٧ و٤٠.

(٢٧) (ص ١٠٨ - هامش ٢٧).

(٢٨) انظر : (ص ١٠٨ - هامش ٢٨).

(٢٩) لبعض الخلفية عن نصوص الرسالة إلى أرسطو، انظر: "Letters of Alexander", Ross, والطبعة الأفضل للرسائل هي (ص ١٠٨ - هامش ٢٩) ، ويشأن مقال ممتاز حديث عن رسالة الإسكندر إلى أرسطو واستخدامه في الموضوعات الأولية الشرقية ومصادره الأدبية انظر: Romm, "Alexander, Biologist".

(٣٠) تتضمن هذه حكاية الإسكندر Roman d'Alexandre الفرنسية القديمة ، التي ترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر، وصيغاً أخرى متعددة ترجع بتاريخها إلى أواخر القرن الثاني عشر. ويشأن مراجعة لكافة الصيغ الفرنسية القديمة السابقة على القرن الرابع عشر. انظر ٩-١٦ Ross, Alexan-der Historianus.

(٣١) (ص ١٠٨ - هامش ٣١).

(٣٢) يزاوج مازوتا Mazzotta في كتابه ١٤-٦٥ Dante تشبيه "عجوز كريت" بتشبيه كاتو Cato في المطهر، الأنشودتين الأولى والثانية، كلاهما "عجوز" ويقيم في الصحراء، ويقدم دانتي "الرجل العجوز" في سياق انحراف النظام الأخلاقي للطبيعة، كما يعطى مثلاً له زهو كابانوس Capaneus.

(٣٣) (ص ١٠٨ - هامش ٣٣)

(٣٤) (ص ١٠٨ - هامش ٣٤)

(٣٥) يتناول هذه المناقشة ياكوموتزي Jacomuzzi في (ص ١٠٨ - هامش ٣٥)

(٣٦) ثمة مناظرة بشأن ما إذا كان "النسر" يمثل بالفعل الرومان الأقدمين انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٣٦) ويذهب كاسيلا Casella إلى أن "النسر" هو رمز العناية الإلهية التي تحكم العالم. انظر (ص ١٠٨ - هامش ٣٦)

(٣٧) (ص ١٠٨ - هامش ٣٧) ويقدم كاسيلا Casella حجة مماثلة في (ص ١٠٨ - هامش ٣٧)

(٣٨) أعمال توما The acts o Thomas ربما ظهر في سوريا أولاً ولكن له صوراً منقحة عديدة (قبطية، حبشية، يونانية، عربية، وأرمينية). انظر The Acts of Thomas خاصة الصفحات ٢٩-١٨ .

(٣٩) (ص ١٠٩ - هامش ٣٩)

(٤٠) (ص ١٠٩ - هامش ٤٠) لا يقدم أي من إنجيل توما أو أعمال توما أية قوائم تتعلق بأباء الكنيسة بشأن القوانين التوراتية، وليس أي منها مدرجاً في إنجيل جيروم من المؤكدان المؤلفات تعنى بهذا ترجمة جيروم اللاتينية للإنجيل - (المترجم) - وهو دليل كاف يسمح لدانتي باعتبار أسطورة توما مشكوكاً في نسبتها. انظر، مثلاً، محاضر "مجلس هيپو" Council of Hippo في عام ٣٩٣ ، في كتاب Hefelé, Histoires des conseils, ٨٩

(٤١) بشأن افتقار دانتي إلى المعرفة بماركو بولو ، انظر (ص ١٠٩ - هامش ٤١) وبشأن مقال يفحص جغرافية الكون المشتركة لدى دانتي وماركو بولو انظر Olschki, "Marco Polo".

(٤٢) انظر. Villani, Cronica, ٢٠٩ و١٣٦. وبشأن آراء في زيارة دانتي للبندقية في عام ١٣٢١ للترتيب لعاهدة صلح بين تلك المدينة ورافينا انظر: Ricci, L'ultimo rifugio, ٤٥-٤٤.

(٤٣) (ص ١٠٩ - هامش ٤٣)

(٤٤) (ص ١٠٩ - هامش ٤٤)

(٤٥) انظر: (ص ١٠٩ - هامش ٤٥)

الفصل الخامس

المعجز والأعجوبة: دانتي وعجائب الشرق

أنت الإله الصانع للمعجزات

المزامير، ٧٦: ١٥

فى أثر هذا الذى كانت حياته الإعجازية

أولى بالتغنى بها فى ملكوت السماوات

الفردوس، ١١: ٩٥-٩٦

حينما يلتفت دانتي إلى الفردوس، فإن الحاج والشاعر - على الرغم من العبور البصرى الدراماتى والنسر فى السماء - يبدوان ذاهبين إلى ما وراء التمثيل^(١). مع ذلك فإن تجاوز ماله شأن بالعلامات، لا يعبر فقط عن استحالة الوصف. إنه يقوض موضوعات أدب الرحلة وأغراضها جميعاً، سواء كان مروباً صليبيّاً أو حجياً أو ملحمياً، وسواء كان يحكى رحلات نزول أسطورية أو رحلات برية. تستكشف قصيدة دانتي هنا - باعتبارها تجربة بصرية - الشرق باعتباره مجازاً، لأن محل الروائع هذا يمد المرء بوسيلة رمزية للكشف عن معجزات العالم الحقيقية.

مع ذلك فى هذه الحالة ليس مجرد "استبدال" - كما فى التقليد الخطابى الأرسطى أو الأسلوب الكوينتيلى،^(١) حيث يصبح المجاز حيلة لغوية بارعة، إضافة رشيقة إلى القصيدة^(٢) . إنها ليست أيضاً المجاز الذى يجعل فشل اللغة والمعنى حتماً، كما فى نظرية ديريدا^(٣) . (ب) Derida ويقدر ما يكون المجاز أداة دلالية "تعيد صنع الطبيعة" لأغراض شعرية^(٤)، فإن إختلافه عما قصد إلى الإشارة إليه يبرز مرة أخرى، ليس فقط الصعوبة التى يجدها الشعر مع مادته، إنما أيضاً استحالة تحقيق ما شرعت القصيدة فى أن تفعله. إن البديل لإحساس كويليرج بالحضور الإلهى هى القصيدة، ولكن الشاعر يريد أن يذكرنا بأن القصيدة نفسها ليست إلهية. هى لا تستطيع أن تجعل الكلمة^(٥) حاضرة. وتلمح مجازاتها إلى المجد الذى تشير إليه، ولكنها - بلغة بونافنتورا - مجرد آثار، انطباعات، وظلال للانهائية الرب. وإذا لجأنا إلى مصطلحات أكثر حداثة فإن إيمانويل لوفيناس^(٦) E. Levinas - شارحاً "الرب

(أ) نسبة إلى Marcus Fabius Quintilian (٩٩-٢٣٥) خطيب لاتينى ومعلم للخطابة فى روما. أهم مؤلفاته تدريب الخطيب De Institutione Oratoria. وفيه شأن شيشيرون فى كتابه الخطابة De

Oratore يؤكد على أهمية التكامل الشخصى والاعتقاد النزيه فى فن إقناع الجماهير. ولا يزال هذا الكتاب مصدراً مهما حتى اليوم لأنه يصف بدقة المزايا التعليمية التى كانت مباحة لشباب الموسرين فى روما فى القرن الأول. كما يتضمن مختارات المؤلفين اللاتينى التى لولاه لكانت مفقودة. (المترجم).

(ب) Jacques Derrida (١٩٢٠-٢٠٠٨) فيلسوف فرنسى ولد فى الجزائر، يعد غالباً بين فلاسفة النزعة التفكيكية (وهذا مصطلح مستمد من هيدغر) ولكنه منذ بداياته أثر كبير على نظريات النقد الأدبى وما يسمى "فلسفة الأدب"، ولكنه يعد الآن واحداً من أبرز الفلاسفة، المعاصرين. (المترجم).

(ت) "الكلمة" هنا بمعنى لاموتى، أى المسيح، ففى إنجيل يوحنا "يسوع هو الكلمة القائم بذاته" الكلمة الإلهى. (المترجم)

(ث) Emmanuel Levinas (١٩٠٦-١٩٩٥) فيلسوف يهودى فرنسى من أصل لثوانى، يعد من خلفاء الفلاسفة اليهود الكبار المحدثين وبالأخص روز نوايغ ومارتن بوبر. لكنه تأثر أيضاً بهوسيرل وهيدغر. اهتم كثيراً بتحليل العلاقة مع "الآخر". وأهم كتبه الكلية والانهائية (1961) Totality and Infinity وله كتابات متفرقة ذات طابع "اعترافى" كيهودى، وقرارات فى "التلمود" (المترجم).

الواحد لتوراة العبرانيين الذى أدخلته المسيحية فى التاريخ الأوروبى - يكتب عن هذه "اللانهاية" باعتبارها "الاسم المطلق للرب" وباعتبارها "القوة التى تتجاوز كل قوة، التى لا يحددها مخلوق أو أية ألوهية أخرى، والتى لا يمكن لأحد أن يعرف طرقها"^(٥). على الرغم من أن "المخلوق" - حسب التوراة - هو على صورة الرب، ولهذا يملك صفات مشتركة مع الرب اللانهاى، فإنه نهائى. تكشف قصيدة دانتي عن الرب اللامتناهى، داخل حدود الإمكانية البشرية المجاز هو الوسيلة لتأكيد هذه العتبة. مرة أخرى، وكما تعبر كتابات لوفيناس عن "اللانهاية"، "إن صورة الرب الأسمى" - الروح الإنسانية لا تشارك فحسب بدور إبداع الكائن الخالق، بإلهامه اللانهاى للمعرفة، بل إن العالم نفسه يشرح فى المكان والزمان التعقد اللانهاى للرب"^(٦). يشارك الشاعر فى هذه المصادقة اللانهاية للرب. وبالمصادفة فإن لوفيناس فى هذه النقطة الأخيرة يتفق مع اللاهوت الأوغسطينى والبونافنتورا. الفريوس، بوجه خاص - يحكمها هذا الأسلوب المجازى، الذى يطمس "الأشياء الإنسانية"، ولكنه فى الحقيقة يستخدمها كأدوات شعرية. يواصل دانتي فى الفريوس مناقشة النزعات الفكرية التى تحدث اللاهوتيين والسكولانيين (المدرسين) من القرن الثانى عشر وبعده، بينما يحتفظ فى الوقت نفسه بجذاله السياسى والأخلاقي المتسم بالحدة. فبسبب اكتشاف الفلسفة والعلم القديمين والتفكير المتزامن فى المناهج الأكاديمية - كما تناولته أعلاه بالنقاش - فإن الاستقلال الذاتى للمباحث الفكرية المختلفة التى تفصل اللاهوت عن الفروع الدراسية الأخرى قد فرض انتبهاً جديداً بما يشكل ظاهرة "طبيعية" فى العالم ومن خلقها. فى الفريوس، بينما يحترم دانتي ويسير فى خطى البحث "العلمية" التومائى والدومينيكانى فى الطبيعية، فإنه يسير فى خطى درب أوغسطين الفكرى، متوسطاً من خلال تشكيلات اللاهوت البونافنتورا. ونظراً لأن هذا يشكل جزءاً مكماً من المجادلة التى اقترحتها فى هذا الفصل، فإننى سأعرض تمييز أوغسطين بين "المعجز" و"المدعش".

العجائب والمعجزات

فى الفقرة ١٢/١٠ من مدينة الرب يذهب أوغسطين إلى أن "العجائب" تحدث ففتجاوز فى الظاهر القدرات الإنسانية، ولكنه يصر على أنه نظرا لعدم وجود صلة لهذا بالخير الأوحد، لا بد أن تكون عمل شياطين شريرة. مع ذلك فإنه يسلّم بأن "المعجزات" تأتى إما عن طريق الملائكة أو بوسائل أخرى، ومن ثم تدعم عبادة الرب الحقيقى الواحد وديانته، والذي فيه وحده يمكن أن توجد حياة مباركة. إن من الممكن للرب غير المرئى أن يصنع معجزات مرئية، وهذه المعجزات المرئية تحدث لتدعم عبادة الرب الحقيقى الواحد. والمعجزة الحققة هى الخلق ذاته. وما نحتاج إلى ملاحظته هنا هو تمييز أوغسطين بين العلامات المرئية والرب غير المرئى: العجائب المرئية التى تشهدها الكائنات البشرية، التى يحتمل أن تكون قد جلبتها شياطين، والقدرة على رؤية الخلق، الذى هو معجزة. كذلك يعرف أوغسطين أفعال أولئك الذين يتصرفون طبقاً للحقيقة الدينية، بإلهام من الرب، باعتبارها مجازية. إنه يسعى إلى أن يميزها بين المشروع العظيم للإبداع الإلهى والمعجزة الإلهية وبين الأشياء العجيبة فى العالم التى يمكن أن يراها البشر.

تناول ألبرت الأكبر وبوناغنتورا أيضاً المعجز والرائع. وقد اتفقا فى النهاية مع أوغسطين وإن كان ذلك بأسلوبهما المتميز. وكما أشرت فى مناقشة الشهادة، يذهب بوناغنتورا الذى كان المسيح عنده وسيط المعرفة - فى كتابه *Collationes in Hexaëmeron* إلى أن لـ "الشهرة" *Fama* ثلاثة جوانب: الاستحقاق *meritorem* والإعجاز *miraclurum* والشهادة *martyriorum*. ولقد كانت للآباء الأوائل للكنيسة شهرتهم نظراً لاستحقاقهم، إلا أنهم لم ينجزوا معجزات؛ كان الاستحقاق والإعجاز فى القانون نفسه. كانت المعجزات يقينيات الإيمان: الهروب من مصر، عبور البحر الأحمر، قضاء أربعين يوماً فى الصحراء، المن الآتى من السماء، يشوع يشق المياه

ويدخل أرض الميعاد. الاستحقاق والإعجاز والشهادة يمكن رؤيتها جميعاً في عمل الرسل. ونظراً لتفضيل بوناغنتورا مقارنة رمزية للكتاب المقدس فإنه يقرأ أحداثاً مركزية في التوراة باعتبارها براهين إعجازية على اهتمام الرب بالخلص الإنساني: الهروب من مصر - على سبيل المثال - الذي كان المناسبة لهبة القانون الربانية، كان ممكناً عبر تدخل الرب^(٧).

يستهل ألبرت مناقشته معجزة المعرفة الإلهية De Mirabili Scientia Dei بفقرة من المزامير، ١٣٨: ٦ "علم عجيب فوق طاقتي. أرفع من أن أدركه". وهو يقصد إلى تمييز الإعجاز عن المعرفة، التي هي - مع ذلك - أداة للاهوت^(٨). هكذا فإنه عند أوغسطين وبوناغنتورا وألبرت يشكل الإعجاز دليلاً مباشراً على الحضور الإلهي في العالم. فهو ليس فقط علامة مرئية أو أعجوبة، إنه عمل إلهي رائع ومذهل بالمثل.

وفي خطى موقف أوغسطين يفصل دانتي أيضاً بين "المعجزة" و"الأعجوبة"، ويرتبط هذا الفصل ارتباطاً وثيقاً بمعالجته لمادة العجائب في الكوميديا. وعنده إن "المعجزة" هي الأعجوبة البصرية - فعل الرب في العالم والاستجابة البشرية له. وهو يميز هذا من "الأعجوبة" التي تنشأ من "دهشة" وهي استجابة يدفع إليها سريعاً الجهل، حيث أن "الأعجوبة" تطبع فقط حينما نلاحظ شيئاً لم نلاحظه من قبل ومن ثم فإنها تنطوي على مفاجأة بصرية. ولكن "الأعجوبة" هي علة ومعلول على السواء، تثير الشهية الفكرية والرغبة في أن نعرف كفاية ذاتها^(٩).

في كتابه الوليمة قدم دانتي عدداً من التعليقات بشأن ما يشكل "رائعاً" و"معجزة" و"أعجوبة". ومن المثير للاهتمام أن نعمن النظر في هذه التعليقات قبل مناقشة الكيفية التي يرى بها هذه الكلمات في الكوميديا، لأن هناك اختلافات مهمة بين الوليمة والكوميديا. وفي الحقيقة إن دانتي نفسه سيشير في الكوميديا إلى هذه المفاهيم في ملاحظاته المراجعة^(ع) بشأن الوليمة^(١٠). ولا يفرق دانتي في الوليمة بين "المعجزة"

والرائع والأعجوبة. وفي القصيدة الغنائية الأولى من الكتاب الثانى فيه يكتب "سوف ترى جمال مثل هذه المعجزات السابقة - (١: ٤٩-٥٠) وهو ما يصفه لاحقاً بأنه يعنى "أنه يعلن أنه خلالهما سيتم إدراك جمال هذه المعجزات؛ وهى تنطبق بالحقيقة، لأن جمال العجائب هو إدراك أسبابها التى تبرهن عليها، كما يبدو أن الفيلسوف يذكره فى بداية الميتافيزيقيا (ج) [الوليمة، ١٥: ٢-١١]. الـهى" (المفخمة) والـهى" (العادية) هما السيدة الفلسفة [الوليمة، ١٥: ٢-١١] التى واسته بعد موت بياتريس والتى إليها توجه:

لهذا بدا لى رائعاً للغاية وعسيراً أيضاً أن أثبت أننى لم أحتملها. وأكاد أبكى بصوت مسموع لكى أعذر نفسى عن التغيير الذى بدا أننى فيه أظهر افتقارا إلى القوة، وجهت صوتى إلى ذلك الجانب الذى ظهر منه انتصار الفكر الجديد،
والذى كان بالغ القوة مثل الفضيلة السماوية [الوليمة، ٢: ٥-٥].

هذه المناقشة لـ صاحبة السيادة الفلسفة فى هذه الحياة الفكرية يماهياها مع الإعجازى، وهو مفهوم يتسخدمه دانتى بلا تمييز يعنى "المعجز" والرائع والأعجوبة". وهو يعد بأن يتحدث أكثر عن "مسألة معنى كلمة أعجوبة" (الوليمة، ١١، ١٥، ٢) فى الكتاب الثانى من الوليمة، إلا أنه يختتم الكتاب الثانى مؤكداً أنه كان مفتوناً بصاحبة السيادة الفلسفة - التى كانت، بعد حبه الأول بياتريس - أجمل وأشرف ابنة لإمبراطور العالم. وفى الكتاب الثالث من الوليمة، يعود ليتحدث عن المملكة العقلانية التى تجعل بالإمكان الاعتقاد بأشياء لا ترى، فيذهب إلى أنه بدون صاحبة السيادة

(ج) Palinodic نسبة إلى Palinode وهى القصيدة التراجعية حيث يتراجع الشاعر عن معنى سابق له قوله فى قصيدة له. (المترجم).

(ح) Metaphysics المقصود هنا هو كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو. (المترجم).

الفلسفة فإن ما يبدو "عجيباً" يكون كذلك، ذلك أنها تجعل "المعجزة" عقلانية. ما يبدو لولاها إعجازاً يصبح بفضلها مفهوماً [الوليمة، ١٤:٣]. وفي الكتاب الرابع - حيث لا يزال يحتفظ باعتقاده بأنها "أعجوبة" أن يكون بالإمكان فهم "أعمال المشورة الأبدية" بواسطة العقل الإنساني - يتنبأ بتمييز سيقوم به في الكوميديا، حينما يقول "ليست أعجوبة" إذا مضت العناية الإلهية في طرقها التي هي طرق خفية بالنسبة لنا (٤،٥،١). مع ذلك فإنه يستمر في تطوير الفكرة، التي رسخها بالفعل في الوليمة، القائلة بأن من العجيب أن يكون بالإمكان إدراك الواقع الإلهي بواسطة العقل الإنساني (الوليمة، ١٢،٤) ويؤكد أن

الرغبة هي دهشة الذهن وهو يرى أو يسمع، أو بطريقة ما يدرك،

أشياء عظيمة رائعة. وبالقدر الذي تبدو به (هذه الأشياء)

عظيمة، فإنها تثب الاحترام لها داخل من يدركها؛ وبقدر ما تبدو

رائعة فإنها تجعله يصبو إلى معرفة عنها [الوليمة، ٤:٢٥-٥]

إن من الواضح أن دانتي يستخدم كلمتي روعة وأعجوبة كمترادفين هنا؛ وهو في الحالتين يطبقهما على أشياء يمكن أن تفهم بواسطة الحواس. ولنلاحظ تركيزه على الأفعال التي تدل على إدراك حسّي، مثل ينظر *Vedere*، يسمع *udere*، يحس *sentire* ويبدو *parere*، وهكذا فإن دانتي في الوليمة يميل إلى استخدام كلمات روعة ومعجزة وأعجوبة كمترادفات وبصيغة خاصة عند الإشارة إلى قدرة العقل على أن يدرك ويفهم ما يشكل الرائع.

وفي الكوميديا يستخدم دانتي الأعجوبة كاسم عدة مرات في القصائد الغنائية الثلاث جميعاً، في حين أنه يشير إلى الثالث باعتباره "إعجازياً" (٤:٢)؛ ويشير إلى بياتريس باعتبارها "بياتريس الإعجازية" (٤:٢٤) وهذه "السيدة الإعجازية" (٢-١، ٢٣، ٦). التي تملك "جمالاً إعجازياً" (٢:١٥) و"الضاحكة الإعجازية" (٨:٢٢) وأخيراً "رؤياه

الإعجازية (١-٤٢) التى ألهمته الكوميديا. وحينما يستخدم دانتى كلمة أعجوبة فى الكوميديا - كاسم، وفى صيغة الإثبات، وفى صيغة المصدر^(٥) وفى صيغة الفعل التام، وفى صيغة أشكال الفعل الدلالية^(٦) - فإنها تشير إلى علامات "مرئية". وتصف كلمة "معجزة" فى هذه القصيدة ما هو إعجازى حقاً - أفعال وأشياء والصفوة - التى، وإن كانت إشارات إلى عمل الرب فى الكون، فإنها ليست غايات فى ذاتها، وإنما علامات على "معجزة" قصوى للرب.

وعلى خطى الفكرة الأوغسطينية عن "الإعجازى" يستخدم دانتى مصطلح الأعجوبة للدلالة على موضوعات الدهشة الشائعة فى أدب الرحلات الشعبى أى للإشارة إلى علامات "مرئية" وعجائب دنيوية. إن إحدى الطرق التى يعبر بها الخطاة عن إدراكهم أو دهشتهم أن شخصاً حياً يعبر الجحيم أو المطهر هى وصفهم لها بأنها "أعجوبة" وعلى سبيل المثال فإن ملاحظة الخطاة عن الطبيعة العجائبية للرحلة [الجحيم، ٦٧:٢٨ ، المطهر، ٦٩:٢ ، ٨٢:٢ ، ٨:٥ ، ١٤:١٤]. ويحيى برونيتو لاتينى تحية رائعة: "يا لها من أعجوبة!" [الجحيم، ١٥:٢٤]. وفى حالة برونيتو يعود هذا الاستخدام إلى استعمال دانتى الكلمة لوصف صاحبة السيادة الفلسفة فى الواليمية، لأن كتاب برونيتو الثروة Trésor- مثل أعمال أرسطو أو بلينى العلمية - كان محاولة فلسفية لمنهجة المعرفة بأشياء العالم. لقد رفع برونيتو مكانة المعرفة - التى ساواها بالحكمة فى كتابه الثروة Trésor - من مساعد اللاهوت إلى ينبوع المركزى للمعرفة ذاتها، جاعلاً من اللاهوت شريكاً مع العلوم الطبيعية والرياضيات كفروع من الفلسفة^(١١). وإن فعل برونيتو ذلك فإنه علّمَ المعرفة وقوض سلم الصعود الروحى - الفكرى لصالح المعرفة

(٥) (خ) التى تنتهى فى الإنكليزية بالحروف الثلاثة ing (المترجم).

(د) الصيغة الدلالية indicative هى التى تظهر الفعل أو الحالة بوصفها صيغة موضوعية لا فكرة مجردة. (المترجم).

الأرسطية الجديدة، كغاية في ذاتها. ومن ثم فإنه، وقد حياً دانتي الحاج بقول "يا لها من أعجوبة"، يتسق بصورة كاملة مع ما يفهمه دانتي باعتباره حدود مقاربة برونيتو للمعرفة.

يعبر دانتي الحاج عن دهشة إزاء ما يراه في رحلته - ما يفعل، مثلاً، حينما يلتقى فوريز^(١٢) (المطهر، ٥٩:٢٣) وساتيوس، "ربما تعجب، أيها الروح القديم، من الابتسامة التي أبديتها" [المطهر، ١٢١:٢١-١٢٢]. إنه يتعجب للمصادفة الخارقة المتمثلة في إطرء ستاتيوس شعر فيرجيل في حين كان الشاعر نفسه حاضراً. ويشعر فيرجيل بدهشة مرئية مماثلة حينما يرى كايافاس^(١٣) راقداً على شكل الصليب عبر المر الذي يقطع الجحيم بأسره (الجحيم، ١٢٤:٢٣). إن تعجب دانتي بشأن رأس إبليس - "ما أعجبه من عجب ذلك الذي بدا لي حينما رأيت ثلاثة وجوه لرأسه!" [الجحيم ٣٧:٣٤-٣٨] - يطبق مفهوم "الأعجوبة" على رأس إبليس "الوحشى" الثلاثى الرؤوس المثير للضحك. وعلى الرغم من أن شيطان دانتي يتسق مع الصيغ الأخرى الوسيطية للشيطان^(١٤)، فإن تأكيد الشاعر على "العجب" يذعن لتقاليد أدب العجائب. مع ذلك لم تكن رأس الشيطان ذات الوجوه الثلاثة "أعجوبة"، إنما هي بالأحرى "بدت" أعجوبة له. ومع وضع التأكيد على العلامة المرئية فإن مظهر الشيطان - بدا ما يمكن أن يكون مزعجاً وضخماً ومذهلاً- يبقى علامة استعارة أكثر مما هو محاكاة^(١٥). والمقابل لهذا التقليد عن "العجيب" هو مخاطبة دانتي المباشرة للقارئ. وأول هذه المخاطبات يرد في الجحيم حين -كما لو أنه يذعن لعجائب الأدب - يبلغ قراءه بأنه لن يكون عيباً إذا ما كانوا هم أيضاً يبطئون في التصديق، فهو نفسه يجد صعوبة في تصديق نفسه. وينبغي أن لا يخلط هذا بموضوع ما لا يمكن وصفه، ذلك أن تأكيده هو بصورة مؤكدة

(ن) Forese Dorati، شخصية فلورنسية، كان صديقاً لدانتي. (المترجم).

(ر) Caiaphas قس إسرائيل الأكبر الذى أدين المسيح فى ختام محاكمته. (المترجم).

للاغاية على ذلك الذى هو مرئى بصورة مدهشة: " إذا كنت الآن أيها القارئ بطيئاً فى تصديق ما أقول، فلن يكون هذا عجيبيّاً، ذلك لأننى وأنا الذى شاهدته لا أكاد أعترف لنفسى [الجحيم، ٢٥، ٤٦-٤٨]. وحينما يرى دانتي كائن الغرفين الخرافى- ذلك المخلوق غير العادى فى علاقته المتساوقة مع إبليس فإنه يخاطب القارئ مرة أخرى، ومن جديد مستخدماً صيغة الفعل، يتعجب: "فكّر أيها القارئ"، إذا كنت قد تعجبت حينما رأيت الشيء الذى يقف ساكناً فى ذاته [المطهر، ١٢: ١٢٤-١٢٥].

إن الغرفين فى خريطة العالم الضخمة، فى عجائب مادة الشرق، وفى الموسوعات، وحش غرائبى يرتبط بالحيثيين وبامتلاك أحجار الزمرد الكريمة^(١٤). ويصف إيزيدور الأشبيلي هذا المخلوق بأنه نصف نسر ونصف أسد^(١٥). ويتحدّى بيتر آر مور-Peter Ar-mour - فى دراسته المهمة الغرفين عند دانتي Dante's Griffin - الموقف التقليدى القائل بأن الغرفين يمثل المسيح فيقدم تارة نظرة أفق رائعة لعقيدة الغرفين فى زمن دانتي ودور "مادة الشرق" فى الفردوس الأرضى عند دانتي. يرفض آر مور ربط الغرفين - الذى يعرفه دانتي بأنه "حيوان" [المطهر، ٣١: ٨٠] و"الحيوان المزدوج" [المطهر، ٣١: ١٢٢] - بالمسيح. إنه يقدم الحجج بطريقة مقنعة على أن طبيعته التأوم، النسر والأسد، تمثل بطريقة أيقونية روما مثالية رفيعة، "روما العظيمة، حيث يعد المسيح رومانياً" [المطهر، ١٠٢: ٣٢]^(١٦) تركب الطبيعة التأومية للغرفين اتحاد روما كإمبراطورية لها أميرها، اتحاد الرأس والجسم، الأمير والشعب، روما الإمبراطورية والجمهورية، إمبراطور فرد ومنصب إلهي^(١٧). وبعبارة أخرى، يمثل الغرفين مستقبلاً سياسياً طوباوياً متغير الهيئة مبنياً على نموذج الإمبراطورية الرومانية، ولكن هذا المستقبل سوف يتحقق فقط فى نزوة موكب الشخصيات و الفضائل التوراتية.

أما إذا كان الغرفين يمثل - أو لا يمثل المسيح، فإننى أبقى مقتنعة بحجة آر مور القائلة بأنه يمثل أملاً فى تاريخ محرر، والتأكيد هو على الموكب، على المشهد الرائع الذى يؤدى أمام الحاج. ومرة أخرى يؤكد الشاعر العلامة المرئية التى - فى حضور

بياتريس- تدعم بؤرته البصرية وهو "يتعجب" إزاء هذا الشيء الذى هو علاماتي بصورة مبهرة. والحاج هو مراقب الموكب الرمزي لدراما لاهوتية - تاريخية لها معانيها الضمنية بالنسبة بتاريخ الخلاص وبالنسبة لأزمته الشخصية. وهى تثير دهشته. وعلى الرغم من أن دانتي يتبنى موضوعات مادة العجائب فى الموكب، فإنه يعطيها وظيفة مختلفة عن تلك التى كانت لها فى الحكايات الخرافية عن حدود الأرض. إنه يعالج هذه الموضوعات فى تفسيره الخاص لتاريخ الخلاص، مبتعداً عن المرئى مادياً إلى الذى يتكشف بصورة رمزية كتاريخ اكتسب طابعاً لاهوتياً وطابعاً مجازياً.

يستعمل دانتي صيغة **أعجوبة** ثلاث مرات فى "الغابة المقدسة"، عدن ذات الهيئة المتغيرة على جبل المطهر. وهو هنا يحول الفكرة التقليدية القائلة بأن عدن تقع فى الشرق، موقع العجائب كما يمثل - على سبيل المثال - فى **خريطة العالم** وكثير من أدب العجائب والموسوعات وكتاب ماركو بولو المليون، الذى زعم فيه أن الجنة يمكن أن ترى هناك. غير أنه يستخدم اللغة نفسها التى تستخدمها هذه المسردات الجغرافية. إنها ترد مرتين كاسم ومرة كفعل متصل فى أنشودة ماتيلدا^(١٨) عن الفردوس الأرضي (المطهر، ٢٨:٢٩-٣٩، ١١٥)، ولكن استعمال كلمة **أعجوبة** هنا يتوازى مع مظهرها المزدوج فى **الجحيم** الأنشودة ٨، (٥٤ ، ٦٧) التى فيها يدهش الخطاة إذ يرون دانتي الحى يسير بين الموتى. ويصف دانتي ماتيلدا نفسها بأنها "أعجوبة" (٢٨:٢٩) ، على الرغم من أنها - باعتبارها منذرة بسلب العجائب يسود فى **الفردوس** - تصر على أنه "ينبغي" - إذن أن لا يبدو عجباً على الأرض إذ يسمع هذا ، حينما يمتد جذر نبات ما هناك دون بذرة مرئية [الفردوس، ٢٨:١١٥-١١٧]^(١٩) . وتميز ماتيلدا عند دانتي بين "التعجب" و"التفهم"، وهو انقسام يفصل النشاط الفكرى كناية فى ذاته عن التبصر

(ز) Matilda إحدى صديقات بياتريس ووصيفة لها. يصفها دانتي فى المطهر بأنها "صورة للحياة النشطة" (المترجم).

الذى يجعل القدرة على الفصل بين "العجائب" وأعمال الرب ممكنة. ويتفق هذا التمييز اتفاقاً كاملاً مع التقاليد التأويلية التى تجعل من ماتيلدا رمزاً للحياة النشطة ومع ماتيلدا باعتبارها رمز الحكمة^(٢٠). هنا تؤكد صاحبة السيادة العدنانية الفلسفة عند دانتي كيف يمكن للفلسفة واللاهوت أن يتآلفا، إذ أولاهما تجعل من الممكن للبشر أن يفهموا وثانيتها تجمع بين الفهم والبهجة. إنها وصيفة بياتريس، إنها الكياسة التى تفضى إلى الرب، فى سلسلة من التدخل والهداية الأنثويين اللذين بدأ بمريم. وحينما تدرك ماتيلدا أن بعض الشكوك تعرقل دانتي، فإنها تشير إلى المزمور الحادى والتسعين، الذى يمكن أن يساعده فى التغلب على شكوكه: "بعض الشكوك يبقيك فى عجب، ولكن المزمور فوحى يبعث النور الذى يمكن أن يبدد الغيم من عقولكم [المطهر، ٢٨: ٧٩-٨١]. هنا يرتبط "التعجب" بالشك الفكرى، لكن نقيده، الاستنارة، يوفره المزمور. وكما يشير تشارلز سنغلتون (Ch. Singleton) فإن هذا المزمور لا يبدأ بـ الفرحة. ترد هذه الكلمة وسياقها فى البيتين ٥-٦ (٤-٥) "لأنك يا رب فرحتنى بصنعك. لأعمال يدك أرثم. ما أعظم أعمالك يا رب." يستخدم بيتر أبيلار هذين البيتين ليصف حالة الرجل والمرأة الأصلية فى عدن. فى كتابه Hexaëmeron يوجه أبيلار الانتباه إلى ملذات الحواس التى تمارس فى عدن وتستمر إلى ما بعد السقوط، الذى هو جزء من خطة الرب للخلق والتى يمكن أن تدفع البشر لأن يتمدحوا الخالق كما فى المزامير^(٢١). يربط دانتي بين "التعجب" و"الشك" والدهشة ازاء الظواهر البصرية وبين الشك الذى يضعه فى مقابل عمل الرب؛ وهو بهذا يكشف عن التفكير الانفصالى الذى يجعل البشر يتعجبون أو يدهشون ازاء الخلق كنقيض للبهجة بالكيفية التى تؤدى بها عملك العظيم يا إلهى" وهنا يبدو الشاعر مجدداً مقوضاً النشاط الفكرى والتجارى الذى قاده إلى أن يرصد قائمة الأعاجيب أو أن يحسبها. إنه يميز الظواهر البصرية التى تثير الدهشة وتؤدى إلى موضعتها أشياء العالم من المشاركة فى بهجة خلق الرب. إنه يضع اللاهوت الفرنسيسكانى، كما طوره بوناڤنتورا، فى مواجهة مسردات الرحلات الشعبية، والتقاليد الموسوعية التى تدعم "العجائب" باعتبارها مخزونها فى

التجارة، وكشكل وضيع من السكولانية (المدرسية). وفى مواصلة مداولة حول الاستقلال الذاتى للطبيعة، يتخذ دانتي موقفاً فراسيسكانياً: إن عمل الرب واضح فى أعمال الطبيعة، وليس هذا عجباً.

يستعمل دانتي صيغة من كلمة "أعجوبة" *marviglia* بصورة متكررة فى *المطهر* وفى *الفردوس*، ولكن هذه مصحوبة على الدوام بالنفى. وفى الحقيقة إنه فى مناسبات ثمان، حينما يستخدم صيغة من كلمة *أعجوبة* - سواء كان قد استخدمها فيرجيل للحاج (المطهر، ٢٩:٣، ٢٨:١٥) أو استخدمها فيرجيل للتائب (المطهر، ٢:٩٧) أو فى محاكية القارئ (المطهر، ٩:٧٢) أو استخدمها غويدو ديل كوكا لدانتي (المطهر، ١٠٣:١٤) أو بياتريس للحاج (الفردوس، ٢٥:٣، ٤:٥) أو القديس بطرس لدانتي (الفردوس، ٢٠:٢٧) - فإنه يرفقها دائماً بنفى: "لا عجب". وهذا صحيح أيضاً فى كل مناسبة حين تكون مستخدمة كاسم فى الفردوس، الذى فيه يقتطع النص على الدوام الفكرة القائلة بأن ما يخبره الحاج أو ما تجرى مناقشته يمكن تفسيره بأنه أعجوبة: "لا عجب!" (الفردوس، ٤٧:١٠، ٥٩:٢٨) أو "لا يأخذك العجب" (الفردوس، ١٣٩:٢٧). وفى الحقيقة يحدد هذا النفى للعجيب أسلوب الفردوس. ففى الأبيات الختامية من الأنشودة الأولى فى الفردوس، وفى موازاة استبعاد ماتيلدا^(٢٢) "الأعاجيب" فى *المطهر* (١١٥:٢٨) تخبر بياتريس الحاج بأن عليه أن لا يدهش لأنه يصعد، لأن هذا طبيعى؛ تماماً كنهر ينحدر من جبل، إنه يكون عجباً حقاً إذا عاد - وقد تحرر من العوائق- إلى السفح (الفردوس، ١٤١-١٣٦).

ثمة استثناءان مهمان لهذا النفى لفكرة "العجب"، وعلى الرغم من أهميتها فإنهما كليهما مرتبطان بفكرة "مادة الشرق". المناسبة الأولى فى الأنشودة ١١ من *الفردوس*، فى حياة القديس فرانسيس، حينما يستخدم دانتي عدداً من موضوعات "الشرق"، بينها نهر الكانج. لكن هنا أيضاً يجرى الحديث عن غرام القديس بالفقر باعتباره "أعجوبة" (٧٧) دفعت آخرين إلى أن يحذو حذو نمودجه. وهكذا عكس "إضفاء طابع

غرائبيّ" على أدب العجائب، الذى كان يدعم الدهشة كغاية فى ذاتها أو كحافز على نشاط تجارى. فى هذه الأنشودة يربط دانتى القديس فرانسيس بـ "أعجوبة شرقية" لها قوة تحويل أولئك الذين يقيم معهم اتصالاً روحياً. وهذا مثال محدد على فكرة أوغسطين القائلة بأن الأعاجيب يمكن أن تلهم البشر أن يؤمنوا بالآلهية غير المرئية التى خلقتهم. أما المناسبة الثانية فهى حينما يبلغ الحاج دانتى بأنه على الرغم من أن الأشخاص الذين يراهم بين النخبة - ترايان وريفيوس، الذين يظن أنهم وثنيون - يمكن أن يدهشوه، قد غادروا الدنيا "ولديهم إيمان راسخ" [الفردوس، ١٠:٢٠-١٠:٥].

يبدو استخدام كلمة أعجوبة فى هذا السياق تفصيلاً متعمداً لأدب "العجائب" الذين كان يتأمل فى شأن الناس الذين كانوا يعيشون خارج الزمان والمكان المسيحيين هنا. يهدم دانتى بالكامل فكرة وجود آخرين "غرائبيين" عن طريق إظهار أن أعمال العناية الإلهية عجلت بأعاجيب تجعل من الممكن لأولئك الذين عاشوا على الهوامش (فى هذا الحالة الهوامش الزمانية لا المكانية) أن يتجمعوا فى السماء (الجنة)، تماماً فى الوقت الذى تطوق فيه جيوش المسيح الأرض بأسرها فى خريطة العالم.

اختبار المعجزة

يتعارض استعمال دانتى كلمة "أعجوبة" فى الكوميديا مع الطريقة التى يستخدم بها كلمة "معجزة". فهو يستعملها كصفة عشر مرات فى الفردوس، لهذا يبدو أن كلمة "معجزة" تعكس فكرة أوغسطين عن الكيفية التى تتحقق بها الأعمال الإعجازية الإلهية فى العالم. أما ظهورها الوحيد فى المطهر - فى الأنشودة الثلاثين، وخاصة على لسان بياتريس- "كأمير البحر" (٣٠-٥٨)^(س) a hapax legomenon - يقفل راجعاً إلى

(س) a hapax legomenon فى اليونانية تعنى الكلمة أو القول الذى ورد فى التوراة مرة واحدة، الأمر الذى يجعل تفسيرها صعباً للغاية نظراً لغياب إمكانية مقارنة استخدامات متعددة للكلمة أو القول. (المترجم).

الطريقة التى استخدم بها دانتي هذه الكلمة فى الوليمة، التى فيها دمج المعجزة والأعجوبة والإعجاز، حول موضوعها دانتي من بحث لاهوتى إلى مسعى فلسفى بصورة أكثر حصرية - تعنّفه بياتريس على تخليه عنها، وتخبر الملائكة "هذا الإنسان أصبح فى حياته الجديدة فى النهاية" ما كان كفيلاً فى النهاية بتوجيه كل استعداد صحيح لديه لجعل منه برهاناً معجزاً [المطهر، ١١٥:٣٠-١١٧]. لقد سعى إلى "اختبار المعجزة"، ولكن فى الكوميديا يتضح أن هذا كله لا يعدو أن يكون اجتماع لفظين ومتناقضين: ليس لأن العقل منفصل عن الإيمان - إنما على النقيض من هذا، لأن العقل أداة قوية فى خدمة الإيمان - بل لأنه حاول رد "الإعجازى" إلى نسق عقلائى، "اختبار". ويذهب برونو ناردي إلى أن الاقتناع الفكرى الذى يسند الوليمة، التى يتحول دانتي نحوها بعد وفاة بياتريس، كان أن العلم، بمعنى المعرفة، هو الكمال المطلق لروحنا، وفيه يمكن أن نجد سعادتنا النهائية^(٢٣). إن وضع "الاختبار" والمعجزة معاً، القصيدة التراجعية الوليمة فى اتهام بياتريس تشير بدقة إلى عمى إيمان دانتي السابق بأن بإمكان العقلانية أن تقدم برهاناً إعجازياً. لقد تبع دانتي كتاب معلمه الثروة Trésor إلى الدرب الفلسفى كغاية فى ذاته فى الوليمة. كانت هذه هى الغواية التى أفضت إلى علاقة غير مشروعة مبنية على خلط بين العجائب الوهمية والمذهلة للمساعى العقلانية والبحث اللاهوتى الحق. كأمر البحر - وهى كلمة من أصل عربى - فى استعمال دانتي تجمع المعجزة والمرشد البصرى - مركز بياتريس للإعجازى الحقيقى كتنقيض لمعنى العجب الذى تلهمه البحوث العقلانية التجريبية (الإمبريقية) أو المناظر التى شاهدها الرحالة التجار أو الحجاج.

يجدل دانتي استخدامه كلمة أعجوبة بموضوعات "مادة الشرق" بما فيها الموضوعات الأساسية لأدب العجائب، ولكنه يحول هذه المادة أو غيرها. فهو يستعمل كلمة أعجوبة ليصف اصطفاء الرب، "الربيع المعجز" [الفريوس، ٦٣:٣٠] - سواء كان شخصاً أو أشخاصاً أو حياة شخص - وينبغى أن لا نفاجاً إذا اكتشفنا على من على

وجه التحديد يطلق هذه الصفة. وقصيدته تضيء طابعاً جذلاً على هذه باعتبارها العجائب الحقيقية، علامات الرب في الكون. شير دانتي في الأنشودات الأولى من **الفردوس** إلى بياتريس، على نحو ما فعل في الحياة الجديدة، باعتبارها "شيئاً عجيباً" (٢٥:٢) ويشير إلى "المنظر العجيب" لبيكاردا (ش) وأولئك الذين يرافقونها (٥٨:٣). ويلمح الشاعر إلى القديس فرانسيس باعتباره "الحياة العجيبة" مرتين (٩٥:١١، ٢٢:١٣)، كما يشير القديس بونافنتورا إلى نظام القديس دومينيك الرهباني بأنه "الثمرة العجيبة" (الفردوس، ١٢:٦٥). ويبدى القديس بنديكت في كتابات دانتي إشارات محددة إلى مناقشة أوغسطين للأعاجيب. ويحكي حياة الفقر والتواضع المثلى التي عاشها القديس بطرس والقديس فرانسيس وهو ذاته (٨٨:٢٢-٩٣)، تلك التي تتعارض تعارضاً حاداً مع أسلوبه الحياة الذي تبناه القساوسة والمتدينون الذين ساروا على خطاهم. فيقول القديس بنديكت: "مع ذلك فإن تراجع نهر الأردن وانحسار البحر حينما أراد الرب، قد أثار مرأهما عجباً أشد من العون هنا" [الفردوس، ٩٤-٢٢-٩٦]. ويذهب القديس أوغسطين وبونافنتورا على المعجزات التي أتى بها الرب (ومن بينها يذكران كلاهما تقسيم نهر الأردن ودخول يشوع أرض الميعاد) وهي أمور تافهة في نظر الرب، ولكنها مهمة للغاية في قوة توجيهها للفانين^(٢٤). ويقول بنديكت - حسب دانتي - في تواضع تام أنها كانت معجزة حقاً حينما ارتد نهر الأردن وفر البحر لأن الرب حوّل. وبالمثل فإن فعل الرب "المعجز"، أي العناية الإلهية في فعلها، يوجه آلة السماوات الفلكية الهائلة، التي جعلت بالإمكان الهروب من المنفى لجميع المختارين: "سترى تطابقاً عجيباً بين ما هو كبير والأكبر وما هو صغير والأصغر في كل سماء فيما يتعلق بقواها العاقلة" [الفردوس، ٧٦:٢٨-٧٨]. وأخيراً فإن دانتي يرى "الربيع العجيب"، المختار في الأنشودة ٢٠ من **الفردوس**. ويتوازى هذا مع "العناية

(ش) Piccarda Donati شقيقة كورنر وفوريز دوناتي، صديقي دانتي، وقريبة جيما زوجة دانتي. كانت تمتاز بجمال باهر. وقد ختمت حياتها راهبة. (المترجم).

الإلهية في الأنشودة ٢٠ من المطهر، إنما هنا يتجاوز الراعى الإمكانيات المبالغ فيها المحتفى بها في "الفردوس الأرضي"، بينما المشهد السماوى يجتاز الربيع إلى "الأعجوبة". ومرة أخرى يتبع دانتي خطى استعمال أوغسطين وبوناونتورا المعجزة باعتبارها "الأعجوبة" التى تشهد على عمل الخلق الإلهى.

يحول دانتي أعاجيب العالم الشرقى على أدوات رمزية للاقترب الحميم من "أعاجيب" العالم "الحقيقية". إن بلينى والموسوعيين يحددون موضع المصدر الأولى للأحجار الكريمة فى الشرق الأوسط والهند. وبالمثل فإن المسردات الصليبية وأغنيات الإيماء بالمثل تتركز على كل الأشياء الثمينة فى حوزة الأغراب "الذين أضفى عليهم طابع عجائبي" الذين أجروا اتصالاً مع الأوروبيين سواء فى المعارك أو فى التجارة. ويلمح دانتي إلى الأحجار الكريمة عدداً من المرات فى قصيدته، وإن كانت إشاراتة تزيد كلما مضينا معها: يرد تلميح واحد فى الجحيم وأربعة فى المطهر ويرد كثير فى الفردوس، وإن كان اسم الحجر ليس محدداً دائماً^(٢٥).

إن مصادر دانتي الممكنة لهذه المادة هى كتاب بلينى التاريخ الطبيعى وكتاب سولينوس Collectanea Rerum memorabilium sive Polyhistor، كما حفظتها موسوعات مثل موسوعة إيزيدور وموسوعة فينسان بوفيه، وكلتاها تضم أقساماً تتعلق بالأحجار الكريمة^(٢٦). وقد قام بلينى بجرد الأحجار الكريمة وتعريفها ضمن عظمة الطبيعة وعجائبيها، وشجب سوء استعمال البشر لها^(٢٧). وثمة مصادر ممكنة أخرى منها ماريود رين (١١٢٣-١٢٥٠) عن الأحجار الكريمة De Lapidus، الذى يتضمن قسماً موجزاً عن الأحجار الكريمة يعطى الأحجار صفات صوفية -رمزية؛ بارتولومايوس إنجيليكوس Bartholomens Anglicus (اشتهر فى الفترة ١٢٣٠-١٢٤٠) فى كتاب De Proprietatibus Rerum (١٢٣٠؟) الذى اشتمل على قسم عن الأحجار الكريمة؛ وبطبيعة الحال ألبرت الأكبر فى كتاب عن المعادن De Mineralium. ومن

الأعمال فى العصر الوسيط باللاتينية أو العامية التى تستخدم الأحجار الكريمة كرمز لعجائب الشرق: الحكايات^(٢٨) Novellino، مسردات صليبية، أغنيات الإيماء^(٢٩) وكتاب ماركو بولو المليون^(٣٠). وتضم المصادر الممكنة الأخرى، خاصة عن الاستخدام الرمزي للأحجار نبوءة حزقيال (١٠:١١-١١) ورؤيا يوحنا (٢١:١٥-٢١). وبالإضافة إلى هذا كله فإن العالم الآخر الموصوف فى كتاب المعراج، الذى ألهمته هذه النصوص التوراتية، يتضمن أحجاراً كريمة.

ويبرز كتاب ألبرت عن المعادن - الذى يتناول كافة المعادن- كعمل من أعمال العلم الجاد. والحقيقة أن جيولوجيى أواخر القرن العشرين يقرون به كمساهم مهم فى علمهم^(٣١). وعلى النقيض من التركيز على العناصر "العجيبة" فى الجواهر كما فعل مؤلفو أدب الرحلات والموسوعات العامية، فإن ألبرت قارب موضوعه بموضوعية. سعى إلى وصف مظهر المعادن والجواهر وصفاتها وأماكنها الأصلية واستخداماتها، فى محاولة لجعل موضوع لم يكن حتى ذلك الحين قد نوقش علمياً، حتى من جانب أرسطو، موضوعاً قابلاً للفهم ومنهجياً.

إن مؤلف ألبرت مثير للاهتمام بنوع خاص فى سياق استعمال دانتي للجواهر كمجاز دال على المباركين. أولاً، بالإضافة إلى ندرتها الواضحة ونفاستها وقواها الخاصة، فإن قدرتها أن تعكس الضوء تجعلها وسيطاً ملائماً لتقريب الخاصية البصرية للسماء^(٣٢). بالإضافة إلى هذا، حينما شرح ألبرت لماذا تتشكل صور الأشياء على أنماط الجواهر وليس على أنماط أشياء أخرى- على سبيل المثال المعادن الخام، العظام، وما إلى ذلك - تكهن بأن الأحجار الكريمة هى أكثر إذعائاً للتأثير السماوى أثناء تشكيلها. كانت هذه مجرد نظرية كما يشير هو نفسه: "هذه الأشياء، ليست علماً طبيعياً بحثاً". ولكنها - يضيف - "لأنها عقيدة جيدة فإنها مدرجة هنا"^(٣٣). هكذا كان أولئك الذين هم أكثر إذعائاً للتأثير السماوى. إن مقارنة ألبرت العلمية تتجاهل كل

دعايات "مادة الشرق" بشأن الأحجار الكريمة. فعلى الرغم من أنه يعترف بأن أندر الأحجار الكريمة وأغلاها توجد باستمرار في الهند أو في الشرق، فإن هذا عند ألبرت جزء من تاريخها الطبيعي. مع ذلك، وكما في لاهوت الطبيعة عند بوناڤنتورا ينظر ألبرت إلى الجواهر باعتبارها المنتجات الأجمل بين منتجات الخلق الإلهي، باعتبارها علامات إلهية. ولأنها علامات فإنها لا تجعل الرب حاضراً، إنما هي الوسيلة لاحتلالها، التي تستطيع بذاتها أن تعكس أو تحاكي شبيهاً فحسب.

يتبنى واحد من استخدامات دانتي الأولية لحجر نفيس موضوع "العجائب" بفرض الانتقاص من قدره. يرد هذا في الأنشودة ٢٤ من الجحيم، وهي الأنشودة التي تبدأ بتشبيه مطول رائع يشير إلى منتصف الشتاء (١-١٥) والأمل. المشهد إيطالي على وجه التحديد (البحر الأبيض المتوسط) مع تأكيد على الصقيع، على "الفلاح" الذي يدفع أغنامه أمامه نحو المرعى" (١٥:٢٤). وعندما يصل فيرجيل ودانتي في النهاية إلى الحفرة التالية، يرى دانتي - على نقيض حاد مع صورة الرعي الساذجة في هذا التشبيه- "حشداً مخيفاً" (٨٢:٢٤) وطاعونا. ويعجل هذا المشهد بحدوث هتاف، في صورة بيانية، من حيّات جهنم: "دخانات" و"قفازات" و"حفارات" و"رقطلات" و"أفعالوات" (٨٦:٢٤). هذه المخلوقات تثير تلك العجائب المخيفة في مناطق الحدود (ليبيا، الحبشة، البحر الأحمر [الجحيم، ٨٥:٢٤، ٨٩، ٩٠]). حيث - في حياة دانتي- شاع أمر تحديد مواقع أنواع كثيرة من العجائب. لقد تفجرت الطبيعة لأقصى فظاعاتها وأمادها المخيفة، فيما يصف الشاعر الاندفاع الجنوني بحثاً عن مكان للاختباء أو عن عقيق (٩٣:٢٤).

بالإضافة إلى الأفاعي، التي تظهر في مادة "الأعاجيب"، اليتروپيا "eliotopia" - حجر نادر وصفه ألبرت بأنه حجر بابلي- كان المعتقد أنه يملك القدرة على جعل الشمس تبدو وكأنها تمر بحالة كسوف^(٢٤). حجر العقيق كان يستخدم في استحضر الأرواح

بسبب قدرته الأكيدة على خداع الحواس وحتى جعل الأشخاص غير مرئيين، يظهر أيضاً في الحكايات، ولكن على النقيض من برهان الحكايات على الاستعمال الناجح للعقيق لعمل السحر، يؤكد دانتي المظهر الزائف والقوى الخادعة المرتبطة بها، والتي تربطها في الوقت نفسه ببابل، مدينة الفساد الأسطورية. هكذا يصبح العقيق مجازاً دالاً على براعة السرقة والقدرة على جعل الأشياء وكأنها تختفى.

في "الأشخاص العراة والفرزعين" [الجحيم، ٢٤: ٩٢] الذين "بلا أمل (٢٤: ٩٢) يبحثون عن آمال زائفة، يستدعى دانتي تقاليد العجائب التي كانت تربط العقيق بقوة الاختباء والخداع. ويخطئ الناس، حين يتحولون نحو مثل هذه الأحجار لنيل مساعدة خادعة، فيظنون الرمزى هو المادى (العلامة على أنها الشيء) أو يدركون المادى على أنه غاية في ذاته، تماماً كما فعل اللصوص في الحياة في هذه الأنشودة. على النقيض من هذا ترى "الحكايات" علامات الطبيعة وتكتسب أملاً جديداً: "يستعيد الأمل حين يرى أن معالم الأرض غيرت في برهة وجهها [الجحيم، ٢٤: ١٢-١٤] (٢٥). يستنبط دانتي - عبر هذه المقارنة - الفرق بين عالمه المعروف في إيطاليا ووهم الآمال الزائفة، بين الأمل في علامات الطبيعة والأمل الزائف في العقيق. يتبين دانتي وصف ألبرت الخصائص الشهيرة لهذا الحجر على كشف مرأى اللصوص الزائف. وتنتشر إشارة الشاعر "إضفاء طابع الغرابة على الشرق" وتستخدم أرض الخطر والغموض كموضوع، ولكنها تذكر صفات العقيق المذكورة. إن العقيق يقدم أملاً زائفاً على النقيض من أمل حقيقى، الذى هو فى الحقيقة يقين إلهى، لأن "الحكايات" يمكن أن تعرف أن الربيع سيأتى بملاحظة علامات الطبيعة. وفى إمكانية التنبؤ بعلامات الطبيعة توجد آثار بوناغنتورا أو حضور رمزى للرب.

يفتح دانتي المطهر - فى مواجهة التقليد الشعبى الذى يربط "الجنة الأرضية" بـ "الشرق" (٢٦) - بإشارة محددة إلى جوهرية أخرى فى المنطقة. "لون رائع من

لازورد (ص) الشرق (١٣:١) (٣٧) يشير ليس فقط إلى بداية يوم جديد، إنما إلى بداية أمل جديد وبهجة أعاد البهجة إلى عيني^{٣٧} (١٦:١). وقد اشتهر اللازورد بأن له خصائص كثيرة واسعة. فلو أنه الأزرق الشفاف كان يرتبط بنور الصباح الباكر الباهر الذي يأتي من الشرق^(٣٨). وكان يرتبط بصفة خاصة بالهند، طبقاً لما يقول ألبرت الذي يكتب: "اللازورد حجر شهير للغاية ويأتي معظمه من الشرق، من الهند"^(٣٩). ويؤكد ألبرت أيضاً أن اللازورد يجعل المرء قوى الإيمان ومكرساً للرب بينما يثبت العقل على الخير. وهذه بوضوح خصائص مناسبة لبيئة تطهيرية. ومما له دلالاته أيضاً بالنسبة لـ المطهر أن اللازورد كان يستخدم لعلاج الأمراض الهيئية^(٤٠). لكن دانتى يذهب إلى أبعد من مجرد الإشارة إلى خصائص الحجر: يقول أن رؤية الفجر الذي يشبه اللازورد يشع بهجة في عينيه. هنا يبدو دانتى عازماً على أن يجمع صحائف العجائب، لأن فردوسه، شأن الفردوس الإلهي عند يوحنا، وعلى النقيض من مسردات العجائب - هو فردوس متخيل. أما بالنسبة لبونا فنتورا تحت تأثير بزيديو - ديونيسوس (في كتاب الطبقات السماوية (Caelesti Heirarchia)، فإن فهم المجال المادى للعالم، وهو صفة مفارقة رابعة للوجود being، يسمح للمرء بأن يخبر الانسجام والابتهاج والتناسب^(٤١).

حجر كريم آخر - هو الزمرد، لون "الأمل" smeraldo الذي وصفه ألبرت بأنه أغلى من معظم الأحجار الأخرى، وبأنه يأتي من بلاد الحيثيين وبريطانيا والنيل، وبأنه أخضر ونصف شفاف^(٤٢) - يرد ثلاث مرات مهمة في المطهر، في قصيدة الأمل الغنائية:

إن الذهب، والفضة الخالصة، والقرمز، واللؤلؤ، والنيلج، والخشب الهندي اللامع والرائق، والزمرد البراق لحظة شقّه، لتخسف ألوانها جميعاً إذا ما وضعت بين

(ص) Saphire هو أيضاً الياقوت الأزرق في العربية. (المترجم).

الأعشاب والأزهار فى ذِيَاك الوادى، على نحو ما يتفوق الأكبر على الأصغر [المطهر، ٧٣:٣-٧٨].

هنا تؤدى "مادة الشرق" دور ورقة النبات تحت الحجر الكريم: أخضر دانتي الرعوى المتحول فى المطهر يتجاوز كثيراً هذا الحجر نفسه، الموصوف فى نصوص الرحلات والنصوص العلمية والموسوعية. أما الاستخدامان الآخران للزمرّد فى المطهر، فإنهما يربطان بصورة محددة لونه بالموضوع السائد للقصيدة الغنائية. ففي الأنشودة ٢٩ هو لون الأمل الفاضل: "كانت الأخرى كأن لحمها وعظمها قد صنعت من الزمرّد (١٢٤-١٢٥) وفي الأنشودة ٣١ هو لون عيني بياتريس: "ها قد وضعناك أمام الزمرّدتين" (١١٦) اللتين من داخلهما أسر الحب الشاعر. وحيث أن كلا من ألبرت وفينسان بوفيه يقرران أن "الزمرّد يشفى البصر" (٤٣) فإنه من قبيل التشبيه الملائم لعيني بياتريس، اللتين هما وسيط استعادة الشاعر صحته الروحية. وهو بالمثل حجر مناسب للمطهر، حيث تطهر العيون الخاطئة التى اختارت بطريق الخطأ لذات الأرض. إن المادة "الشرقية" من الأحجار الكريمة تعاد صياغتها كعلامة رمزية على الأمل.

يشير دانتي مرات أكثر إلى الجواهر فى الفريوس، حيث تصبح واحدة من وسائله المجازية للتلميح إلى المباركين "الجواهر البراقة" (١٦:٢٠) (٤٤) هو هنا يستخدم أسماء الأحجار - كلمة حجر ذاتها - كجزء ذى علاقة بالحديث - واللفظة الجديدة المجوهرات lingemarsi للحديث عن حالة أو ظرف المباركين (٧١:١٠، ٢٢:١٥، ١١٥:٨، ١١٧:١٨، ١٧:٢٠) (٤٥) وتستخدم بعض الكلمات الدالة على أحجار فعلية مرة واحدة فقط لتأكيد تفردّها، ولكن بعضها أشير إليه ثلاث مرات. الماس (٢:٣٣) واللؤلؤ (٣:١٤) مستخدمة مرة واحدة، ولكن الدرة ترد ثلاث مرات (٢:٢٤، ٦:١٢٧، ٢٢:٢٩). وعلى الرغم من أن الياقوت (٦٦:٣٠)، والياقوتة الصغيرة (٤:١٩) وياقوتة بالاسو (٩:٦٩) مذكورة كل منها مرة واحدة، فإنها جميعاً مترادفات للياقوت. يزعم مؤلف كتاب De Bestiis et Aliis

Rebus أن الياقوت Amethystus أو Carbunculus يأتي في ثلاث درجات من اللون الأحمر، الذي يدل - باعتباره لون المحبة - على عذاب الشعور الملتهب نحو الرب الذي يشبه نار المحبة^(٤٦). وعند ألبرت فإن الياقوت يمتلك قوى أعظم من قوى الأحجار الأخرى. وتوجد منه ثلاثة أنواع (على الرغم أن أحسنها الليبي) والأكثر أهمية أنه يشع في الظلمة^(٤٧). واستخدام دانتي لثلاثة مترادفات للياقوت هو تلاعب شعري بالثالوثية، لأن الياقوت هو واحد وثلاثة على السواء. هذا الحجر، الذي له لون الحب، يصبح مجازاً آخر لمن خلصته السماء. على سبيل المثال فإن الشاعر البروفنسي فولكو المارسيلى يوصف بأنه "مثل ياقوتة نقية" (٦٩:٩). وهنا يستخدم دانتي كلمة balassa - واحدة من أندر أنواع الياقوت - ليفرد بها شاعراً عامياً ترك حياة راحة إلى أحد أديرة البندكتان. وهذا الشاعر الذي اختار مساراً متطرفاً من الفقر على هذه الأرض يعرف المعنى الحقيقي للثروة، أى الجواهر السماوية. وبالمثل فإن كل من المخلصين المباركين فى "النسر" - الذى يشير إليه سانجوينى على أنه "صاقل الأحجار الكريمة الغامض"^(٤٨)، يبدو ياقوتة "تبدت كل منها كأنها ياقوتة صغيرة" (٤:١٩) فهي نادرة ندرة الحكام العاديين.

إن أول إشارة إلى الأحجار الكريمة فى الفردوس تصور كيف يستخدم دانتي هذه الأشياء لخدمة أغراضه الشعرية فى القصيدة الغنائية الثالثة، ذلك أن المجوهرات هى هنا تشبيهات أو مجازات للمباركين:

بدا لى أن سحابة قد غطتنا، وكانت متلألئة، كثيفة، ناعمة، صلبة

كأنها ماسة سطعت الشمس عليها. وفى طياتها تلقطنا للؤلؤة الخالدة،

كما تتلقى المياه شعاع نور وتبقى غير منحسرة [الفريوس، ٣١:٢-٣٦]

ولكن فى هذا المثال تتبىء الاستخءاماء الفعل بءا *parer* والفعل الشرطى غطى *coprisse* حتى يمكن أن تكون فقط "مثل ماسة" أو بالإمكان "لؤلؤة خالءة" فى طياء السحاب. إن قءرءتها على أن "تشع" و"ءعكس النور" و"ءضربها الشمس" كما تتلقى المياء شعاعاً من النور"، بىنما ءءقظ بكتافءتها أو صلابءتها أو عءم قابلىءتها للءغىر ءوفر فضىلىءتها المءازىة، لأنها ءعكس صفءتها عن بعء، وهى غامضة من ءىء الءلالاء اللفظىة. وءوحى اللغة بقاءىة ءءضور الفعلى للأرواء للزوال السرىع، مع ذلك فإنها ءماءل فى صلابءها الأحجار. هءه ءالء من ءءناقض بىن لفظىن مءءمعىن هى مركب ءبرة ءاآ قبل هءه الرؤىة: المءلصون هم ءقىقوىن ولهم صلابء ونفاسة معظم الأشياء النفىسة على الأرض، ولكن مكائءهم فى ذاكرة رؤىة الشاعر – أى فى القصىءة – لا ءزال مجرد مءاز. إن مكائءهم الأصلىة ءءآاوز اللغة، إنما المءاز وءءه يمكن أن يكون بءىلاً عن واقعهم. وبشكلاً هءا ءءناقضاً ءاءاً مع صخرىة ءهنم ءقىقىة، ءىء ءهىمن الصخرة المءخىلة – مثلاً– كءذكىر ساخر بإءفاق مشءرى المناصب الكهنوءىة فى أن ىءءموا "صخرة" الكنىسة (الءءىم، ١٩) أو ءىء ءؤكد العوالم ءبرىة – فى مرأب ءهنم الءنبا بوجه ءاص– صلابء الأرواء المءصورة فى ءهنم وصالءة الأماكن ءى ىءبون فىها أنفسهم^(٤٩) .

لو كانت قواف فظة لاءعة ءناسب الفءوة البائسة، ءى ارتكزت علفها كافء الصءور، لأمكئنى أن أفى بالءعبىر عن عصارء أفكارى على نحو أكمل [الءءىم، ٣٢:١-٤].

وعن الأحجار ذائءا فإن "الءرة" [الفردوس، ١٢٧:٦، ٢٢:٢٨-٢٩]، ءى ءرءع بأصلها إلى الهند، ءسب ما ىقول ألبءرء، هى أكثر ءواهر بىاضاً، كما أنها ءومض^(٥٠) . وعلى الرءم من أن فىنسان بوفىه ىسءذكر اللألى الهندىة العظىمة لءى الملكء الغانىة (أى كلىوباءءرا)^(٥١)، فإن ءءصىص ءانءى اللألى للإىمان نحو مظهر

المباركين يفصل عمداً الأحجار عن الممارسات المادية للرومان الذين استولوا عليها لاستخدامهم الشخصى ومن أجل السلطة - وهى عادة أدانها بالطبع بلىنى إدانة شديدة.

تتألق اثنتان من أنشودات القريوس بوجه خاص بإشارات إلى الأحجار الكريمة، الأنشودة الخامسة عشرة والأنشودة الثلاثون. إذ يوصف كاشياغويدا - شأن كل المباركين الآخرين - بصفة مبدئية بأنه جوهرة عامة " وهذه الجوهرة لم تترك وشاحها، ولكنها سارت على طول الشريط المشع وبدت كنار وراء المرمر الشفاف" (٢٤:٢٢-١٥). ولكن حينما يخاطب دانتى كاشياغويدا يشير إليه بأنه "توباز حى": " أنت أيها التوباز النفيس" (١٥، ٨٥-٨٦)^(٥٢). وحسب ما يقول ألبرت فإن التوباز يفعل فعل مرآة، يعكس صور الأشياء^(٥٣). لهذا يوحى استخدام دانتى تشبيه كاشياغويدا بتوباز حى، مرآة تكسر شعاع الصور. يراكم دانتى الجواهر، واحدة فوق أخرى ويربطها باللفظة الجديدة ingemmi فى إشارته الى كاشياغويدا، فيصعد فعل "التجهر" والانعكاس المرآتى، حتى وتجاوزة المجازى يبرز استحالة وصف ما يشهده الشاعر. فى الوقت نفسه فإن فائض المجاز يبرز استحالة وصف ما يشير إليه.

وبالمثل، وعلى الرغم من أن المجازات تصف بما لا يتجاوز الخيال، فإن طبيعتها المحددة - فى كل حالة يشار فيها إلى "الأحجار الكريمة" - لا يمكن التمعن فيها بصرياً. وعلى سبيل المثال:

ورأيت نوراً فى صورة نهر يتلألأ فيه الضياء، بين ضفتين

يزينهما ربيع عجيب رائع، ومن ذلك النهر انطلقت شرارات

ساطعة، وانتظمت بى الأزهار على الجانبين، وكأنها

يواقيت فى حلقات من ذهب [الفردوس، ٣٠:٦١-٦٦].

يرى دانتى "المباركين" كنور فى صورة نهر، شرارات حية، ياقوتات، ذهب، الكل فى حركة فى أن معاً، نور ساطع، لون واحدة رعوية متحولة، "ربيع عجيب". يصف دانتى - وقد تجاوز قواه "أخذت أسمو على مالى من قوى" [الفريوس، ٥٧:٣٠] - نقوش أنفوس سمات الطبيعة للإيماء إلى ما يمكن أن تكون السماء. هنا الضوء هو نهر رسم ضفتيه رسمهما ربيع إعجازى، ومن هنا مسألة المباركين، الذين ينزلون على الزهور كما الياقوت فى الذهب. تتحدى الروعة الجمالية للسموات قوته الشعرية، من ثم تتمثل هذه الرؤى المتجزنة فى كلمات تحل محلها. وكما تشرح بياتريس الأمر له، "الجدول وجواهر التوباز التى تدخل وتنطلق، وابتسامة الأعشاب، ما هى إلا ظلال لمقدمات حقيقتها" [الفريوس، ٧٦:٣٠-٧٨]. وتتفق الإشارة إلى الأرواح هنا فى سماء التأملات كما جواهر التوباز اتفاقاً تاماً مع ما يعرفه روبرت أم . بورلنغ Robert M. Durling بأنه تقليد صنع الإيقونات الذى يربط الحجر "سواء من النوع الأزرق أو الذهبى، بالحياة التأملية والرؤية الجميلة." (٥٤)

وعلى الرغم من أن دانتى يستخدم هذه الأحجار الكريمة ليصف المباركين، وعلى الرغم من أن الأحجار التى تشع (الأحمر، الأصفر، الأبيض، ما لا لون له) تخترق السماوات مثل النجوم، فى كثير من الحالات، فإنه يرفق الملاحظة ببناء مجازى. إنه - إذ يستخدم الألفاظ تقريباً، جملة، يبدو، بعض مثل، أو لفظة جديدة كفعل تأملى، فإنه ينكر على تخيله أى إمكانية محاكاتية. الوسيلة لا يمكن أن تتساوى مع إشارة دقيقة. هذه الحيل الأدبية معاً تؤكد المكانة الخاصة (الحركة، النورانية، الصلابة، التفرد، والجلال) لما رآه، إنما هى تقوض الحسية المحاكاتية (٥٥). مركزى لأسلوب دانتى الشعرى فى السماء أن الأحجار الكريمة هى مجازات، وعلى النقيض من الرؤى الأخرى للعالم الآخر، فإنها لا تشاهد فعلاً. فى الحقيقة هى ليست مجرد مجازات، لأنها تبدو قابلة للمقارنة. إن أنفوس الأشياء فى العالم الطبيعى، تلك التى تقرب الواقع

إلى السماوات، - والتي يعبر عنها في المستقبل، كما لو أنه لم يخبر هذا : هناك سنرى ما ندركه بالعقيدة، وهو ما لا يبدو في الظاهر، إنما ندركه في ذاته [الفريوس، ٤٣:٢-٤٤]. إن معارضة اللاهوت البولصى (والأوغسطينى-البونافنتورا) للنزعة السكولائية (المدرسية) ("غير العرضية") يستذكر دانتى التعريف البولصى للإيمان: "أما الإيمان فهو قيام المرجوات فينا وبرهان غير المنظورات" [رسالة القديس بولس إلى العبرانيين، ١:١١]. ومن المثير للاهتمام أنه يستخدم الأشياء الطبيعية الأندر، الأحجار الكريمة، للإشارة إلى *sperandorum substantia rerum* وهو هنا أيضاً يميز بين تجارب جهنم والمطهر مقابل تجارب الجنة. فى هذين العالمين الآخرين برهن على عواقب الخطيئة، حتى يكون بإمكان الحاج أن يتعلم عقلائياً، أما فى الجنة فسوف يرى ماذا على الأرض ينبغى أن يقوم على أساس الإيمان.

فى الجحيم اعتمد أسلوب دانتى على المحاكاة، شعرية واقعية، وفى المطهر انتقل إلى أسلوب شعري أشبه بالحلم. أما فى الفريوس، الذى يهيمن فيه "اختلاف" مجازى فإن المكانة الرمزية للأحجار الكريمة تؤكد الجمال الذى تعكسه وعجزها فى الآن نفسه عن أن تكشف عنه بأى درجة من الدقة^(٥٦). إنها مجرد وسائل شعرية لتقريب روعة الرؤية. وعلى الرغم من أن اللغة والوسائل الشعرية تعزز المكانة الخاصة لموضوع دانتى، إلا أن مكانتهما اللغوية (كمجاز أو تشبيه أو *polionomesia* أو حس متزامن *synthesia* أو لفظ جديد) تعلن أنها بدائل شعرية عن الشيء الحقيقى. هى "مقدمات مبهمّة" *a hapax legomenon* فى الكوميديا "لحقيقتها" (٧٨:٣٠). والمقدمات هى إشارات محددة إلى علامات بونافنتورا فى عالم الطبيعة بأن الخلق قد حدث خلال إرادة إلهية، وليس بواسطة ضرورة طبيعية كما يذهب خطأ أرسطو والأرسطية العربية، ٥٧ فعند بونافنتورا إن جمال العالم الرائع- كعلامة- هو الوحي الدائم للرب إلى البشر^{٥٨}، يزيل الشاعر هذه الأشياء الجميلة الثمينة من مجال الممارسات المكانية

المادية، سواء كانت فكرية، تجارية، أو عسكرية. وتصبح عنده وسائل شعرية للإيماء إلى ثراء العالم وندرته؛ وحتى فى هذه الصفة فإنها فقط "مقدمات مبهمّة" لجمال الجسم السماوى الحقيقى. وفى مركّب شعري للمواقف اللاهوتية-الفكرية للنزعة السكولائية(المدرسية) والمذهب البونافنتورا الفرانسيסקانى، يربط دانتي مناقشة ألبرت الأكبر العلمية لأصول الأحجار الكريمة واستخداماتها وخصائصها بالفكرة البونافنتورا عن الجمال البصرى فى العالم كعلامة للرب غير المرئى الذى خلقها^(٥٩).

فى الفردوس، يستخدم دانتي "مادة الشرق" كأداة شعرية ليحكى قصة القديس فرانسيس "الأعجوبة الحية" (٩٥:١١، ٢٢:١٣)^(٦٠) ويؤدى دوراً خاصاً فى الكوميديا أيضاً نهر الكانج، النهر العجيب الذى ربطه الكتاب الرومان بالحدود الشرقية لحملات الإسكندر، والذى هو مجاز دال على "أطراف الأرض" التى - على النقيض من الإسكندر - لم يصل إليها الرومان كغزاة. يقول دانتي، فى ربط بين ميلاد القديس فرانسيس وذلك النهر البعيد عند الحدود الشرقية للأرض، عن ميلاد القديس فرانسيس:

طلعت على العالم شمس، كما تطلع شمسنا على نهر الكانج أحياناً، لذا دع من يتكلم عن هذا المكان لا ينطق بكلمة أسيشى، إذ سيقصر فى قوله، إنما فليمسّه إذا أراد بالشرق إذا أراد قول الحقيقة [الفردوس، ١١:٥٠-٥٤].

يلعب دانتي على الألفاظ، أسيسى (مسقط رأس فرانسيس) وأشيسى^(ض) فيربط مولد فرانسيس الشرقى بميلاد المسيح وطلوع الشمس بينما تصل أبعد شرقاً لتشمل "الشرق" Orient. وهكذا فإن الهند والكانج - حيث تولد الشمس - يصبح مسقط رأس القديس فرانسيس المجازى. وتزواج الأنشودتان الحادية عشرة والثانية عشرة حياتى

(ض) Ascisi معناها فى اللغة الإيطالية الصعود والطلوع (المترجم).

القديس فرانسيس - من "الشرق" - والقديس دومينيك - من "الغرب" - من شروق الشمس إلى غروبها، الأمر الذي يشير، كما ذهبت الحجج - إلى عالمية رسالتهما^(٦١). ويذهب سيلفيو باسكوآزي Silvio Pasquazi إلى أن القديس فرانسيس يتطابق مع الرسول إلياس ويتطابق مع القديس دومينيك مع البطريرك إينوك، وكلاهما من كتاب الرؤيا الأخوية. ويؤكد باسكوآزي أيضاً - مستخدماً بوناڤنتورا مصدراً له - أن بوناڤنتورا يعادل بين القديس فرانسيس وملاك الكرسي الثالث في رؤيا القديس يوحنا، وأن هذا يفسر إصرار دانتي ودافعه إلى تقديم معلومات جغرافية وفلكية تتعلق بميلاد كل من القديس فرانسيس والقديس دومينيك^(٦٢). واحد منهما باعتباره "أعجوبة حية" والآخر باعتباره مصدر "الثمرة العجيبة" يدخلان معاً العالم في أبعد مناطق كعلامتين "عجيبتين" على عمل الرب في العالم. وهما معاً يغطيان العالم بأسره. ولكن القديس فرانسيس "الأعجوبة الحية" - وإن كان قد ولد من السماء الشرقية - قد عاش في إيطاليا، ويبدو دانتي عازماً على أن يبرهن على أن دوره التنبؤي الأخرى كان مقصوداً به أن لا يتم من إيطاليا. إن محاولة القديس لتحويل المسلمين عن عقيدتهم أخذته إلى بعثة تبشيرية سلمية إلى الشرق، ولكنه يعود بعد أن يجد أن الناس هناك غير متقبلين لأفكاره إلى أرض أكثر خصوبة، ومن ثم يتوجه غرباً، مثل إينياس وبولس ودانتي نفسه. وهذا مهم جداً لتوجه دانتي إلى الشرق لعدد من الأسباب. أولاً، على الرغم من أنه يقدم حياة القديس فرانسيس وحياة القديس دومينيك كنموذجين عالميين، يغطيان الشرق والغرب، فإنه لا يفعل هذا ليدعم أية حيازة إيديولوجية أو سياسية لهذه الفضائل. على النقيض من ذلك هو يلاحظ أن القديس فرانسيس أدار ظهره للنشاطات التبشيرية في شرق البحر الأبيض المتوسط. ولكن دانتي يشير إلى بعد مكاني آخر في حياة القديس فرانسيس: إنه نموذج لحياة عند عتبة الشعور، حياة الفقر الشديد خارج الأفكار التقليدية للمكان المادي. فباعتباره إيقونة "الأعجوبة الحية" عاش في فضاء طوباوي (في مدينة الرب) حيث كانت التراتبات التقليدية للثروة

والسلطة والمركز والفضاء العلماني مقلوبة، وهو إذ يفعل هذا يكون "أعجوبة"، علامة على إمكانية أن يقلده آخرون^(٦٣).

ويذكرنا دانتى - وهو يكتب بعضاً من أقوى أشعاره فى حياتها كلها - فى الفردوس مراراً وتكراراً بأنه قد تجاوز موهبته الشعرية: إن الألسن التى تغنت بها أخواتها جميعاً والأغنية المقدسة (Polyhemnia) نفسها "لن تكون جزءاً من ألف من الحقيقة فى التغنى بالابتسامة المقدسة" [الفردوس، ٥٨: ٢٣-٥٩]. إنه لا يملك ذاكرة دقيقة، ولا لغة ملائمة، ولا مبدأ محاكاة:

هناك رأيت جملاً يبتسم لرياضتهم وأغنياتهم، فكان هو البهجة فى عيون الطوباويين بأسرهم. ولو كانت لى فى الحديث ثروة مساوية لما لى فى التصور، لما جرؤت على محاولة التعبير عن أدنى بهجتها [الفردوس، ١٣٣: ٣١-١٣٨].

Synesthesia، التشبيه البعيد المنال والمجاز، والموابة، الكناية، الألفاظ الجديدة، polionamasia، هى أنواته لمفارقة الشعر شعرياً فى الرحلة فيما وراء المكانية والفهم الإنسانيين. هذه الأدوات - الوسائل اللغوية المركزية للاهوت - تلغى المعانى الأدبية حتى وهى تومئ إلى استحالة وصف فيما وراء الاستيعاب الإنسانى. وعلى الرغم من أن الشاعر يريدنا أن نعتقد أنه كان حقاً هناك، فإنه يلاحظ باستمرار أنه لا يستطيع أن يتذكرها أو يصفها - أو يجرؤ على أن يحاول تقديمها. مع ذلك فإنه يشير مرة بعد أخرى بصورة محددة إلى "البهجة" و"الفرح" و"السعادة" و"الألعاب" و"الأرواح المرحّة". وفيما تمت مواربته هناك، حيث "فى كل مكان فى السماء فردوس" (٨٨-٨٩)، "حيث العالم أكثر حياة" (٧٨: ٥)، "ليس لهذه السماء من مكان آخر إلا العقل الإلهى" (١٠٩: ٢٧-١١٠) "حيث كل ubi وكل quando مرتكزة" (١٢: ٢٩)، فتح الحب الأبدى ذاته لمحبات جديدة" (١٨: ٢٩).

وبينما يتبنى دانتى موضوعات "مادة الشرق" فإنه يحولها لأغراضه اللاهوتية والشعرية. إنها لا تفيد فقط خياله الطوباوى، إنما تصبح أيضاً واحدة من وسائله لمواجهة المداولات الفكرية المركزية لزمانه. إن أعاجيب الشرق أكثر من مجرد أشياء تلتهم فكراً أو تجارياً. إنها الأشياء الحية التى يجعلها علامات (مجازات) الرب. غير أن المجاز - وإن كان يؤكد على الاختلاف - لا يقصد به هنا خلق انقسام جذرى ميتافيزيقى بين أشياء دنيوية وأشياء إلهية، إنما الأحرى أنه الوسيلة الشعرية لإعادة تأكيد الصلة بين الإلهى والدنيوى وفى هذا الصدد فإن أسلوب دانتى المجازى فى الفريوس يؤكد ما كتبه جيورديو آغامبين Giorgio Agamben عن رؤيا الرب فى العالم: "إن الفرضية القائلة بأن الرب لا يتكشف فى العالم يمكن التعبير عنها أيضاً بالعبارة التالية: إن ما هو إلهى على الوجه الصحيح هو أن العالم لا يكشف الرب" (٦٤). يهذب دانتى "مادة الشرق". الأشياء والأماكن النادرة والمدهشة التى يحكى عنها "الكذابون" و "الرحالة" وكتاب تأثروا بقصص هؤلاء. يحول دانتى الأعاجيب إلى "روائع"، وعلى خطى تقاليد رؤيا القديس يوحنا، يواجه تراتبات وطغيانات زمانه فى رؤيا تقرب "الربيع العجيب" [الفريوس، ٦٢:٢٠] وعمل "المبدع الحق" [الفريوس، ٢٦:٤٠].

هوامش الفصل الخامس

- (١) (ص ١٣١ - هامش ١).
- (٢) بشأن مناقشة للمشكلات مع هذه النظرية في المجاز انظر: Richards, The Philosophy of Rhetoric, 90, oric.
- (٣) انظر: (ص ١٣١ - هامش ٢).
- (٤) (ص ١٣١ - هامش ٤).
- (٥) (ص ١٣١ - هامش ٥).
- (٦) (ص ١٣١ - هامش ٦).
- (٧) بشأن تحليل للكيفية التي يطبق بها بونافنتورا فكرة "الكلمة الملهمة" على عمله التأويلي، وخاصة في تعليقاته على Hexaëmeron، انظر Maranesi, Verbum Inspiratum.
- (٨) (ص ١٣١ - هامش ٨).
- (٩) في كتابه Dante Philomythes and Philosopher, 43-51، يناقش Boyde مفهوم "الاعجوبة" Marviligia عند دانتي.
- (١٠) بشأن نقد دانتي لـ الوليمة انظر: (ص ١٣١-١٣٢ - هامش ١٠).
- (١١) انظر: Brunetto Li Livres dou tresor, 1.1، وإتني أحيل الى مناقشة مازوتي Mazzotti لعلاقة دانتي بكتاب برونيتو وصلته بنظريات المعرفة والشعر. انظر: (ص ١٣٢ - هامش ١١).
- (١٢) (ص ١٣٢ - هامش ١٢).
- (١٣) (ص ١٣٢ - هامش ١٣).
- (١٤) بشأن ارتباط الغرفين بالزمرد انظر: (ص ١٣٢ - هامش ١٤).
- (١٥) "إن ما يسمى بالغرفين حيوان..... جسمه جسم أسد، جناحاه ورأسه تماثل نسراً ١٧، ٢، ١٢. [Etimologias]

(١٦) ص ١٢٢ - هامش ١٦) الذى فيه يقول بالغرفين بوصفه المسيح، ولكن- على خطى هاردي Hardie فى The Symbol of The Gryphon يذهب درونكى "Dronke فى المطهر، الأنشودة ٢٤، ص ١٢٠، إلى أنه لا يوجد مثال واحد فى التقاليد المسيحية على غرفتين ربط بالمسيح قبل دانتى. ويوضح درونكى قائلاً أن الغرفتين يستحضر جن دانتى وتستدعى العربية روحه (١٢٢). ويقول R.E.Kaske - فى حججه الواردة فى "The Seven Status Ecclesiae" أن الموكب فى القربوس، ١١٧-١٠٩:٣٢ يمثل الدرجات الكنسية السبع، ويفترض أن الغرفتين هو المسيح.

(١٧) (ص ١٢٢ - هامش ١٧).

(١٨) بشأن مناقشة موسعة لهذه الأنشودة ودور ماتيلدا فيها انظر: Kirkhan, "Purgatorio xxviii".

(١٩) بشأن دور ماتيلدا فى القربوس الأرضى ، انظر: (ص ١٢٢ - هامش ١٩).

(٢٠) انظر : (ص ١٢٢ - هامش ٢٠).

(٢١) Abelard, Expositio in Hexaemeron ويشأن توضيح لهذه النقطة ، انظر: Singleton, Dante's Commedia, 206-7 وملاحظاته فى pp 677-79 الكوميديا، حيث يقتبس من المزمور على النحو المطبوع هنا.

(٢٢) يورد هوكنز Hawkins هذه النقطة ويربطها بلاموت بوناڤنتورا. انظر: ١٩٨-٢٠٠ watching Ma- The Dream, 23 Nardi, telda" Dal "Convivio", 20 انظر مناقشة مازوتا Mazzotta لمقال "The Dream 149-50, of the Siren" in Dante's Vision

(٢٤) انظر: (ص ١٢٢ - هامش ٢٤).

(٢٥) بالطبع فإنه لا غنى لمناقشة عن استخدام دانتى تحيل الحجر الكريم فى شعره عن Durling and mar- Time and the Crystal, linez "Appendix 3: Precious stones in التحديد: انظر على وجه "the paradiso" 273-76 والمناقشة الراحنة هى أكمل إيضاحاً فى مقالتي: "Wonders on the Border"

(٢٦) (ص ١٢٢ - هامش ٢٦).

(٢٧) (ص ١٢٢ - هامش ٢٧).

(٢٨) (ص ١٢٢ - هامش ٢٨).

(٢٩) (ص ١٢٢ - هامش ٢٩) على سبيل المثال تتضمن - بصورة لا تقدر بثمن- "عجائب مثل الجواهر أو الخيام الجميلة أو مؤشرات أخرى للثروة فى حوزة العدو الإسلامى.

(٣٠) (ص ١٢٢ - هامش ٣٠).

(٣١) انظر (ص ١٢٢ - هامش ٣١).

(٣٢) لدراسة لميتافيزيقيا النور عند دانتي، انظر Mazzero, "light Metaphysics", 52 " وفيها يكتب إن فردوس دانتي [هو] أعظم عرض شعري لميتافيزيقيا النور في العصور الوسطى.

(٣٣) (ص ١٢٢ - هامش ٣٣).

(٣٤) المصدر نفسه، ٨٨ - ٨٩، ويشأن مناقشة موسعة لاستخدام دانتي "العقيق" كوسيلة شعرية انظر: Dur- 109-37 , Time and the crystal, ling and Martinez

(٣٥) بشأن مناقشة لذا التشبيه الافتتاحي انظر: (ص ١٢٢ - هامش ٣٥).

(٣٦) انظر (ص ١٢٢ - هامش ٣٦).

(٣٧) انظر (ص ١٢٢ - هامش ٣٧).

(٣٨) يقول مؤلف كتاب De Bestiis et Aliis Rebus أن الياقوت الأزرق هو لون السماء حينما تكون صافية.

(٣٩) (ص ١٢٢ - هامش ٣٩).

(٤٠) (ص ١٢٢ - هامش ٤٠).

(٤١) انظر (ص ١٢٢ - هامش ٤١).

(٤٢) (ص ١٢٢ - هامش ٤٢).

(٤٣) (ص ١٢٢ - هامش ٤٣).

(٤٤) (ص ١٢٢ - هامش ٤٤).

(٤٥) بشأن مناقشة للكيفية التي تعمل بها الألفاظ الجديدة في الفردوس للإشارة في أن واحد إلى الجليل وهو للإعلان بواسطة مكانتها الخاصة باعتبارها لغة "مخلوقة" أو "مكسرة"، إن الجليل لا يمكن أن يوصف، انظر مقالتي "Dante's Neologisms"

(٤٦) (ص ١٢٢ - هامش ٤٦).

(٤٧) (ص ١٢٢ - هامش ٤٧).

(٤٨) (ص ١٢٢ - هامش ٤٨).

(٤٩) ندين بالفضل لفكتوريا كيركهام Victoria Kirkham لاقتراحها هذا التعارض مع "الصخور السماوية.

- (٥٠) (ص ١٣٣ - هامش ٥٠).
- (٥١) (ص ١٣٣ - هامش ٥١).
- (٥٢) بشأن مناقشة موسعة للتوازن في سداسية لبترايك تقدم نظرة أكاديمية عن هذه الحجرة تلك الحقبة، انظر
- "Petrarch's Giovane donna sotto un verde lauro", Durling
- (٥٣) (ص ١٣٣ - هامش ٥٣).
- (٥٤) (ص ١٣٣ - هامش ٥٤).
- (٥٥) تركب مناقشة فريتشيريو freccero لـ "اللؤلؤ على الحافة البيضاء" هذا النوع "المهزوم ذاتياً" من الشعر الذي يتغلغل في الفردوس، انظر Dante, 212-13
- (٥٦) بشأن مناقشة كاملة ومقنعة للكيفية التي يؤدي بها الفرق وظيفته في الفردوس انظر، Barolini, 166-93, The Undivine Comedy
- (٥٧) (ص ١٣٣ - هامش ٥٧).
- (٥٨) (ص ١٣٣ - هامش ٥٨).
- (٥٩) بشأن مناقشة للاهوت الجمال عند بوناغنتورا، انظر Spargo, The Category of the Aesthet-
- 50-71, ic
- (٦٠) أشار نقاد عديون إلى أوجه التوازي بين الأنشودة ١١ والأنشودة ١٢. انظر ، على سبيل المثال، (ص ١٣٤ - هامش ٦٠).
- (٦١) (ص ١٣٤ - هامش ٦١).
- (٦٢) (ص ١٣٤ - هامش ٦٢).
- (٦٣) بشأن تطوير هذه النقطة في حياة القديس فرانسيس وأعماله، انظر The Ritual Pro-, Turner
- 131-65, cess
- (٦٤) (ص ١٣٤ - هامش ٦٤).

المؤلفة فى سطور :

دكتورة بريندا دين شيلدغين

هى أستاذة الأدب المقارن بجامعة كاليفورنيا مدينة ديفيز الاميركية . وبهذه
الصفة فانها عضو فى الهيئة التعليمية المشرفة على برنامج الأدب المقارن فى هذه
الجامعة . ويجد بالذكر فى هذا المجال إنها تشغل فى جامعة كاليفورنيا المنصب الذى
كان يشغله المفكر الفلسطينى العربى الراحل الدكتور إدوارد سعيد أستاذ للأدب
الإنجليزى المقارن فى جامعة كولومبيا (نيويورك) .

لها كتب أخرى غير دانتى والشرق أهمها : ديكاميون وحكايات كانتربيرى -
مقالات جديدة عن مسألة قديمة ، وكتاب الوثنيون والتاتار والمسلمون واليهود فى
حكايات كانتربيرى (الشاعر الإنجليزى تشوسر) .

المترجم فى سطور:

سمير كرم

من مواليد القاهرة(١٩٣٧) تخرج من قسم الفلسفة (أداب القاهرة - ١٩٥٨ .
عمل فى الإذاعة المصرية والصحافة المصرية (الأهرام) ثم الصحافة اللبنانية ثم جمع
بين العاملين الصحفى والاكاديمى فشغل منصب مدير الدراسات بمركز دراسات
الوحدة العربية (بيروت) وعمل مراسلا صحفيا بالولايات المتحدة طوال الفترة من
١٩٨١ الى ٢٠٠١ .

له ترجمات أخرى عديدة منها: الموسوعة الفلسفية تاليف روزنتال ويودين -
الشيوعية الأوروبية والدولة لسانتياغو كاريو ، الفن والتحليل النفسى (مختارات لفرويد
ويونج)، تطور الفكر الفلسفى لتيودور اويزрман، أفكار لازمنة الحرب والموت (مختارات
بحثية لفرويد).

التصحيح اللغوى : طارق عبد الفتاح
الإشراف الفنى : حسن كامل

